مِنْ كنوز القرآن
١١

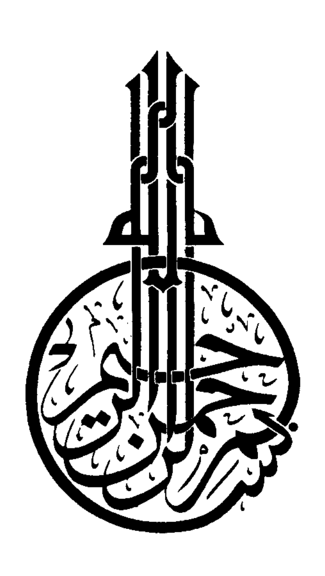
وُعُودُ القُرْآنِ

بِالتَّمْكِينِ لِلإِسْلَامِ

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي



دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا، ومن سيئاتِ أَعمالِنا، مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هاديَ لـه، وأَشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاّ الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبـدُه ورسولُه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، وعلى آله وأصحابِه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أوضاع المسلمين في هذا الزمانِ عجيبةٌ غريبة، وهم يَعيشونَ حياةً خاصّـةً شـاذّةً، لا يُقاسُ عليها، ولا تُقاسُ على غيرِها، ولم يَسبقْ أنْ عاشَـها المسلمون السابقون في مختلفِ فتراتِ تاريخِهم.

ابتعدَ كثيرٌ من المسلمينَ عن إسلامهم، بنِسَبٍ متفاوتة، وخرجَ بعضُهم عن الإسلام خروجاً صريحاً، وعاشَ بعضُهم (ازدواجية) عجيبة، بين الفكرِ والسلوك، والإيمانِ والعمل، تناقضوا فيها بين ما هو في تصوُّراتِهم وأفكارِهم، وبين ما هو في تصرُّفاتِهم وأعمالِهم، وانطبقَ عليهم في هذا الجانبِ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

ونتجَ عن هذه الحالةِ المَرَضيَّةِ ظهورُ أجيالٍ جديدةٍ من أبناءِ المسلمين، ليس لها من الإسلام إلاّ الأسماءُ التي تسمّوا بها، وإلاّ بعضُ المشاعرِ والعواطفِ القلبية، وبعضُ الأفكارِ العقلية، وبعضُ الممارساتِ الإسلاميةِ في المناسبات.

وهذا لا ينفي وُجودَ أفرادٍ مؤمنين صالحين، رجالاً ونساءً، في كلِّ قطر أو مدينـةٍ أو بلدة من بلادِ المسلمين، ومختلفِ بلادِ العالم. ومن وجودِ دعواتٍ وحـركـاتٍ وتنظيمـاتٍ إسـلاميـة هنـا وهنـاك، تعمـلُ على تـوعيـةِ المسلميـن وتبصيرهم، وإعادتِهم إلى دينِهم.. وأحدثَتْ هذه الحركاتُ (صحوةً) إسلاميةً مباركة، تمثّلت في عدّة ظواهرَ ومظاهر، علميةٍ وعملية، في بلاد المسلمين..

لكنَّ أنصارَ هذه الصحوة ما زالوا قلائلَ في مجتمعاتِهم، وما زالوا (غرباء) بين أهليهم، يعيشون غُربتهم القاسية بصبرٍ وثباتٍ، واحتسابٍ وتوكّلٍ على الله!.

ونجحَ الأعداءُ في هذا الزمان، في إبعادِ الإسلامِ عن الوجودِ الفعليِّ الحيِّ المؤثِّرِ في حياةِ المسلمين، وإقصائه عن مجتمعاتِهم وتشريعاتِهم، وحياتِهم العامة؛ السياسيةِ والاجتماعيةِ، والاقتصاديةِ والأخلاقيةِ، والتربويةِ والإعلامية، والفنيةِ والداخليةِ والخارجية. وكانت البدايةُ في القضاءِ على الخلافةِ في الربعِ الأولِ من القرنِ العشرين، ثم توالت المشكلاتُ المتلاحقةُ على المسلمين.

وصاحبَ ابتعادُ كثيرٍ من المسلمين عن إسلامهم (حروباً) عالمية، شنَّها أعداءُ الأمةِ على إسلامِها، منذُ مطلعِ القرنِ العشرين المنصرم، حيثُ قامَ الأعداءُ الإنكليزُ والفرنسيون، والإسبانُ والطُّليان، والهولنديون والبلجيكيون، والروس والصينيون، في احتلالِ واستعمارِ مختلفِ بلادِ المسلمين.. وأعطى هؤلاء الأعداءُ الأرضَ المقدَّسة (فلسطين) وطناً قومياً لليهود.

وقُبيلَ منتصفِ القرنِ العشرين أقامَ اليهودُ دولتَهم على الأرض المقدّسة فلسطين، ووسط الدعمِ المتتابعِ من الأعداءِ لليهود، والتراجعِ المتتابعِ من العربِ والمسلمين، أتمَّ اليهودُ احتلالَ فلسطينَ كلِّها، وأجزاء من دولٍ عربيةٍ أُخرى عام ١٩٦٧م.

وبدلَ أنْ يحاربَ العربُ الغاصبين اليهود، ويُحرِّروا الأرضَ المقدَّسةَ منهم، عقدوا معهم اتفاقيات، سَمّوها (اتفاقيات سلام)، تمكّن اليهودُ بسببِها من الانتشارِ، والاستعمارِ الاقتصادي والفكري، والأخلاقي والإعلامي، والفني والسياسي، في بلاد المسلمين.

واستمرَّت الحربُ الصليبيةُ التلموديةُ ضدَّ المسلمين، واتخذتْ لها عدّةَ مظاهرَ وجوانب، وصورٍ ونماذج!.

وشهدت بدايةُ القرنِ الحادي والعشرين تصعيداً خطيراً في هذه الحرب، من قِبَلِ اليهودِ والصليبيين، قامَ فيها اليهودُ بتصعيدِ العدوان على أهلِ فلسطين وغيرهم، وقامَ فيها الأمريكان بتصعيدِ العدوان على بلاد المسلمين، واحتلال أفغانستان والعراق...

وفتحَ كثيرٌ من المسلمين عيونَهم على الخطرِ اليهوديِّ الصليبيِّ المدمِّر، وازدادوا بصيرةً به، وحذراً منه، وانحازوا إلى إسلامِهم، وصَمَّموا على مواجهةِ الأعداء، ورفع رايةِ الإسلام، وصبروا على الأذى الذي صبَّهُ الأعداءُ عليهم، وجاهدوهم جهاداً مبروراً، متشعّب الميادين والمجالات والجوانب!.

و(فَزَعَ) هؤلاء المؤمنون الثابتون إلى إسلامِهم، يأخذونَ منه المدد والزاد، والعلمَ والوعي، والبصيرةَ والمعرفة، ولجؤوا إلى الله، متوكّلين عليه، مجاهدين في سبيله، محتسبين كلَّ ما يصيبُهم عنده، طالبين منه التوفيقَ والسَّداد، والتثبيتَ والرشاد، والأَجْرَ والثواب.

وأمامَ عنفِ وشدةِ وقسوةِ الحربِ اليهوديةِ الصليبية، ضعفَتْ هممُ وعزائمُ بعضِ المسلمين، وأُصيبوا في آمالِهم وتطلُّعاتِهم ورؤاهم، وتَدَسَّسَ اليأسُ والإحباطُ إليهم، وفقدوا النظرةَ المستقبليةَ الآملةَ الواعدة، وذَهبوا إلى أنها القاصمةُ القاضية، التي أُصيبَ بها المسلمون على أيدي اليهود والصليبيين، وأنها هي النهايةُ في مسلسلِ المواجهةِ بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، وأنّه كُتبَ في خاتمةِ هذا المسلسلِ للكفار السيطرةُ والهيمنةُ الدائمةُ على بلاد المسلمين! وأنَّ هذه هي نهايةُ الدنيا، وأنَّ الساعةَ أصبحتْ وشيكة!!.

وهذه حالةٌ مَرَضية، يُعاني منها هؤلاء المسلمونَ المصابونَ في آمالِهم وتطلُّعاتهم، وتتعارضُ مع حقائقِ الإسلامِ الثابتةِ الواعدة، الصادقةِ الآملةِ، المبشِّرَة، التي تُقدمُ (وعوداً) واثقةً قاطعة، بالمستقبلِ المشرِق للإسلام!.

وقد أصدرَ العلماءُ والباحثونَ المعاصرون بعضَ الدراساتِ الإسلامية، وقدَّموا فيها ما وقفوا عليه، وما هَداهم اللهُ إليه، من هذه الوعودِ الإسلاميةِ الصادقة، ودَعوا المسلمينَ إلى الثقةِ واليقين بها، والعملِ المتواصل لتحقيقها.

ومن الكتبِ التي شكَّلت البداياتِ الأولى في هذا الجانب كتاب: (المستقبل لهذا الدين) للمفكِّر الإسلاميِّ الرائد الشهيد سيد قطب، الذي أصدرَه قبلَ حوالي خمسين عاماً. ومنها كتاب: (الإسلام ومستقبل البشرية) للعالمِ المجاهدِ الشهيدِ الدكتور عبد الله عزام. ومنها كتاب: (المبشّرات بانتصار الإسلام) للفقيه الداعية الدكتور يوسف القرضاوي.

وساهمَ المسلمون المهتدون في الغرب، الذين بَحثـوا عن الحقيقـة، فاهتدوا إلى الإسلام، وجعلوه ديناً لهم، في دراساتِهم الناقدةِ للحضارةِ الغربيةِ، التي هي على وشـكِ الأُفولِ والغيـاب، واعتبروا الإسلامَ هو (الدين العالمي) القادم، وأنَّ له مهمةً عظيمة، ينتظرُ العالمُ الغربيُّ المعذَّبُ منه أنْ يؤدِّيها.

ومن الدراساتِ المترجمةِ إلى اللغةِ العربيةِ كتاب (وعود الإسلام) للمفكّر المهتدي (رجاء جارودي)، و(الإسلام كبديل) للمفكّر الألماني المهتدي (مراد هوفمان). وقد كَتَبَ المفكِّران الباحثان الكتابَيْن وفقَ نظرتِهما للإسلام، التي قد يكونُ لنا عليها بعضُ الملاحظات والتحفُّظات، والتي قد تحتاجُ إلى مزيدٍ من المراجعةِ والبحثِ والتحليل. لكنَّهما كتابان مفيدان، يستفيدُ منهما المسلمُ المعاصر كثيراً، بشرطِ استصحابه لهذه الملاحظة التحذيرية الإرشادية!.

وإنَّ آياتِ القرآنِ تضمّنَتْ (وُعوداً) عديدة، وَعَدَها اللهُ عبادَه المؤمنين الصادقين، وبَشَّرَهم فيها بانتصارِ الإسلام، والتمكينِ له في الأرضِ، وإظهارِه على الأديانِ كلِّها، وإزهاقِ الحقِّ للباطل، وهزيمةِ الكفرِ وأهلِه.

وقد يغفلُ بعضُ المسلمين المعاصرين عن هذه (الوعودِ القرآنية) الصادقة، في زحمةِ تعرُّضِهم للهجمةِ اليهوديةِ الصليبيةِ الحالية، وبذلك قد تتدسسُ إليهم بعضُ مشاعرِ اليأسِ والإحباطِ والقنوط.

لذلك دعت الحاجةُ الميدانيةُ الواقعيةُ إلى تقديم هذه الوعودِ القرآنيةِ الصادقة، للمسلمين المواجهين لأعداءِ الله، ليتعرَّفوا على قرآنِهم العظيم، ويزدادوا إقبالاً عليه، واستمساكاً به، وتطبيقاً لأحكامِه، وتصديقاً بوعوده، وتصميماً على مواجهةِ أعدائِه، ليقَرِّبوا هذه الوعودَ القاطعة، ويَعْمَلوا على تحقُّقِها وإيجادِها في عالم الواقع..

ولأجلِ ذلكَ أَعْدَدْنا هذا الكتاب، الذي هو الحلقةُ الحاديةَ عشرة، من سلسلتنا القرآنية: (من كنوزِ القرآن).

خصَّصْنا هذا الكتابَ للحديثِ عن: (وعودِ القرآنِ بالتمكينِ للإسلام)، لأنَّ اللهَ أكملَ لنا دينَنا، وأتمَّ علينا نعمتَه، ورضيَ لنا الإسلامَ ديناً، وجعله الدينَ الوحيدَ المقبولَ عنده، ونسخَ به الأديانَ السابقة، وَوَعَدَ أَنْ ينصرَه وينشرَه، ويمكِّنَ له في الأرض، ويُظهرَه على الأديانِ كلِّها..

ولكنَّ طريقَ الإسلام صعبةٌ شاقة، وليستْ سهلةً مفروشةً بالورود، لأنه يواجهُ الهجمةَ الشرسة من أعدائه الكثيرين، على اختلافِ أديانهم، ولكنَّه يخرجُ منها ظافراً منصوراً، بإِذْنِ الله.

جعلتُ الكتابَ أقساماً ثلاثة:

القسمُ الأول: بينَ يدي الوعودِ القرآنية:

جعلتُه تمهيداً للحديثِ عن وعودِ القرآن، وأساساً ننطلقُ منه للنظرِ إلى تلك الوعود، والتعاملِ معها، وتحدثتُ فيه عن المباحثِ التالية:

١ ـ إنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

٢ ـ مَنْ أصدقُ من اللهِ حديثاً؟.

٣ ـ بين الوعدِ الحق والوعدِ الباطل.

٤ ـ الموقفُ من وعْدِ الله: بين تصديقِ المؤمنين وتكذيب المنافقين.

٥ ـ وجوبُ الثقةِ المطلقةِ بالنصّ القرآني.

٦ ـ تحققُ الأخبارِ المستقبلية في القرآن.

٧ ـ استمرارُ المواجهةِ بين المسلمين والكافرين.

٨ ـ القرآنُ يبشّرُ المؤمنين الصالحين.

القسم الثاني: الوعودُ القرآنيةُ في السورِ المكية:

تحدَّثتُ فيه عن أشهرِ الوعودِ القرآنيةِ في عشرِ سورٍ مكيةٍ، مرتبةٍ حسبَ ترتيب المصحف، وهي سور: الأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والإسراء، والأنبياء، والروم، والقمر.

القسم الثالث: الوعودُ القرآنيةُ في السور المدنية:

تحدّثتُ فيه عن أشهرِ الوعودِ القرآنيةِ في اثنتي عشرة سورة مدنية، مرتبةٍ حسبَ ترتيبِ المصحف، وهي سور: البقرة، وآل عمران، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، ومحمد، والفتح، والمجادلة، والحشر، والصف.

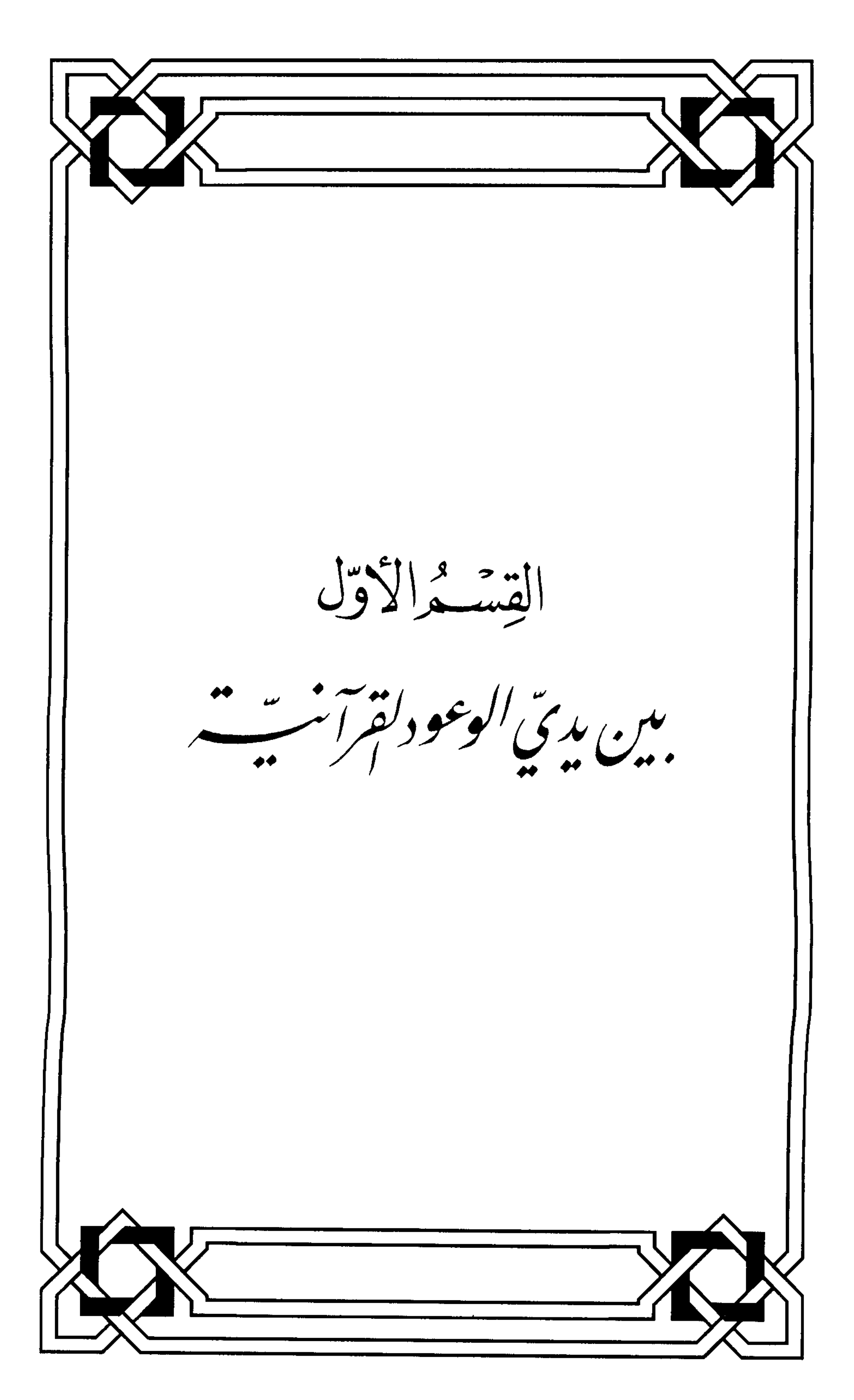
وختمتُ الكتاب **بخاتمة**، أشرتُ فيها إلى بعضِ وعودِ رسولِ الله ﷺ المبشِّرة بانتصارِ الإسلام، وإلى تحقُّقِها في حياة أصحابه عند جهادِهم وفتوحِهم البلاد، ذكرتُ وعدَ الرسولِ ﷺ إلى خَبَّاب بنِ الأرَتِّ، وإلى سُراقةَ بنِ مالك، وإلى عَدِيِّ بن حاتم الطّائي، رضي الله عنهم.

وأُقدِّمُ هذا الكتابَ إلى المسلمين الصادقين، ليزدادوا ثقةً بتحقيقِ هذه الوعودِ القرآنيةِ الصادقة، وليستشرفوا المستقبلَ المشرقَ للإسلام، وليتحرّكوا بهذا الدين، وليعملوا على تقريب تحقيقِ هذه الوعود.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السبت ١٩/ ٥/ ١٤٢٤هـ
١٩/ ٧/ ٢٠٠٣م

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي



القِسمُ الأوّل

بين يديّ الوعود القرآنيّة



الفَصْلُ الأَوَّل

إنّ الله لا يُخلِفُ الميعاد

اللهُ العظيمُ القادر، له صفاتُ الكمالِ والجلالِ والعَظَمة، وهو منزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ أو ضعفٍ أو عجز.. وهو على كلِّ شيءٍ قدير، لا رادَّ لأمرِه، ولا مبدِّلَ لكلماتِه، ولا مُبطِلَ لقضائِه، ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن.. لا يُعجزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولا تقفُ أمامه قوةٌ، مهما كبرتْ وعظمتْ.

إذا أرادَ شيئاً فعلَه، وإذا أمرَ بشيءٍ أَنْفَذَه، وإذا وعدَ بشيءٍ أنجزه، وهو الحكيمُ في كلِّ شيءٍ أرادَه وقالَه وفعلَه، القادرُ على كلِّ شيء، العالمُ بكلِّ شيء، الفاعلُ لكلِّ شيء، خلقَ كلَّ شيءٍ بقَدَرِه وقدْرَتِه، وعَلِمَ كلَّ ما كانَ وما سيكونُ، وأمْرُه بين الكافِ والنون، إذا أرادَ شيئاً فإنَّما يقولُ له: كنْ؛ فيكون.

آيات تقرّر هذه الحقيقة:

هذه حقيقةٌ إيمانيةٌ، صادقةٌ قاطعة، قرّرتْها آياتُ القرآنِ العديدة، ودعَتْنا تلك الآياتُ إلى فقهِها وتصديقِها، والإيمانِ الجازمِ بها، واليقينِ القاطعِ بتحقُّقِها ووقوعِها.. ومَنْ شكَّ فيها لم يُقَدِّرِ اللهَ حقَّ قدْره، ولم يؤمنْ باللهِ حقَّ الإيمان، ولم يعرفْه حقَّ المعرفة، وبذلك ييأسُ من رَوْحِ الله، ومعلومٌ أنَّه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون.

واللهُ لا يُخلِفُ الميعاد. وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ، وردَتْ في أكثرَ من آيةٍ كريمة، ولْننظرْ نظرةً سريعةً في تلك الآيات:

١ ـ من سورة الرعد:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وردت الآيةُ في سياقِ تكذيبِ الكفارِ بالقرآن، وحربِهم للحقِّ وأَهلِه، وأَخْذِ اللهِ لهم، بعدَ إمهالٍ واستدراج.

وتخبرُ الآيةُ عن استمرارِ عقابِ اللهِ للكفّار، بسببِ جرائمِهم وطغيانِهم، فلا تَزالُ تصيبُهم القوارع، وتَنزلُ بهم النوازل، وهذه القوارعُ والمصائبُ إمّا أنْ تقعَ على رؤوسِهم وتدمّرَ بيوتَهم، وإمَّا أنْ تقعَ في مناطقَ قريبةٍ من ديارِهم، لِلَفتِ أنظارِهم، وإيقاظِ قلوبهم.. وهذه القوارعُ والنوازلُ قد تكونُ في صورةِ زلازل، أو براكين، أو عواصف، أو فيضانات، أو حروب، أو أَمراض، أو غير ذلك.

ستبقى هذه المصائبُ تصيبُهم، وفقَ حكمةِ الله، مهما طالَ زمانُها، واتسعَ مكانُها، حتى يأتيَ وعْدُ الله.

وإمَّا أنْ يأتيَ وعْدُ اللهِ في الدُّنيا، بتحقُّقِ ما وعدَ به سبحانَه عمليّاً، وانطباقِه على أرضِ الواقع، وإمَّا أنْ يأتيَ يوم القيامة، حيثُ توعَّدَ اللهُ الكفارَ بنارِ جهنَّم، وسوف يعذِّبهم بها بعدَ حسابِهم في الآخرة.

وما وعدَ اللهُ الكفارَ به من صورِ العقابِ والعذابِ واقعٌ آتٍ متحقّق، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

ومعنى: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: لا يوقِفُ ميعادَه، ولا يُلغي وعْدَه، لأنّه لا يَعجز عن إنجازِه، ولا تقفُ أيةُ قوةٍ أَمامه، لأنَّ اللهَ لا يُعجزه أيُّ شيءٍ في الأرضِ ولا في السماء.

ولا يُخلفُ الوعْدَ إلاّ عاجز، واللهُ لا يُعجزُه أيُّ شيءٍ.. ولا يتخلّى عن وعدِهِ إلا كاذب، واللهُ هو الأَصدقُ حديثاً.

بعضُ الناسِ قد لا يعرفُ حدودَ طاقتِه، ومجالَ قدرتِه، فيَعِدُ وُعوداً أكبرَ من طاقتِه ووسْعِه، وعندما يحينُ موعدُ إنجازِ الوعود، يعجزُ عن ذلك، لضعفِ قوّتِه، وتدنّي قدرتِه، ونقْصِ ماله، وبذلك يُخلفُ الميعاد.

ومعلومٌ أنَّ خُلْفَ الوعدِ صفةٌ من صفاتِ المنافقين المذمومة، أمّا المؤمنون فإنَّ أحدَهم إذا وعدَ أوفى، لأنَّه لا يَعِدُ إلاّ بما هو ضمن قدرتِه.

وقد ذُكِرَ الوعدُ في الآية مرتين: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

و(وَعْدُ): مصدرُ الفعلِ الثلاثي: تقول: وَعَدَ، يَعِدُ، وَعْداً.

و(ميعاد): مصدرٌ آخرُ للفعلِ الثلاثي: تقول: وَعَدَ، ميعاداً، كما تقول: فَعَلَ، مِفْعالاً. وهو مثل: ميقات.

وفي (ميعاد) من التأكيدِ والتحققِ والمبالغة، أكثرُ مما في (وَعْد)، لأنَّ (ميعاد) مزيدٌ بحرفين، وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى!.

وورود المصدَرَيْن (وَعْد، وميعاد) متجاورَيْن، في جملتَيْن متتابعتَيْن في الآية، مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ البياني العجيب في القرآن.

٢ ـ من سورة الحج:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٧ ـ ٤٨].

الآيتان في سياقِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، سبقَتْها آياتٌ تتحدَّثُ عن مصارعِ الكافرين السابقين، وتَدعو إلى الاعتبار من ما جَرى لهم.

وتذكُرُ الآيتان أنَّ كفارَ قريش كانوا يستعجلونَ الرسولَ ﷺ بالعذاب، فعندما كان ﷺ يتوعَّدُهم بالعقابِ والهلاك، إن استمرُّوا على كفرِهم وتكذيبِهم وعداوتهم، كانوا يُكذِّبون بذلك ويَستبعدونه، ويَسخرونَ من الرسول ﷺ، ويستهزؤون به.. ويستعجلونَ بالعذاب، من بابِ التكذيبِ والاستبعاد والإنكار، ويقولون له: إن كنتَ صادقاً فيما تقول، فأْتِنا بما تعدُنا به من العذاب!.

ويَرُدُّ اللهُ على استعجالهم بأنَّه لن يُخلِفَ وعْدَه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ﴾، أي: إذا وَعدهم العذابَ أنفذَه وأنجزَه، وإذا أرادَ تعذيبَهم فعلَ ذلك، لأنَّه لا يُخلفُ وعْدَه، ولا يَعجزُ عن إمضائِه وإيقاعِه.

٣ ـ من سورة الروم:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤ ـ ٦].

وعدَ اللهُ في سورةِ الرومِ بانتصارِ الرومِ الكتابيِّين على الفرسِ المشركين، في بضعِ سنين، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصْرِ الله.

وسنتحدَّثُ عن ذلك في مباحثِ الكتابِ القادمةِ بعون الله.

وأخبرَ أنَّ هذا وعدٌ قاطعٌ ماضٍ من الله، لا يتوقَّفُ ولا يتخلَّف، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ وعْدَه.

وذمَّ الكفارَ الذين لا يُصدقون بذلك، ووصَفَهم بأنَّهم جاهلون، لا يعلمون هذه الحقيقةَ الإيمانية، ولا يوقنون بها.

وهذا معناه: أنَّ المؤمنين عالمون، لأنَّهم يُصدِّقون بما وعدَ الله، ويوقنون بتحقّقه ووقوعه، في مقابل جهلِ الكافرين المنكرين لذلك.

٤ ـ من سورة الزمر:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ١٩ ـ ٢٠].

تقدمُ الآيتان بعضَ ما توعَّدَ اللهُ به الكفّار من عذابِ النارِ في الآخرة، وبعضَ ما وعدَ به المؤمنين المتّقين من نعيمِ الجنّة.

وتخبرُ أنَّ هذا وعدٌ من الله، واقعٌ ناجز، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، ولذلك يوقن المؤمنُ بتحققه ووقوعِه.

٥ ـ من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

تسجلُ الآيةُ دعاءَ الصالحين الراسخين في العلم، الذي يعلنونَ فيه إيمانَهم باليومِ الآخر، ويقينَهم بأنَّ اللهَ سيجمعُ الناسَ جميعاً في يوم القيامة، ليحاسبهم، ويعاقبَ المذنبين، ويُثيبَ الصالحين، ويعقِّبون على ذلك بذكْرِ الحقيقةِ الإيمانيةِ من أنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعاد، فبما أنه وعدَ ذلك، فسينجزُ وعدَه.

وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

تسجلُ الآيةُ دعاءَ أُولي الألباب، الذاكرينَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، والمتفكّرين في خلقِ السمواتِ والأرض، والمطبِّقين لشرعِ الله، يَرجونَ اللهَ أنْ يؤتيهم ما وَعَدَهم، على ألسنةِ رسلِه، عليهم الصلاةُ والسلام.

لقد كانَ كلُّ رسولٍ - من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام - يبشرُ المؤمنين الصالحين، ويعِدُهم حُسنَ الثواب ونعيمَ الجنة في الآخرة، وها هم أُولو الألباب يرجونَ اللهَ إِنجازَ وعْدِه، بأَنْ يُدخلَهم الجنَّة، ويُنَعِّمَهم فيها، وهم يأْملون ذلك، لأنّهم يوقنونَ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وندعو إلى الالتفاتِ إلى هذه اللطيفةِ من لطائفِ سورةِ آل عمران:

فالآيةُ التاسعةُ في مقدّمةِ السورة تُسجلُ دعاءَ الراسخين في العلم، الموقنين بوعْدِ اللهِ في جمعِ الناسِ يومَ القيامة، لأنّه لا يُخلِفُ الميعاد.. والآيةُ الرابعةُ والتسعون بعد المئة تُسجلُ دعاءَ أولي الألباب، الذين يرجونَ اللهَ إنجازَ وعْدِه وإدخالَهم الجنّة، لأنّه لا يُخلفُ الميعاد. فأولُ السورةِ يُقرِّر أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وآخرُها يقررُ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وتلتقي على هذه الحقيقة القاطعة بدايةُ السورةِ ونهايتُها.

وكلُّ مؤمنٍ يوقنُ بهذه الحقيقة، ولا يشكُّ فيها لحظةً من حياته!.

* * *

الفصل الثاني

من أصدق من الله حديثا

يوقنُ المؤمنُ بأنَّ اللهَ ينجزُ وعدَه، ولا يُخلفُ الميعاد، لأنَّه يوقنُ أنه لا أَحَدَ أصدقُ من اللهِ حديثاً وقولاً.

واللهُ هو الأصدقُ حديثاً.. حقيقةٌ إيمانيةٌ قاطعة، قررتْها آياتٌ عديدةٌ من القرآن، نقفُ معها فيما يلي وقفةً سريعة:

١ ـ من سورة النساء:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

تبدأُ الآيةُ بتقريرِ توحيدِ الأُلوهية، فاللهُ سبحانه لا إلـه إلا هو، ثم تقرّرُ أنَّ اللهَ سيجمعُ الناسَ جميعاً يوم القيامة، وأنَّ ذلك اليوم آتٍ لا ريبَ فيه.

وبما أنَّ اللهَ أخبرَ عن مجيءِ ذلك اليوم، فإنّه آتٍ بدون شكٍّ أو ريب، لأنَّ اللهَ تعالى صادقٌ في حديثِه، ولا أَحَدَ أصدقُ حديثاً من الله.

وصيغَتْ هذه الحقيقةُ في الآيةِ بأُسلوبِ الاستفهام: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾؟ والاستفهامُ هنا تقريري، والحقيقةُ المقرَّرةُ أنه لا أَحَدَ أصدقُ حديثاً من الله.

ومن السُّنَّةِ للمسلمِ أنَّه عندما يقرأُ الآية وينطقُ بالاستفهام أن يجيبَ: لا أحدَ أصدقُ حديثاً من الله!.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

وعدَ اللهُ المؤمنين المتقين الذين يعملون الصالحات، أنْ يُدخلهم جناتٍ

تجري من تحتها الأنهار، وأَنْ يجعلَهم منعَّمين، خالدين فيها أبداً.

وهذا الوعدُ الإلـهي حق، أي: متحقّقٌ واقعٌ لا محالة، مثلُ باقي وعودِ الله الحقّة.

وجاءَ هذا الوعدُ المتحقّقُ في كلامِ الله وحديثِه وقولِه، وقولُ اللهِ صادق، ولا أَحدَ أصدقُ قولاً من الله.

والاستفهامُ في الآيةِ تقريري، وعندما يقرؤُه المؤمنُ أو يسمعُه من غيره، يُجيب قائلاً: لا أَحدَ أصدقُ من اللهِ قولاً!.

وندعو إلى الالتفاتِ إلى ورودِ الاستفهامَيْن التقريريَّيْن في سورةِ النساء: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾؟ و﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾؟.

٢ ـ من سورة الزمر:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

أخبرت الآيةُ عن ما سيقولُه المؤمنون، عندما يُدخلُهم اللهُ الجنة، وينَعِّمهم بنعيمِها، حيثُ سيحمدونَ اللهَ ويشكرونَه، على إنجازِ وعْدِه لهم، فقد وَعدَهم في الدنيا الجنةَ ونعيمَها، إن استقاموا على طاعتِه، ونفَّذوا في الدنيا أحكامَه، طالبين رضوانَه، متطلّعين إلى نيلِ موعودِه.

وها هو سبحانه يَصدُقُهم الوعد، ويُدخلُهم الجنةَ برحمتِه وفضْلِه، وها هم يَرِثونَ الجنّة، ويتبوَّؤون منها حيث شاؤوا.

وصدقُ الوعدِ بمعنى تحقُّقِه في عالم الواقع، وإنجازِه للموعودين به، فالوعدُ له صورةٌ نظريةٌ، وهي ذكْرُه في آياتِ القرآن، وتبشيرُ المؤمنين به، وله صورةٌ عمليةٌ واقعية، وهي إنفاذُه وإمضاؤه يوم القيامة، حيث يتنعّم المؤمنون في الجنة.

والله يصدقُ وعْدَه لأنه لا يخلفُ الميعاد!.

٣ ـ من سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن

كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٩].

يخبرُ اللهُ أنّه أرسلَ رسلاً رجالاً، قبلَ رسولِ اللهِ ﷺ، وصبروا على ما لاقوهُ من قومِهم، من كفرٍ وتكذيبٍ وحرب، وقد وعدَهم اللهُ النصرَ على أعدائِهم، ولما انتهتْ دعوتُهم مع قومِهم، صدقَهم اللهُ الوعدَ، فأنجاهم مع أَتْباعِهم المؤمنين، وأهلكَ الأعداء الكافرين.

ومعنى ﴿صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾: أنْجَزْنا لهم ما وَعدْناهم، فصِدْقُ الوعدِ: تطبيقُه، وتحويلُه إلى واقع، ونقْلُه من دائرةِ الكلامِ النظريِّ إلى حالةِ الوجودِ العملي.

٤ ـ من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ...﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذه الآيـة في سياق الحديث عن غزوةِ أُحُد، التي جرى فيها ما جرَى للمسلمين، حيث انتصرَ المسلمون في الجولةِ الأولى منها، ولما ارتكبوا مخالفتَهم بحسنِ نيةٍ، أدَّبهم الله، ورجعَ المشركون عليهم، وأصابوا منهم القتلى والجرحى، وتعلَّموا من ذلك الدروسَ والعبر!.

يخبرُ اللهُ المسلمين في هذه الآية أنه: (صدقهم وعده) وتفسيرُ هذه الجملةِ في الجملة التي تليها مباشرة: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾، ومعناها: إذْ تقتلون المشركين بإذن الله.

وهذه إشـارةٌ إلى الجولةِ الأُولى من غزوةِ أُحُد، التي لم تستمرّ إلا فترةً قصيرةً جداً، حيثُ قَتَلوا مَنْ قَتَلوا من المشركين، وانهزمَ المشركون أمامَهم.

وصَدَقَهم اللهُ وعْدَه في هذه الجولةِ بأَنْ سَلَّطَهم على المشركين، وجعلَهم يَغلبونَهم ويهزمونَهم، ونَصَرَهم عليهم، وقد وعدَهم النصرَ في آياتٍ عديدةٍ قبلَ غزوةِ أُحد، وتحقَّقَ هذا الوعدُ عملياً على أرضِ أُحُد، في المرحلة الأولى من المعركة.

وسمي هذا التحققُ العمليُّ صدْقاً وتصديقاً للوعد.

٥ ـ من سورة الأحزاب:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

تُخبرُ الآيةُ عن موقفِ المؤمنين من هجومِ الكفارِ عليهم في غزوةِ الأحزاب، من العربِ المشركين واليهودِ الماكرين والمنافقين، فلما رأوا المدينةَ محاصرةً من أحزابِ الكفر، لم يُحبطوا أو يُرعبوا، وإنما قالوا: هذا ما وعدَ اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه.. وازدادوا إيماناً بالله، وتصديقاً بكلامِه، وتسليماً لقضائه، وثباتاً على قتالِ أعدائه.

لما رأوا أحزابَ الكافرين، تذكَّروا ما وعدَهم اللهُ إياه، حيث وعدَهم قتالَ الكفارِ لهم، وهجومَهم عليهم، ثم وَعَدَهم النصرَ عليهم، إن نَصَروا الله وثَبَتوا في القتال، وكان هجومُ الأحزابِ عليهم تصديقاً من الله لهم، حيث تحوَّل به الوعدُ من الصورةِ النظريةِ إلى الصورةِ العمليةِ الواقعية، ولذلك قالوا: هذا ما وعَدَنا اللهُ ورسولُه، وصدَقَ اللهُ ورسولُه.

تدلُّ هذه الآياتُ ـ وغيرُها كثيرٌ في القرآن ـ على أنَّ اللهَ يَصْدُقُ عبادَه وعودَه التي يَعدُهم إياها، وهذا الصدق هو تحويلُ تلك الوعودِ من صورتِها النظريةِ (الوعْدِيّة) إلى صورتِها العملية التطبيقية الواقعية.

واللهُ يفعلُ ذلك لأنه هو الأصدقُ حديثاً، والأصدقُ قولاً ووعْداً، وهو لا يُخلفُ الميعاد، سبحانه وتعالى.

* * *

الفَصْل الثالث

بين الوعد الحقّ والوعد الباطل

بما أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وبما أنّه يصدقُ عبادَه وعْدَه، ويُنجزُه لهم، لأنّه الأصدقُ وعداً وقولاً وحديثاً، لذلك وَصَفَ وعْدَه بأنه الوعْدُ الحقّ. أي: هو الوعْدُ الصادق، الذي يتحققُ عملياً على أرضِ الواقع. فالحقُّ بمعنى الصحّةِ والصدق والصواب، ولذلك يُنجَزُ ويُنَفَّذُ عملياً.

آياتٌ في وعد الله الحق:

الآيات التي وصفتْ وعْدَ اللهِ بأنه (الوَعْدُ الحقّ) كثيرة، منها هذه الآيات:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

الآيةُ في سياقِ آيات، تتحدّثُ عن ميلادِ موسى عليه السلام. فقد أوحى اللهُ إلى أم موسى بالتصرّف المناسب، لإنقاذِ موسى الوليدِ من خطرِ فرعون، ووعَدَها أَنْ يَرُدَّهُ إليها. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وردَّ اللهُ الوليدَ إلى أُمه، وفقَ تدبيرِه وتقديرِه الحكيم سبحانه، وكان ردُّه إليها تحقيقاً لوعْدِه النظريِّ لها. فقد قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ولكنها لم تعرفْ كيفَ يردُّه اللهُ إليها. . ومن حِكَمِ ردِّهِ إليها أنْ تقرَّ عَيْنُها، وأنْ لا تحزنَ، ومن حِكَمِه أيضاً أنْ تعلمَ أنَّ وعْدَ اللهِ لها حق. أي: أنْ ترى تحقُّقَه العمليَّ أمامها، بأنْ يكونَ ابنُها معها.

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

تربطُ الآيةُ بين مُلْكِ اللهِ لكلِّ ما في السموات والأرض، وبينَ كونِ وعدِه هو الحق، وهذا الربطُ مقصودٌ ومُراد، لأنّه لا ينفِّذُ ما وعَدَ به إلاّ مَنْ كانَ قادراً على

ذلك، ولا يقدرُ على ذلك إلا إذا كان مالكاً غنياً، قاهراً قوياً، فإنْ لم يكن كذلك كان عاجزاً، وعجزُه يقعدُ به عن تحقيقِ الوعد.

واللهُ هو المالكُ الغنيّ، والقادرُ القويّ، وملكُه للسموات والأرض مرتبطٌ مع قدرتِه على تحقيق وعْدِه.

ووعْدُه الحقُّ هو وعْدُه المنْجَزُ المتحقِّق، المنطبقُ على الواقع، وفقَ ما وعدَ به. والمؤمنون يوقنونَ بذلك، والكافرون ينكرونَه، لأنَّهم لا يعلمون قدرةَ الله وقوَّتَه!.

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

أثنى اللهُ في الآيةِ السابقةِ من السورة على المؤمنين الصالحين، البارّين بوالِديهم، الشاكرين لربّهم، وفي هذه الآيةِ أخبرَ أنّه سيتقبّلُ عنهم أحسنَ أعمالِهم، ويتجاوزُ عن سيئاتِهم، ويدخلُهم الجنّةَ، ويجعلُهم مع أصحابها المنعّمين فيها.

ثم أخبر أنّه وعدَ هؤلاء المتقين الجنةَ وهم في الدنيا، ووعْدُه حَقٌّ وصدق، ولذلك ينجزُه لهم، فيدخلُهم برحمته جنَّته.

وأخبرَ في الآيةِ التي بعدَها مباشرةً أن رجلاً كان كافراً بالله، عاقاً لوالدَيْه، مكذِّباً بوعْدِ الله، بينما كان والداه مؤمنَيْن بالله، موقِنين بأنَّ وعْدَه حق. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

الوالدان مؤمِنان، يوقِنان أنَّ وعدَ الله حق، وهو ما أخبرَ عنه من بعْثِ الناس يومَ القيامة، وهو آتٍ لا محالة، سيتحققُ فعلاً كما أخبرَ عنه الله.

آياتٌ في وعد الشيطان الباطل:

في مقابلِ وعدِ الله الحق، يأتي وعْدُ الشيطانِ الباطل، القائمُ على الغرورِ والخداع، والكذبِ والافتراء.

يَعِدُ الشيطانُ أولياءَه الكثيرَ من الوعود، لكنّها وعودٌ زائفة، لا تتحقَّقُ، ولا توجَدُ في الواقع، لأنَّ الشيطانَ كاذبٌ في الوعْدِ بها، هدفُه منها هو الاستحواذُ

على جنودِه، وإسقاطهم وإضلالهم، ولذلك يَعِدُهم ويُمَنِّيهم!.

والآياتُ التي أخبرتْ عن الغرورِ والخداعِ في وعدِ الشيطان عديدة، منها:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠].

بعدَ أنْ ذكرت الآيـاتُ بعضَ وسـائلِ الشيطانِ في إسقاطِ أتْباعِه، عَلَّقَتْ عليها بأنَّها من وعودِ الشيطان لهم، فهو يَعِدُهم الوعودَ البرّاقة، ويُمَنِّيهم الأمانيَ الفارغة، ويُريهم أنَّ الخيرَ كلَّه ينتظرُهم، إن استجابوا له وساروا معه.

وما يَعِدُهم الشيطانُ هو (غرورٌ) وخداعٌ، وسرابٌ لا وجودَ له. وأَتْباعُه يعرفونَ هذا بأنفسهم، فعندما يُصَدِّقونه ويستسلمونَ له، ويُطالبونه بتحقيق وعودِه، يضحكُ عليهم، ويسخرُ منهم، ويعلنُ براءتَه منهم، وعند ذلك يَعرفونَ خسارتَهم، لكنْ بعدَ فواتِ الأوان!: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾!.

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢ ـ ٦٥].

هذه الآياتُ من سورةِ الإسراء، قريبةٌ من معاني الآياتِ السابقةِ من سورة النساء، فهي تذكُرُ بعضَ أسلحةِ الشيطانِ في إضلالِ أتباعِه، وتُخبرُ أنَّ الشيطانَ يعدهم الوعودَ الكبيرة، ولكنَّ هذه الوعود خياليةٌ خادعةٌ، لن تتحقّق، وهدفُ الشيطان منها خداعُ أَتْباعِه.

أمَّا عبادُ اللهِ الصالحون فهم في أمانٍ من غرورِ الشيطانِ ووعودِه، وليس له سلطانٌ عليهم، لأنهم في حفظِ الله ورعايته.

الشيطان يتخلّى عن أتباعه في الدنيا:

ثالثاً ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

تُشيرُ الآيةُ إلى نموذجٍ من وعودِ الشيطانِ الخادعة، غيرِ المتحققة.. ومناسبةُ نزولِها ما جرى بين الشيطانِ وبين كفارِ قريش، قبيلَ خروجِهم إلى غزوة بدر.

فقد كانَ قادةُ قريشٍ، كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وأُميةَ بن خلف، يتدارسونَ تجهيزَ الجيش، والخروجَ لقتالِ رسول الله ﷺ، ولكنّهم كانوا يخافون مهاجمةَ قبائلَ عربيةٍ معادية لمكة أثناءَ غيابهم، فأتاهم الشيطانُ، وزيَّنَ لهم الخروج، وأراهم أنهم على صواب، وطمأنَهم أنه معهم، وأنَّه (جارٌ لهم) سيحيدُ القبائلَ المعادية، ووعَدَهم النصرَ والفوز!.

واستجابوا لتزيينه، وطمعوا في وعودِه، وخَرَجوا بقيادة أبي جهلٍ إلى بدر.

ونشبتْ معركةُ بدر، وفوجئ المشركون بقوةِ المسلمين، وهجومِهم عليهم، وتذكَّروا وعودَ الشيطانِ بالنصرِ والتأييد، وهو معهم في ميدانِ المعركةِ، ولكنَّه نكثَ العهود، وتخلَّى عن الوعود، ونكصَ على عَقِبَيه، وولَّى هارباً، وأسلَمَ أَتْباعَه إلى أَسلحةِ المسلمين.

وقالَ لهم: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾!.

أعلنَ براءتَه منهم، وعلَّلَ ذلك بأنَّه يرى ما لا يرون، والراجحُ أنَّ الذي رآه هم الملائكة، الذين أنزلَهم اللهُ مدداً للصحابةِ في المعركة.

وكَذَبَ عليهم في زعمِه الخوف من الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وهل يخافُ الشيطانُ اللهَ ربَّ العالمين؟!.

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ ـ ١٧].

تذكرُ الآيـةُ إغواءَ الشـيطانِ لأَحَدِ أَتْباعِه، عندما طلبَ منهُ أنْ يكفرَ باللهِ، وقدَّمَ له وُعودَه وأَمانيه، بحصولِه على الخيرِ كلِّه، وأنه سيبقى معه مدافعاً عنه.. ولما استجابَ التعيسُ له، وصدَّقَه في وعودِه، وأعلَنَ كفْرَه بالله، تخلّى عنه الشيطان وغرَّهُ وخَدَعَه، وقالَ له: إني بريءٌ منك، إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين!.

خامساً ـ قال تعالى: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠].

إذا كانَ الشيطانُ كاذباً في وعودِه الخادعة، فإنَّ أَتْباعَه من الظالمين يَقتدون به في هذا الكذبِ والخداع، وما يَعِدُ بعضُهم بعضاً من الوعودِ ما هي إلا غرورٌ وخداع، لا يَلتزمونَ بها، ولا يُنفذونها.

الشيطان يتخلّى عن أتباعه في الآخرة:

يومَ القيامة يتخلَّى الشيطانُ عن أَتْباعه، ويُفرِّقُ الجميعُ بين وعودِ اللهِ الحقة، التي حقَّقها سبحانه لعبادِه الصالحين، وصَدَقَهم إياها، وبينَ وعودِ إبليسَ الخادعة، التي كذب على جنوده بها.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هذه خطبةُ إبليس، يُلقيها على أتْباعِه في نارِ جهنَّم، بعد أَنْ يستقرُّوا فيها، ويَعترفُ لهم بأنَّه غرَّهم وخَدَعَهم، ثم يؤنّبهم ويوبِّخُهم: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾. ويذكرُ لهم أنَّه عاجزٌ عن إنقاذِهم، كما أنهم عاجزون عن إنقاذِه: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾.

ويتخلَّى عنهم، ويعلنُ براءَتَه منهم: ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾.

والشاهدُ في الآيةِ مقارنةُ إبليسَ بين وعْدِ اللهِ الحقِّ ووعْدِه الباطل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾.

أي: صدقَ اللهُ عبادَه وعْدَه، وأنجزَه لهم، وبذلك كان وعْدُه حقّاً، متحقِّقاً على أرضِ الواقع، أما إبليسُ فقد وَعَدَهم فأَخلَفَهم، ولم يُنجزْ لهم ما وعدَهم به، وبذلك خَدَعَهم وغرَّهم، وكان وعْدُه باطلاً ضالاً!!.

بين وعد الله ووعد الشيطان:

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

تقارنُ الآيةُ بين وعْدِ الشيطانِ الباطلِ ووعْدِ اللهِ الحقِّ، فالشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَه، ويجعلُهم في تفكيرٍ دائم، في التخطيطِ للمستقبل، حَذرينَ من الفقرِ، ولذلك يأمرُهم بالفحشاءِ، والبخلِ بالمال، خوفَ الفقر. وهذا خداعٌ منه لهم.

أمَّا اللهُ فإنّه يَعِدُ أولياءَه الغنى والسعادة، والمغفرةَ والرحمة، ولذلك يَدعوهم إلى الإنفاقِ على المحتاجين، ويضمنُ لهم الفضْلَ والغِنى. ووعْدُه سبحانه نافذ، متحقّقٌ في الواقع.

تحقيق وعد الله لأهل النار وأهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ﴾[الأعراف: ٤٤].

تذكُرُ الآيةُ ما يَجري بين أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النار، بعد استقرارِ كلِّ فريقٍ في دارِه، فيتذكَّرُ أصحابُ الجنَّة حياتَهم في الدنيا، وما وعدَهم اللهُ به على الاستقامةِ والطاعة، فها هم يَجدون ذلك الوعدَ حقّاً متحقّقاً، وها هم يتنعَّمون به.

عند ذلك يتذكّرون أهلَ النار، فينادونَهم قائلين: قد وجَدْنا ما وَعَدَنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدْتُم ما وعدَ ربُّكم حقّاً؟.

فيجيبُهم الكفارُ قائلين: نعم، فقد وعدَنا اللهُ النارَ، وها نحنُ نجدُ هذا الوعدَ حقّاً متحقّقاً، وها نحنُ نحترقُ بالنار!!.

* * *

الفصل الرابع

الموقف من وعد الله

بَيْنَ تَصْدِيقِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَتَكْذِيبِ ٱلْمُنَافِقِيْنَ

ينظرُ المؤمنون إلى وعدِ اللهِ نظرةً إيمانيةً إيجابيةً، فيصدِّقون به، ويوقنون بتحقُّقِه ووقوعِه، ويزيدُهم ذلك إيماناً وتسليماً.

أما المنافقون فإنَّ نظرتَهم إلى وعدِ اللهِ سلبيةٌ متشكّكةٌ، لأنَّهم يكذِّبونَ به، ويُنكرون وقوعَه.

نظرةُ المؤمنين الإيجابيةُ ناتجةٌ عن إيمانِهم بالله، وبأنَّه لا يُخلفُ الميعاد، وأنَّ وعْدَه حقٌّ وصدق، وأنَّه لا ناقضَ له. ونظرةُ المنافقين السلبيةُ ناتجةٌ عن كفرِهم وشكِّهم، وعدمِ تصوُّرِهم لمظاهرِ قوةِ اللهِ وقدرتِه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الجوُّ العام في غزوة الأحزاب:

وُجدَت النظرتان في غزوةِ الأحزاب، التي وقَعتْ في السنةِ الخامسةِ من الهجرة، حيثُ عملَ زعيمُ يهودِ بني النضير ـ (حُيَيُّ بنُ أَخْطَب) ـ على تهييجِ كفارِ قريش لغزو المدينة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها.. واتفق كفارُ قريش مع كفارِ غطفانِ على التوجُّهِ إلى المدينةِ لهذه الغاية، ولما علمَ الرسولُ ﷺ بذلك أَمرَ بحفرِ الخندقِ حولَ المدينة.

ولما حاصرَ أحزابُ الكفرِ المدينة، أقنعَ (حُيَيُّ بنُ أخطب) صاحبَه (كعبَ ابنَ أَسَد) زعيمَ يهودِ بني قريظةَ على نقْضِ عهدِهم مع رسول الله ﷺ، والانضمامِ إلى تحالفِ أحزابِ الكفرِ!.

واشتدَّ الأمرُ على المسلمين، وعظُمَ الخطرُ بتحالفِ قريشٍ وغطفان واليهود، وحرصَ رسولُ الله ﷺ على تثبيتِ المسلمين، ورفْعِ معنوياتهم، وثَبَتَ المؤمنونَ المجاهدونَ على الحقِّ، واقتدَوْا في ذلك بالرسولِ ﷺ، بينما حرصَ

المنافقونَ على نشْرِ الإشاعاتِ، لإضْعافِ المجاهدين، وعلى التشكيكِ بما يقولُه ويفعلُه رسولُ اللهِ ﷺ.

وقد ذكرَ القرآنُ موقفَ المؤمنين وموقفَ المنافقين، عندما صَوَّرَتْ آياتُه الحالةَ العامةَ الخطيرةَ التي عاشَها المسلمون في غزوة الأحزاب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢١ ـ ٢٣].

ندعو إلى تدبُّر هذه الآياتِ، التي تُصوِّرُ الأجواءَ العامةَ لغزوةِ الأحزاب، ومواقفَ وتحرّكات أطرافِها، ولسْنا في معرضِ تفسيرِها هنا.

المؤمنون والزلزالُ الكبير:

بدأت الآيات بتذكيرِ المؤمنين بنعمةِ الله عليهم، عندما خلَّصَهم من جنود الكفّار، حيثُ أرسلَ عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة، وجعلَهم يُؤْثِرون الانسحابَ للنجاةِ بأنفسِهم.

جاءَ فريقٌ من الكفّار من فوقِ المسلمين، وهم المشركون من قريشٍ وغَطفان، بينما جاءَ فريقٌ آخرُ منهم من أسفل، وهم يهود بني قريظة، بعدما نقضوا عهدهم مع رسولِ الله ﷺ، وبذلك أطبقَ الكفارُ على المسلمين من جميع الجوانب.

وتأثَّرَ المسلمونَ بالأحداث، وشعروا بالخطر، وخافوا خوفاً شديداً،

يكفي لمعرفةِ خطورته تدبُّرُ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ .

زاغَتْ أبصارُ فريقٍ من المؤمنين من الخوف، وبلغتْ قلوبُهم حناجرَهم من شدةِ الرعبِ والقلق، وظنُّوا بالله ظنوناً عديدة، ووقعَ الزلزالُ الكبير، الذي هزَّ نفوسَهم ومشاعرَهم وأعصابَهم هزّاً عنيفاً، وابتلاهم اللهُ ابتلاءً قوياً!.

ولم يستمرَّ الخوفُ والفزعُ والرعبُ والقلقُ عند المجاهدين إلا فترةً قصيرة، تجاوزوها بسرعة، وتغلَّبوا عليها بفاعلية، إذْ سرعانَ ما عادَ إليهم يقينُهم وهدوؤُهم واطمئنانُهم، وقويتْ عزائمُهم وهممُهم، فثَبتوا وجاهَدوا، ووثقوا بوعْدِ الله، وصَدَقوا ما عاهَدوا اللهَ عليه، فمنَّ عليهم بالنصر.

الشاكّون في وعد الله فريقان:

ذكرَ اللهُ تثبيطَ المنافقين للمؤمنين، وشكَّهم في وعدِ الله، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

الذين شكُّوا في وعْدِ اللهِ فريقان:

الفريق الأول: المنافقون: وهم الذين يُخفون في قلوبهم الكفر، ويُظْهِرون أمامَ المسلمينَ الإيمانَ والإسلام، وهؤلاء كفارٌ في الحقيقة.

الفريق الثاني: الذين في قلوبهم مرض، وهم مسلمون ليسوا منافقين، لكنّهم ضعفاءُ الإيمان، ومرضُ قلوبهم هو الشكُّ والضعف، وسقوطُ الهمةِ والعزيمة.

وهؤلاء تأثّروا بإشاعاتِ ودعاياتِ المنافقين، وصاروا يُردِّدونها معهم، بهدفِ إضعافِ المسلمين المجاهدين.

أعلن الفريقان ـ المنافقون ومرضى القلوب ـ الشكّ في وعدِ الله، وقالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

أي: أَنتم أَيها المسلمون، تزعمونَ أنَّ اللهَ وعدَكم النصرَ على أَعدائِكم، ونجاتَكم من الخطر، وأنَّ الرسول ـ ﷺ ـ بشَّرَكُم بقربِ تحقُّقِه ووقوعِه على أرضِ الواقع! لا تحلموا بذلك، فإنه لن يتحقَّق على أرض الواقع، ووعْدُ اللهِ ورسولِه

لكم ما هو إلا غرورٌ وخداع، وأوهامٌ وأمانٍ خيالية!.

وهذا الكلامُ الخطيرُ من المنافقين ومرضى القلوبِ، شَكٌّ في تحقُّقِ وعدِ الله، وتكذيبٌ بوقوعِه، وتشكيكُ المؤمنين به.. ووعْدُ الله بالنسبة لهم ليس حقاً، وليس صدْقاً! وهذا تكذيبٌ صريحٌ منهم لله ولرسولِه ﷺ.

بشارات الرسول ﷺ أثناء حفر الخندق:

ذكرت رواياتُ السيرة تبشيرَ الرسولِ ﷺ أصحابَه بالنصرِ والتمكينِ، وظهورِ الإسلام في العالم، وذلك أثناءَ حفرِ الخندق، قُبيلَ حصارِ المشركين للمدينة.

روى أحمد في المسند [٤/ ٣٠٣]، والنَّسائي [٦/ ٤٣ ـ ٤٤] عن البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: لما كانَ حينَ أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ بحفرِ الخندقِ، عرضَتْ لنا في بعضِ الخندقِ صخرة، لا تأخذُ فيها المعاول، فاشْتكَينا إلى رسولِ الله ﷺ، فجاءَنا فأخذَ المعول، فقال: «بسم الله»، فضربَ ضربةً، فكسرَ ثُلثَها، وقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ الشام، واللهِ إني لأُبصرُ قصورَها الحمرَ الساعة!». ثم ضربَ الثانيةَ، فقطعَ الثلثَ الآخر، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ فارس، واللهِ إني لأُبصرُ قصْرَ المدائنِ أبيض!..». ثم ضربَ الثالثة، وقال: «بسم الله»، فقطع بقيةَ الحجر، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن، واللهِ إني لأُبصرُ أبوابَ صنعاء من مكاني هذا الساعة!..».

وروى ابنُ إسحاق هذه الحادثة بلفظٍ آخر، قال: «قالَ سلمانُ الفارسي: ضربْتُ في ناحيةٍ من الخندقِ، فغلظَتْ عليَّ صخرة، ورسولُ الله ﷺ قريبٌ مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدّة المكانِ عليَّ، نزل، فأخذَ المعولَ من يدي.. فضربَ به ضربةً، فلمعتْ تحتَ المعولِ بَرقة، ثم ضربَ به ضربةً أُخرى، فلمعتْ تحته برقةٌ أخرى، ثم ضربَ به الثالثة، فلمعتْ تحتَه بَرقةٌ أُخرى.

فقلتُ: بأبي أنت وأُمي يا رسولَ الله. ما هذا الذي رأيتُ، لمعٌ تحت المعولِ وأنتَ تضرب؟.

قال: «أوَقدْ رأيتَ ذلك يا سلمان؟».

قلتُ: نعم!.

قال: «أمَّا الأُولى، فإنَّ اللهَ فتحَ عليَّ بها اليمن، وأمَّا الثانيةُ فإنَّ اللهَ فتحَ عليَّ بها الشامَ والمغرب، وأما الثالثةُ فإنَّ اللهَ فتحَ عليَّ بها المشرق!».

قال ابنُ إسحاق: وحدَّثني مَنْ لا أتَّهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه كان يقول، حين فُتِحَتْ هذه الأمصار، زمنَ عمرَ وعثمان: افتحوا ما بَدا لكم، فوالذي نفسُ أبي هريرةَ بيده، ما افتتحتُم من مدينة، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة، إلاّ وقد أعطى اللهُ سبحانَه محمداً ﷺ مفاتيحَها قبل ذلك!» [سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠].

الرسول ﷺ يرفع معنويات أصحابه:

الرسول ﷺ حريصٌ على رفعِ معنوياتِ أصحابه، وتقديمِ البشرى والأملِ لهم، ليزدادوا جهاداً وعملاً وثباتاً، وتصديقاً بوعْدِ اللهِ.

فها هو يضربُ الصخرةَ في الخندقِ ثلاثَ ضربات، وبعدَ كلِّ ضربةٍ يقدمُ للمسلمين بشرى بالنصر في المستقبل. بشَّرهم بعد الضربةِ الأُولى بفتح قصورِ الشام، وبشَّرهم بعد الضربةِ الثانية بفتح قصورِ فارس، وبشَّرهم في الضربةِ الثالثةِ بفتحِ قصورِ اليمن!.

واللطيفُ في البشرى، أنّها جاءتْ والمسلمونَ في حالةِ حصارٍ شديد، ووجودُهم نفسُه في خطر، وأحزابُ الكفرِ تحيط بهم، لتقضيَ عليهم، وقد لا يَخرجون من هذه المحنةِ سالمين، وفق التوقُّعات البشرية!.

في هذا الجوِّ المكروب، لا يبشِّرهم رسولُ الله ﷺ بتجاوزِ المحنةِ والنجاةِ من الخطر فقط، وإنما يبشّرهم بفتحِ بلادِ الشامِ والعراق واليمن، ودخولِ أَهلها في الإسلام!.

وهو لا يقولُ هذا من عنده، إنما بتوجيهٍ من الله، الذي أَوحى له بذلك، وملأَ قلْبَه يقيناً بتحقُّقه، وطلبَ منه تبشيرَ المؤمنين بذلك، ليقْتَدوا بهِ في هذا الأمَل!.

موقف المنافقين والمؤمنين من وعد الرسول ﷺ:

لما سمعَ المنافقون والذين في قلوبِهم مرضٌ ذلك، كَذَّبوا به، وشكُّوا في

وقوعِه، وشكَّكوا المسلمينَ بذلك، وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وأوردَ ابنُ إسحاق ما قالَه أحدُهم، فقال: «.. وعَظُمَ عند ذلك البلاء، واشتدَّ الخوف، وأتاهم عدوُّهم من فوقِهم، ومن أسفلَ منهم، حتى ظنَّ المؤمنون كلَّ ظن، ونجمَ النفاقُ من بعضِ المنافقين، حتى قال (مُعْتِبُ بنُ قُشَيْر): كان محمدٌ يَعِدُنا أَنْ نأكلَ كنوزَ كسرى وقيصر، وأَحدُنا اليومَ لا يأمنُ على نفسِه أنْ يذهبَ إلى الغائط!!...» [سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٠٢].

وإذا كان هذا هو موقفُ المنافقين من وعْدِ الله، قائماً على التكذيبِ به، والإنكارِ لوقوعه، فإنَّ موقفَ المؤمنين قائـمٌ على اليقينِ به، والجزمِ بتحقُّقـه ووقوعِه، وتصديقِ اللهِ ورسولِه.

وأخبرَ اللهُ عن موقفِهم الإيجابيِّ العظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

لمَّا رأوا جنودَ الأحزابِ لم يجبُنوا، ولم يَنسحبوا، ولم يَنهزموا ولم يَفِرّوا، وبقيَ كلُّ واحدٍ منهم على إيمانِه ويقينِه، وثباتِه وتصديقِه، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: لقد وَعَدَنا اللهُ في آياتٍ قرآنيةٍ سابقةٍ، أَنْ يحاربَنا الأعداء، وأنْ يصيبَنا البلاءُ والابتلاء، لكنَّه وعدَنا بعدَ ذلك النصرَ القريب، إنْ صبرْنا وثبتْنا.. ومجيءُ أحزابِ الكفرِ إلينا هو تصديقٌ واقعيٌّ لذلك الوعدِ الربّاني، وعلينا أنْ نصبرَ ونثبت، لننالَ نتيجةَ ذلك.

أوردَ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِه قولَ ابنِ عباس وقتادة في معنى الآية: «قال ابنُ عباس وقتادة: يعنونَ بقولِهم: هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه، قولَه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أيْ: هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه، من الابتلاءِ والاختبارِ والامتحان، الذي يعقبُه النصرُ القريب.. وما زادَهم ذلك الحالُ والضيقُ والشدةُ إلاّ إيماناً بالله، وتسليماً وانقياداً لأوامره، وطاعة لرسولِه ﷺ» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٥٧].

ما فعله المنافقون والمؤمنون في الميدان:

شكُّ المنافقين ومرضى القلوبِ بوعْدِ الله، وتكذيبُهم له، موقفٌ سلبي، نتجَ عنه فعلٌ خبيث، صدرَ عنهم، قال اللهُ عنه: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣].

تركوا مواقعَهم في الميدان، وفرّوا من المواجهةِ والجهاد، وكَذَبوا على رسولِ الله ﷺ، وثبَّطوا هِمَمَ المجاهدين، ودَعوهم إلى تركِ مواقعِهم الجهادية، والذهابِ إلى بيوتِهم، طلباً للنجاةِ والسلامة!.

أمَّا تصديقُ المؤمنين المجاهدين بوعْدِ الله، وتأكُّدُهم من وقوعِه، ويقينُهم بتحقُّقِه في الواقع، فإنَّه موقفٌ إيجابيٌّ عظيم، نتجَ عنهُ موقفٌ جهاديٌّ كبير، أثنى اللهُ عليهم من أجله. قال تعالى عنه: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢ ـ ٢٣].

زادَهم تصديقُهم بوعْدِ الله إيماناً بالله، وتسليماً لأمْرِه، وطاعةً لرسوله ﷺ، وثباتاً على الحق، وجهاداً في سبيل الله.

الموقفان مكروران في التاريخ الإسلامي:

هذان الموقفانِ من وعْدِ الله، مكرورانِ في المسلمين، بعدَ نزولِ الآياتِ من سورة الأحزاب، على اختلافِ الزمان.. وأوضحُ ما يكونان عند المحنِ الكبرى والشدائدِ العظمى؛ فالذين في قلوبِهم مرضٌ يُكَذِّبون ويُشَكِّكون، ويقولون: ما وعَدَنا اللهُ ورسولُه إلاّ غُروراً.. والمؤمنون المجاهدون الثابتون يقولون: هذا ما وعدَنا اللهُ ورسولُه وصدقَ اللهُ ورسولُه، وما زداهم إلا إيماناً وتسليماً.

وأكثرُ ما يكون الموقفانِ وُضوحاً في هذا العصر، الذي ابتُلي المسلمون بما ابْتُلوا به من المصائبِ والمحنِ والابتلاءات!!.

* * *

الفصل الخامس

وجوب الثقة المطلقة بالنص القرآني

اليقينُ بأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وأنَّ وعْدَه حقٌّ وصدق، لا بدَّ أنْ يتحقَّق، يرتبطُ بقاعدةٍ إيمانيةٍ أساسية، نتعاملُ مع نصوص القرآن على أساسها.

هذه القاعدةُ تقررُ وجوبَ الثقةِ المطلقةِ بالنصِّ القرآني، والتسليمِ التامِّ بدلالته، وإخضاعِ الواقعِ المخالِفِ له، والتوفيقِ بين النصِّ القرآني الجازمِ وبين الواقعِ المخالِف في الظاهِرِ له.

وهذه القاعدةُ القرآنيةُ ترتبطُ بنظرتِنا إلى القرآن، وتدبُّرِنا له، وتعاملِنا معه، وإيمانِنا بالله الذي أنزلَه.

كل ما في القرآن حق وصدق:

من التعظيمِ والتقديرِ لله يكون التعظيمُ لكتابه، ومن التعظيمِ للقرآن يكونُ حُسنُ الفهمِ لنصوصِه، ومن حُسنِ الفهمِ لنصوصِه تكونُ الثقةُ المطلقةُ بها، واليقينُ التامُّ بدلالاتها.

إنَّ ما قالَه اللهُ في القرآن هو الحقُّ والصدقُ والصواب، وإنَّ ما قرَّره هو الصحيحُ، ولا يجوزُ أنْ يتطرَّقَ إلينا في ذلك شكٌّ أو ريب.

تجبُ الثقةُ المطلقةُ في حقائقِ القرآنِ التاريخية، والتشريعية، والعلمية، والإنسانية، والأخلاقية، والجهادية... وغير ذلك.

ولْنذكُرْ بعضَ الآياتِ التي قد لا يثقُ بعضُ الناسِ بها، ولا يسلِّمون بمدلولِها، بزعمِ مخالفتِها لمنطقِ العقل، أو لحركةِ التاريخ، أو للتقدّمِ المعاصر.

النار بردٌ وسلامٌ على إبراهيم عليه السلام:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا

يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

تخبرُ الآياتُ أنَّ قومَ إبراهيمَ عليه السلام أوقدوا له ناراً ضخمةً، وألْقَوه فيها ليموتَ حرقاً، ولكنَّ اللهَ أنقذَه منها، حيثُ أمرَها أنْ لا تُحرقَه، وإنما تكونُ برداً وسلاماً عليه، فكانت كما أمرَها الله، وبذلك خسرَ أعداؤُه الكافرون.

وأصحابُ التفكيرِ الماديِّ لا يُصدّقون بهذا، إذ كيف يكونُ رجلٌ داخلَ نارٍ مشتعلةٍ ولا تحرقه؟! والنارُ من طبيعتها الإحراق..

عندما ننظرُ للمسألةِ من زاويةِ قدرةِ اللهِ وإرادته، فلا نستغرِبُ هذا، بل يكونُ آيةً من آياتِ الله، الدالَّةِ على قدرته المطلقة، وبما أنَّ اللهَ أرادَ ذلك، فهو متحقّقٌ بدون شك، وبما أنه أخبرَنا عن ذلك بصريحِ القرآن، فإنه حصلَ عملياً كما أخبرَ الله!.

آثار حرب الله على المرابين:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

يدعو اللهُ المؤمنينَ إلى تقواه، والتخلّي عن الربا، ويهدّدُهم بالحربِ إنْ لم يفعلوا ذلك.

والآيةُ الثانيةُ صريحةٌ في إعلانِ الحربِ على الذين يتعاملون بالربا، إنَّ اللهَ سبحانه هو الذي يعلنُ الحربَ عليهم، وهو القويُّ القاهرُ الغالبُ سبحانه! ومَنْ أعلنَ اللهُ عليه الحرب فهو الخاسرُ الهالك، في الدنيا والآخرة.

ولقد صدَّقَ العالمُ المعاصرُ بكلِّ حكوماتِه، الإشاعةَ الإسرائيليةَ المعاصرة المتعلقة بالاقتصاد، والتي تعتبرُ التعاملَ بالربا ضرورةً اقتصادية، حتميةً معاصرة، ولا يمكنُ لحكومةٍ أو شركةٍ أو تجارةٍ أو فردٍ أو جماعة، النجاحَ في المالِ والاقتصاد والحياة، إلا بالتعامل بالربا! وبذلك انتشرَ الربا في جميعِ بلدان العالم، ومنها البلدان المسلمة.

ومن بابِ الثقةِ المطلقةِ بالنصِّ القرآني، على المتدبّر للقرآنِ أنْ يلاحظَ آثارَ

الحقيقـةِ التي تقرّرُها، على الواقـع من حولِه، أَيْ أنْ يرى مظاهرَ الحربِ التي أعلنَها اللهُ على العالمِ المرابي اليوم.

إنَّ العالـمَ اليومَ يدفعُ أثمانَ إعلانِ اللهِ الحربَ عليه، بسببِ إجماعِ حكوماته على أكلِ الربا، وهذه الحربُ الربّانية وصلت كلَّ حكومة، وكلَّ مؤسسة، وكلَّ شركة، وكلَّ دخلٍ أو مال، وكلَّ اقتصادٍ أو صناعةٍ أو تجارة، والمؤمنُ البصيرُ هو الذي يلحظُ هذا!.

الجهاد تجارة رابحة مُنجية:

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١].

تقررُ هذه الآياتُ أنَّ الجهادَ في سبيلِ الله هو التجارةُ الرابحة، المنجيةُ من العذاب الأليم، وأنَّ هذا الجهادَ خيرٌ للمسلمين من القعودِ عنه وتركه.

ولا بدَّ للمسلم من الثقةِ المطلقـةِ بما تقررُه الآيات، واليقينِ الجازمِ بأنَّ الجهادَ تجارةٌ رابحة، وأنَّ القعودَ تجارةٌ خاسرةٌ هالكة، وأنَّ هذا الجهادَ خيـرٌ للمسلمين، لأنَّ اللهَ العليمَ الحكيمَ هو الذي قرر هذا.

وهذا معنـاه: أنْ لا يُصدقَ المؤمنُ كلامَ أيِّ إنسان، إذا تعارضَ مع هـذه الآيات، كأنْ يعتبرَ الجهادَ شرّاً وخسارةً للأمة، لأنَّ فيه تهوُّراً واندفاعاً و(توريطاً) لها!!.

ضرُّ اليهود مجرَّد أذى خارجي:

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: ١١١].

هذه الآيةُ في سياقِ آياتٍ، تتحدّثُ عن المواجهةِ بين المسلمين، وبين أهلِ الكتـابِ ـ واليهودُ منهم على وجهِ الخصوص ـ؛ يُخبرُنـا اللهُ فيها أنَّ اليهـودَ لن ينجحوا في القضاء على المسلمين، رغم ما يبذلونَ من جهودٍ لأجل ذلك، وكلُّ ما يمكنُ أنْ يضرّوا به المسلمين هو أذى!.

والأذى ظاهريٌّ سطحي، يتمثّلُ في الخسائرِ المادية، من تدميرٍ أو هدمٍ أو

قطع، وفي الجرحى والشهداء، الذين يُصابونَ في المواجهات، وفي الأسرى والمعتقلين، وما يُصَبُّ عليهم من صنوفِ التعذيبِ والاضطهاد.. كلُّ هذا أذى ظاهري، يمكنُ تحمُّلُه واحتماله، بالصبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ والاحتساب!.

والمؤمنُ المرابطُ المجاهد، الذي يتصدَّى للهجمةِ اليهوديةِ المعاصرة على الإسلام والمسلمين، يوقنُ بهذه الحقيقة يقيناً جازماً، ويثقُ بها ثقةً مطلقةً، وهذا يدفعُه إلى مزيدٍ من المواجهة والتصدّي، لأنَّ الأذى يمكنُ تحمُّلُه والصبرُ عليه!.

التوفيقُ بين الآيات والواقع:

هناك بعض الحقائق، تقررُها بعضُ الآيات، تصطدمُ في ظاهرِها مع الواقع المعاصر، الذي يعيشُه المسلمون، حيث يختلفُ هذا الواقعُ مع تلك الحقائق، وقد يشكُّ بعضُ المسلمين في حقائق تلك الآيات، تحت ضغطِ الواقع الذي يعيشُه، وبذلك يحصلُ الشكُّ في الآيات، وتزولُ الثقة فيها.

والمؤمنُ البصيرُ يُزيلُ التعارضَ الظاهريَّ بين الآياتِ والواقع، ولا تتأثرُ ثقتُه المطلقةُ بالنص القرآني، فهو ينطلقُ من هذه الثقةِ المطلقةِ في إخضاع الواقع المخالفِ للنص، ويُحيلُ السببَ على هذا الواقعِ المخالف، وليس على الحقيقةِ القرآنية، وذلك بعدم تحقق الشروط التي تشترطها الآية، أو عدمِ تحققِ الأجواء، أو الظروف، أو الزمان، أو المصلحة، أو غير ذلك.

ذلَّة اليهود وكيانهم المعاصر:

لنذكرْ بعضَ الأمثلةِ القرآنيةِ على ذلك:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ...﴾ [الأعراف: ١٦٧].

تتحدَّث الآيةُ عن اليهودِ، المخالفين لشرع الله، ويخبرُنا اللهُ فيها أنّه قضى أن يبعثَ عليهم أقواماً، يسومونهم سوءَ العذاب، وسيبقى هذا حتى يوم القيامة، فالذلةُ والمسكنةُ ملازمةٌ لليهود!.

والواقعُ المعاصرُ لليهود في هذا الزمان، يتعارضُ ظاهرياً مع هذه الآية، فها هم يُسيطرونَ على العالم أجمع، سياسياً وإعلامياً، واقتصادياً وفنياً، وقد

نجحوا في إقامةِ دولةٍ قويةٍ لهم على أرض فلسطين. . وهم الذين يُذِلُّون الآخرين، ويسومونهم سوءَ العذاب!.

ولا يتعارضُ ما عليه اليهودُ مع ما تقرّره الآية، لأنّ ما هم عليه الآن ما هو إلا فترةٌ قصيرةٌ، يأذنُ اللهُ لهم فيها بنوعٍ من القوة والتمكين، يعودون بعدَها إلى الذلّة والمسكنة، ويبعثُ اللهُ عليهم مَنْ يسومونَهم سوءَ العذاب.

ثم إنَّ ما هم عليه في هذه الفترةِ الزمنيةِ القصيرة، من قوةٍ وتمكين، سيكونُ عاملاً من عواملِ الإسراعِ في إذلالهم، لأنَّهم سيتكبَّرون على الآخرين ويستعبدونهم، ويُذِلُّونهم، وسيواجههم الآخرون بمزيدٍ من الكراهيةِ والبغضاء، والعملِ على الأخذِ بثأرِهم منهم، والحرصِ على إذلالِهم. . فاليهودُ في هذا الزمانِ صائرونَ إلى ما كتبَهُ اللهُ عليهم من الذلّة والمسكنة.

وأشارتْ آيةٌ أُخرى إلى هذه المرحلةِ الانتقاليةِ الخاصة، التي يمرّون بها، في سيرهم من ذُلِّ الماضي إلى ذلِّ المستقبل. قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

نصر المؤمنين وواقعنا المعاصر:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

عندما كانتْ مهمةُ الرسلِ تنتهي عندَ أقوامهم، كان اللهُ ينصرُ الرسلَ على الكافرين، ويُنجيهم من مكائدِهم، وينتقمُ من الكافرين المجرمين، بإِهلاكهم وتدميرهم.

وكتبَ اللهُ على نفسِه نصرَ عبادِه المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ مطردة، تنطبقُ على أمثلةٍ وشواهدَ عديدةٍ في الماضي، وردَ بعضُها في التاريخِ البعيد، وبعضُها في تاريخِ المسلمين الصالحين من هذه الأمة!.

ولكنَّ الواقعَ المعاصرَ للمسلمين لا يتفقُ مع هذه الحقيقةِ القرآنية، فقد

هُزِموا في كثيرٍ من المعارِك التي خاضوها، وأعداؤُهم هم الذين انتصروا عليهم! والسببُ في ذلك هم المسلمون أَنفسهم، لأنَّ نصرَ اللهِ للمؤمنين مشروطٌ بنصرِهم للهِ أوَّلاً. قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ولم ينصر المسلمون المعاصرون اللهَ حقاً، ولذلك لم ينالوا نصْرَ الله.. وسنةُ الله لا تتخلف، ولكن لا بدَّ من الأخذِ بشروطها!.

* * *

الفَصل السَادِس

تحقق الأخبار المستقبلية في القرآن

من الحقائقِ الإيمانيةِ القرآنيةِ أنَّ اللهَ اختصَّ بعلمِ الغيب، وهو ما غابَ عن الناس، من العوالـمِ والأحداث، والوقائعِ والأشياء، ولا يعلمُ أحدٌ من البشرِ شيئاً من الغيب، إلاّ ما علَّمه اللهُ إيّاه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٥ ـ ٢٧].

وأَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يعترفَ بأنَّه لا يعلمُ من الغيب، إلا ما علَّمَه اللهُ إياه. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ...﴾ [الأعراف: ١٨٨].

عوالم الغيب الثلاثة في القرآن:

لقد تحدَّث القرآنُ حديثاً مفصَّلاً عن ثلاثةٍ من عوالـمِ الغيب:

الأول ـ غيبُ الماضي: وهو الأحداثُ التي وقعتْ قبلَ بعثةِ رسولِ الله ﷺ، وإنزالِ القرآن عليه، مثلُ الحديثِ عن خلْقِ السمواتِ والأرض، وتفاصيلِ خلْقِ آدم أبي البشر عليه السلام، وما جرى بينَه وبينَ إبليس، وإهباطِه من الجنّةِ إلى الأرض.. وتفاصيلِ ما جرى بين الرسلِ وأَقوامهم، من نوحٍ إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

الثاني ـ غيبُ الحاضر: وهو حديثُ القرآن عن الأحداث، التي وقعتْ في حياةِ رسولِ الله ﷺ، حيثُ كانَ القرآنُ النازلُ عليه يُشيرُ إليها ويعالجُها، ويستخلصُ دروسَها وعِبرَها، ويَدخلُ ضمنَ هذا الغيبِ العلمُ المسمّى: (أسباب النزول).

ومن غيبِ الحاضر حديثُ القرآن عن (عوالـمَ) غيبية، موجودةٍ في الواقع، لكننا لا نراها، مِثلُ وجودِ اللهِ وصفاتِه وأفعالِه، ووجودِ الملائكةِ وأعمالِهم،

ووجودِ الجنِّ وأصنافهم، ووجودِ الجنّة والنار، وغير ذلك.

الثالث ـ غيب المستقبل: وهو حديثُ القرآنِ عن أحداثٍ مستقبليةٍ قادمة، وجزمُه بوقوعها.. وهذه الأحداثُ قد تكونُ قريبةً من نزولِ الآية، ووقعتْ في حياة الرسولِ ﷺ وأصحابِه، وقد تكونُ بعيدة، وقعتْ بعدَ عهدِ الصحابةِ بفترة، ومنها ما هو واقعٌ في هذا الزمان، ومنها ما سيقع في آخرِ عمرِ البشرية، ومنها ما سيقع في الآخرة بعدَ قيامِ الساعة!.

تحقيق غيب المستقبل في القرآن:

كلُّ ما أخبرَ القرآنُ عنه من أَحداثِ غيبِ المستقبلِ وقعَ وتحقَّق، كما أَخبرَ عنه القرآن.

وهذا متعلِّقٌ بما سبقَ أنْ قرَّرْناه في المباحث السابقة، مِنْ أنَّ كلامَ اللهِ حقٌّ وصِدق، ولا أحدَ أصدقُ في قوله وحديثه من الله، ومن أنَّ اللهَ أحاطَ علماً بكلّ شيء، بما كان وما سيكون، وهو قادرٌ على كلّ شيء، ولا يحدثُ شيءٌ في هذا الكون إلا بأمر الله وإرادته سبحانه.

فاللهُ عَلِمَ أنّه سيوجِدُ كذا في وقتٍ كذا، وعند مجيء ذلك الوقت، تتوجَّهُ إرادته سبحانه إليه، فيوجِدُه كما شاءَه وأَراده.

وتحقُّقُ الأخبارِ المستقبلية في القرآن، كما أخبر عنها، دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليسَ كلامَ النبيِّ ﷺ. فلو كان من كلامه ﷺ، لما عَرَفَ عليه الصلاة والسلام: أنَّ تلكَ الأحداث ستقع، في المستقبل القريبِ أو البعيد، لأنّه لا يعلمُ غيبَ المستقبل إلا الله! قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

انتصار الروم على الفرس:

نقدمُ فيما يلي أمثلةً للأَخبارِ المستقبلية التي أخبرَ عنها القرآن، وتحققَتْ كما أخبرَ عنها القرآن.

أولاً ـ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الروم: ١ ـ ٥].

تخبرُ الآياتُ عن هزيمة الرومِ أمامَ الفرس، في حرب وقعَتْ قبلَ نزولِها، ثم تُخبرُ عن تغلُّبِ الرومِ على الفرس، بعد بضعِ سنين من نزولها.

وسورةُ الرومِ مكية، وهذه الآياتُ أخبرَت المسلمين، وهم مستضعفون في مكة، عن انتصارِ الرومِ على الفرس، خلالَ بضعِ سنين.

وقد تحقّق ما أخبرتْ عنه الآيات، حيثُ وقعتْ معركةٌ فاصلة، بعدَ سبعِ سنوات من نزولها، هَزَمَ الرومُ فيها الفرسَ.

روى الترمذي [برقم: ٣١٩٤] عن (نَيَّار بن مُكَرَّم الأَسْلَميّ) رضي الله عنه، قال: «لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ...﴾ وكانت قريشٌ تحبُّ ظهورَ الفرس، لأنّهم وإيّاهم ليسوا بأهلِ كتاب، ولا إيمانٍ ببعث.

فلما أنزلَ اللهُ هذه الآيات، خرجَ أبو بكر رضي الله عنه يَصيحُ في نواحي مكة، يُرَدِّدُ قولَه تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ...﴾.

فقالَ أُنـاسٌ لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم! لقد زعمَ صاحبُكم أنَّ الرومَ ستغلبُ فارس في بضعِ سنين، أفلا نراهنُك على ذلك؟.

قال أبو بكر: بلى ـ وذلك قبل تحريمِ الرهان ـ.

فارتهنَ أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان.

وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ المدَّة؟ فإنَّ البِضْعَ من ثلاث سنين إلى تسعِ سنين.

قال أبو بكر: سَمُّوا ستَّ سنين!.

فمضت السِّتُّ سنين، قبل أنْ يظهرَ الرومُ على الفرس، فلما دخلت السنةُ السابعة ظهرت الرومُ على الفرس!.

وعابَ المسلمون على أبي بكر تسميةَ ستِّ سنين، لأنّ الله قال: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضعُ من الثلاثِ إلى التسع.. وأسلمَ عندئذٍ ناسٌ كثير..».

موت أبي لهب كافراً:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المسد].

أبو لهبٍ هو عمُّ النبيِّ ﷺ، كانَ شديدَ العداوةِ والبغضاءِ له، ويُحرضُ قومَه عليه.

وقد أنزلَ اللهُ هذه السورةَ يتوعَّدُه، ويقرّرُ خسارتَه وتَبابَه، ويَدعو عليه بتَباب يده، وتَبابِ حياتِه، وأنّه لا ينفعُه مالُه، ولا يغني عنه كسبُه ودخلُه وتجارتُه، وامرأتُه شريكةٌ له في تَبابِه وخسارتِه..

وجزمت السورةُ أنَّ أبا لهبٍ وامرأته حمّالةَ الحطب، سيموتان كافريْن، وسيَصْلَيان ناراً ذاتَ لهب!.

ومع ذلك دعا رسولُ اللهِ ﷺ عمَّه أبا لهب، للدخول في الإسلام، ولكنّه رفضَ الدعوة، وأصرَّ على كفرِه وتكذيبِه وعداوتِه.

وتحققَ ما جزمَ به القرآن، حولَ مصيرِ أبي لهب، حيث مات كافراً بعدَ غزوةِ بدر. وهذا الجزمُ بمستقبلِه البائس، وتحقُّقُه في عالمِ الواقع، دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وعلى تحقُّقِ الأخبار المستقبلية التي وردَتْ فيه.

عجز الكفار الأبدي عن معارضة القرآن:

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

الخطابُ للكفار، الذين لا يؤمنون بأنَّ القرآنَ كلامُ الله، أنزلَه على عبدِه ورسولِه محمدٍ ﷺ، ويُرشدُهم القرآنُ إلى وسيلةِ إزالةِ الريبِ والشكِّ الذي هم فيه، وذلك بأنْ يُعارضوا هذا القرآن، بالإتيانِ بسورةٍ من مثله، ودعوةِ شهدائِهم ليُعينوهم على ذلك.

وهذه الآيـةُ من آياتِ التحدّي في القرآن، بهدفِ إقـرارِ الكفارِ بالعجز،

وإثباتِ أنَّ القرآنَ كلامُ الله. وذلك أنَّ هذا القرآنَ أُنزلَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ولغةُ الرسولِ ﷺ لغةٌ عربيةٌ فصيحة، والكافرون كانوا عَرَباً فصحاءَ بُلَغاء. ولما سمعُوا القرآنَ من رسولِ الله ﷺ، أَنكروا أَنْ يكونَ كلامَ الله، وزعموا أنه من تأليفِه وصياغتِه هو.

فتحدّاهم اللهُ بهذه الآيةِ وأَمثالِها، وطالبَهم بالإتيانِ بسورةٍ مثلِ هذا القرآن، في فصاحتِه وبلاغتِه وأُسلوبِه.. فإنْ كانَ القرآنُ من تأليفِ محمدٍ ﷺ، فلن يعْجزوا عن ذلك، وسيأْتونَ بالسورةِ المطلوبة، لأنَّهم عرب فصحاء، ومحمدٌ ﷺ هو الأفصح.

فإنْ عَجَزوا عن الإتيانِ بالسورةِ المطلوبة، دلَّ ذلك على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، أنزلَهُ على نبيِّهِ محمدٍ ﷺ، ودلَّ هذا على أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، ولا بدَّ أنْ يُقرَّ الكفارُ العاجزون بذلك، ويَدخلوا في الإسلام، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

والشاهدُ في آيةِ التحدّي في سورةِ البقرة قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ...﴾.

إنَّ جملة «ـ ولن تفعلوا ـ» جملة معترضة، تخبرُ عن أَمْرٍ مستقبلي، وتُقرّرُ فيه أنَّ الكفارَ لنْ يفعلوا المطلوبَ، ولن ينجحوا في المعارضة، وسيعْجِزون عن الإتيانِ بالسورة.

وقد تحقَّقَ ما قرَّرَتْه وجزمَتْ به الآية، فرغمَ محاولاتِ الكفار المستمرة، ورغمَ تمكُّنِهم من اللغة، إلاّ أنهم عجَزوا عن الإتيانِ بالسورةِ المطلوبة.

والعجيبُ أنَّ الجزمَ بعدم القدرةِ على المعارضة، جاءَ في سياقِ آيةِ التحدّي، ولا يمكنُ للرسول ﷺ أَنْ يجزمَ بذلك، لأنّه لا يعلمُ الغيبَ المستقبليّ، ولا يعلمُ حدودَ طاقةِ وقدرةِ الذين يتحدّاهم!! إنَّه لا يجزمُ بالعجزِ وعدم القدرةِ إلا مَنْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وكان عالماً بالغيبِ والشهادة، وكان عالماً بما كان، وعالماً بما سيكون، وهو اللهُ سبحانه!.

الدخان يغشى الكفار في مكة:

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ٩ ـ ١٦].

تُخبرُ هذه الآياتُ عن أمرٍ مستقبليّ، وقعَ بعدَ نزولِها، وهو الدخانُ الذي غشيَ أهلَ مكة، عقاباً من الله، لتكذيبِهم الرسولَ ﷺ.

وقبلَ الحديثِ عن تحقُّقِ ووقوع ما أخبرتْ عنه الآيات، نوردُ كلامَ عبدِ اللهِ ابنِ مسعود رضي الله عنه حولَها، وهو الذي شهدَ ما أخبرتْ عنه.

روى البخاري [برقم: ١٠٠٧] عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّ النبيَّ ﷺ، لما رأى من الناسِ إدباراً، قال: «اللهمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يوسف!» فأَخَذَتْهُم سَنَة، حَصَّتْ كلَّ شيء، حتى أكلوا الجلودَ والميتةَ والجِيَفَ، وينظرُ أحدُهم إلى السماء، فيرى الدخانَ من الجوع!.

فأتاهُ أبو سفيان، فقال: يا محمد! إنَّكَ تأمرُ بطاعةِ الله، وبِصِلَةِ الرَّحِم، وإنَّ قومَك قد هلكوا، فادعُ اللهَ لهم».

وبعدما أورَدَ ابنُ مسعودٍ هذه الآيات الثمانيةَ السابقة، قال: «فالبطشةُ يومُ بدر، وقد مضى الدخانُ، والبطشةُ، واللِّزام، وآيةُ الروم».

وروى البخاريُّ الحادثةَ بروايةٍ أُخرى [برقم: ٤٨٠٩] عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: «سأُحدّثكم عن الدخان؛ إنَّ رسولَ الله ﷺ دعا قريشاً إلى الإسلام، فأَبطؤوا عليه، فقال: «اللهمَّ أَعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبْعِ يوسف».

فأخَذَتْهُم سَنَة، فحَصَّتْ كلَّ شي، حتى أَكلوا المَيتةَ والجلود، حتى جعلَ الرجلُ يَرى بينه وبين السماءِ دخاناً من الجوع.

قال تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فدعوا الله: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أفيكشف العذاب يوم القيامة؟.

فكُشِفَ العذاب، ثم عادوا في كفرهم، فأخذهم اللهُ يومَ بدر. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾».

خلاصةُ معنى الآيات، وكلامِ ابنِ مسعود رضي الله عنه حولَها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا ربَّه أَنْ يأخذَ قريشاً بالشّدَّة، بأَنْ يجعلَ عليهم سبعَ سنواتِ مَحْلٍ وجَدْب، مثل السنواتِ السبعِ الشداد، التي أصابتْ أَهْلَ مصر، في الرؤيا التي رآها الملك، وعَبَّرها له يوسفُ عليه السلام.

واستجابَ اللهُ دعاءَ الرسولِ ﷺ، وأخَذَ قريشاً بالسَّنَة، وقضى المحْلُ على كلِّ شيءٍ عندَ قريش، حتى أكلوا المَيْتة والجلودَ والجِيف!.

وجاعوا جوعاً شديداً، حتى إنَّ الرجلَ كان إذا رفعَ رأْسَه إلى السماء، يرى فوقَ رأسِه دخاناً بينه وبين السماء، من شدةِ الجوع.

فأَتَى زعيمُ مكة أبو سفيان، إلى رسول الله ﷺ، وطلبَ منه أَنْ يرأفَ بأقاربه، لأنه يأمرُ بطاعةِ اللهِ وبصلةِ الرحم، فإنّهم قد هلكوا من شدةِ الجوع، ورجاهُ أَنْ يدعوَ اللهَ لهم بالفَرَج.

أمَّا الآيات، فإنّها تطلبُ من رسولِ الله ﷺ أنْ يرتقبَ مجيءَ السماءِ بدخانٍ مبينٍ ظاهر، يغشى أهلَ مكة، وهو عذابٌ أليمٌ من الله، يوقعُه بهم، لكفرِهم وتكذيبِهم. وعندما يُصابون بالعذاب، سيدعونَ اللهَ أنْ يكشفَه عنهم، وسيتعهَّدون أَنْ يؤمنوا. ويُخبرُهم اللهُ أنَّه سيكشفُ العذابَ عنهم قليلاً، وسيُزيلُ المحلَ والجوعَ عنهم، لكنهم سيَنقضون عهدَهم، وسيعودون للكفر من جديد، وبعدَ ذلك سيبطشُ اللهُ بهم البطشةَ الكبرى، وهي هزيمتُهم في معركة بدر.

وقد تحققت الأخبارُ الثلاثة بعد نزولِ هذه الآيات: الدخانُ الذي غشيَ كفارَ قريش. وعودتُهم للكفرِ بعد كشفِ الشدةِ عنهم. والانتقامُ منهم بالبطشةِ الكبرى يومَ بدر.

* * *

الفصل السابع

استمرار المواجهة بين المسلمين والكافرين

المواجهةُ بين الحقِّ والباطل قديمة، بدأَتْ منذُ بدايـةِ الحياةِ البشـرية، وتمثّلَت الحلقةُ الأُولى منها في ما جـرى بين آدمَ أبي البشـر عليه السـلام وبين إبليس، عندما كانا في الجنة، فلمَّا نجحَ إبليسُ في إغواءِ آدمَ وزوجِه، وأكَلا من الشجرةِ المحرَّمة، أَهبطَ اللهُ الجميعَ إلى الأرض، وأخبرَهم أنَّ العداوةَ متأصّلةٌ بينهم، وأنّهم سينقسمون إلى فريقَيْن: مؤمنين متَّبِعين لهدى الله، وكافرين متّبعين للباطل.

وقد قرَّرتِ هذه الحقيقةَ آياتُ كتابِ الله. منها قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٦ـ٣٩].

وكان الرسلُ والأنبياءُ يقودون المؤمنين في مواجهةِ الكافرين، بينما كان إبليسُ وأعوانُه من شياطينِ الجنِّ والإنسِ يقودونَ الكافرين في هذه المواجهة.

واستمرَّتْ هذه المواجهةُ طيلةَ القرونِ العديدة، الممتدةِ من آدمَ إلى محمد ﷺ، وكان اللهُ يُنهي كلَّ حلقةٍ من حلقاتِها، بإهلاكِ القومِ الكافرين، وإنجاءِ القومِ المؤمنين. وقد ذكرَ القرآنُ أمثلةً عديدةً لهذه الحقيقة؛ كقصة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم لوط...

المسلمون وحدهم على الحق:

وانتهتْ قيادةُ جندِ الحق إلى رسولِ الله ﷺ، وصارت الأُمةُ المسلمةُ هي الممثلةَ للحقّ، المتحركةَ به، الشاهدةَ على باقي الأُمم.

واقتصر الهدى على ما مع هذه الأُمةِ من رسالةٍ ومنهج، ونسخَ اللهُ الأديانَ

السابقة، وأمرَ أَتْباعَها بالدخـولِ في الإسلام، فإنْ لم يفعلوا ذلك كانوا كافرين مخلَّدين في نارِ جهنّم. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقابلت الأُممُ الأُخرى هذه الأُمةَ بالعداوةِ والبغضاء، وأَعلنتْ عليها وعلى دينِها الحربَ الشديدة. وكان اليهودُ هم الأَشَدَّ عداوةً لهذه الأمة، يتحالفون مع الآخرين ضدَّها، ويُهيِّجونهم على حربِها. قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

وبما أنَّ المسلمين هم الشهداءُ على الأُمم، فإنَّ رسالتَهم مستمرةٌ حتى قيام الساعة، وشهادتَهم مستمرةٌ حتى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا معناهُ: أنَّ مواجهةَ أَعدائِها لها مستمرة، حتى قيامِ الساعة، لا يتوقَّفون عن حربِها، والكيدِ ضدَّها، والتآمرِ عليها.

وقد ركَّزَتْ على هذه الحقيقة آياتٌ عديدةٌ في القرآن:

الكفار لا يحبون الخير للمسلمين:

أولاً ـ قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ١٠٥].

تجمعُ الآيةُ بين الكفارِ من أهلِ الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وبين المشركين، وتُخبرُ أنَّهم جميعاً يكرهون المسلمين، ويتمنَّون أن يَبْقَوْا في الشَّر والضيقِ والضنْكِ والشقاء.

إنَّ الكفَّارَ من أهلِ الكتاب والمشركين لا يودُّون أَنْ ينزلَ على الأُمةِ المسلمة أيُّ خيرٍ من الله، لأنَّ حصولَها على ذلك الخيرِ معناهُ قوةُ الأُمةِ وحيويَّتها، والكفارُ يريدونَ أَنْ تبقى الأُمةُ في ضعفٍ وذلٍّ وهوان.

وبما أنَّ الخيرَ للمسلمين محصورٌ بالإسـلامِ والقرآن، الذي هو النـور والهدى، والروح والحياة، فالكفارُ حريصون على إبعادِ المسلمين عن إسلامِهم، مصدرِ الخيرِ لهم.

والتعبيرُ عن هذه الرغبةِ الخبيثةِ بالوُدِّ مقصود، لأنَّ الوُدَّ أمرٌ قلبيّ، وأُمورُ القلب متجذِّرَةٌ فيه، وهذا معناه: أنَّ حرمانَ المسلمين من الخير والعزة ليس شيئاً عارضاً عند الكفار من أهلِ الكتاب والمشركين، إنما هو قاعدةٌ راسخةٌ عندهم، وهدفٌ استراتيجيٌّ لهم، هو الباعثُ والمحرّكُ لمواجهاتِهم ضدّ المسلمين.

وهذا معناهُ: أنَّ كلَّ خططِ الكفارِ ضدَّ المسلمين تهدفُ إلى حرمانِهم من الخير، وإبعادِهم عن الهدى، وإنْ أَخفَوْا هذا الهدف، وأَظهروا رغبتَهم في نفعِ المسلمين وإصلاحِ أَحوالِهم.. وهذا معناهُ أَيضاً: أنْ يحذرَ المسلمونَ أَعداءَهم المتآمرين عليهم، وأَنْ يَشُكُّوا في كلِّ ما يقدّمونه لهم، لأنَّ الذي يحرّكهم هو حرمانُ المسلمين من كلِّ خير، وإبقاؤهم في الشّرِّ!.

حرص الكفار على ارتداد المسلمين:

ثانياً ـ قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

تخبرُ الآيةُ عن مواجهةِ أهلِ الكتابِ للمسلمين، وعن هدفِهم الراسخِ الثابتِ من هذه المواجهة.

إنَّ كثيراً من أهلِ الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ يودّون لو يردّون المسلمين عن إسلامهم، ويُعيدونَهم إلى الكفرِ بعدَ الإيمان، والذي دفعَهم إلى ذلك هو حسدُهم للمسلمين، بعدما تبيَّنَ لهم الحق، وأَيْقَنوا أنَّ هذا الحقَّ مع المسلمين وحدَهم.

وعندما ننظرُ في هذه الآية، التي تتحدَّثُ عن ما يحركُ الكفارَ ضدَّ المسلمين، فإنّنا سوفَ نستخرجُ منها الحقائقَ التالية:

١ ـ تَبيَّنَ للكفّار الحقُّ، وعَرفوا أنَّ اللهَ اختصَّ به المؤمنين، وأنَّ هؤلاء المؤمنين على هدى من ربهم، وقد عرف الكفارُ الكتابيّون هذه الحقيقة، من خلالِ حديثِ كتبِهم المقدَّسة عن الرسول الخاتم ﷺ، وصفاتِه العامة، وخصائص الدينِ الخاتمِ الذي بعثَه اللهُ به، وبهذا التبيُّنِ والوضوحِ قامَتْ عليهم الحجّة، لئلاّ يحتجُّوا بعدمِ المعرفة.

٢ ـ تَبيُّنُ الحقِّ لأَهلِ الكتاب لم يأخذْ بأيديهم إلى اتّباعه، ويدلُّ هذا على

الاعوجاج المتأصّلِ المتجذّرِ في كيانهم، فالعلمُ والمعرفةُ لا يُنتجانِ عندهم النتيجةَ المنطقية، وإنما ينتجان المزيدَ من الكفرِ والبغي والعناد!.

حسد الكفار للمسلمين:

٣ ـ حَسَدَ الكتابيُّون الكافرون المسلمين على ما مَنَّ اللهُ عليهم به من الهُدى والخير، لأنَّ الكتابيِّين حَرموا أنفسَهم من ذلك الهدى والخير، بتحريفِهم لشرعِ اللهِ، وعصيانِهم له، ومحاربتِهم لرسلِه، وبذلك صاروا ضالّين مجرمين.

ولما أيقنوا أنَّ المسلمين على خيرٍ وهدى وحقٍّ، حَسدوهم، بدلَ أنْ يُتابِعوهم ويسيروا معهم.

ومعلومٌ أنَّ الحسدَ مرضٌ نفسيٌّ خبيث، يدفعُ صاحبَه الحاسدَ إلى أنْ يتمنّى زوالَ الخيرِ عن المحسود، ويسعى لحرمانِه منه، فالمهمُّ عنده أَنْ يزولَ عنه الخير، ولا يهمُّه بعد ذلك أَنْ جاءَ إليه، أو ذهبَ إلى غيره!.

وحَسَدُ الكتابيين للمؤمنين دليلٌ على بغضِهم وكراهيتِهم لهم، ولا يبغضُ أصحابَ الحقِّ إلا حاسدٌ كافر، مع أنَّ المؤمنين لم يرتكبوا ما يوجبُ بغضَهم وكرهَهم وحسدَهم، ولا ذنبَ لهم عند الحاسدين، إلا أنهم على هدى وحق!.

٤ ـ بُغْضُ الكتابيّين وحَسَدُهم للمسلمين، دفَعَهم إلى مواجهتِهم وحربِهم لهم، وحرصِهم على إفسادِهم، وإغوائِهم وإضلالِهم، وإبعادِهم عن الحقِّ والخير، المحصورِ في الإسلام، وردَّتِهم عن إيمانِهم ودينِهم، وإرجاعِهم إلى الكفرِ والضلالِ والضياع، ليتساووا في ذلك مع الكافرين الحاسدين المحاربين.

٥ ـ هذا الهدفُ الشيطانيُّ عند الكتابيين ليس هدفاً عارضاً، أو ناتجاً عن خلافٍ ثانوي، إنما هو وُدٌّ قلبيٌّ راسخ، ورغبةٌ قلبيةٌ ثابتةٌ متجذّرةٌ فيه، والوُدُّ لا يخرجُ من القلب، ولا يتخلّى عنه صاحبه.

متى يرضى الكفار عن المؤمنين؟:

ثالثاً ـ قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

يخبرُ اللهُ رسولَه ﷺ، أنَّه لن ترضى عنه اليهودُ ولا النصارى، حتى يتَّبِعَ ملَّتَهم، ويأمره أَنْ يواجهَهم بالثباتِ على الحق، ويُخاطبَهم بأنَّ هدى اللهِ هو الهدى، ويهدّدُه بأنّه إن اتّبعَ أهواءَهم، فلن يجدَ أحداً ينصرُه من عذابِ الله.

والمقصودُ من هذا الخطابِ الأُمَّة، لأنَّ الرسولَ ﷺ ملتزمٌ بهدى الله، ولا يُتَصَوَّرُ منه اتّباعُ أهواءِ اليهودِ والنصارى، فالخطابُ في ظاهرِه للنبيِّ ﷺ، ولكنَّه في الحقيقةِ خطابٌ تحذيريٌّ من اللهِ لكلِّ فردٍ من أُمّتِه.

ويمكنُ أَنْ نأخذَ من الآيةِ الحقائقَ التالية:

١ ـ اليهودُ والنصارى غاضبون على رسول الله ﷺ، وعلى كلِّ مسلمٍ من أُمته، لأنّه على حق، وهؤلاء يكرهون كلَّ مَنْ كانَ على حق.

مع أنَّ هـؤلاء اليهـودَ والنصارى كافرون ضالّون، واللهُ غضـبَ عليهم ولعنَهم، بسببِ كفرِهم، وبسببِ بغضِهم لأوليائه.

٢ ـ إنّهم لنْ يرضَوْا عن أيِّ مسلمٍ إلاّ إذا اتَّبَعَ ملَّتَهم، ودخلَ في دينهم، وصارَ يهودياً أو نصرانياً، أو على الأَقَلِّ تخلَّى عن الإسلام، وتركَ الهدى، وصارَ ضالاً ضائعاً، حيرانَ تائهاً، لا دينَ له ولا عقيدةَ ولا هوية.

وهذا معناهُ: أنّنا إذا رأيْنا اليهودَ والنصارى يُحبون أحداً من المسلمين، أو يرضَوْن عنه، ويمدحونَه، فلا بدَّ أَنْ نشكَّ فيه، وفي ثباتِه على الإسلام والتزامِه به! لأنَّه لو كان ملتزماً بالإسلامِ حقّاً، لما أحبَّهُ هؤلاء الكافرون، ولما رضوا عنه، أو أَثنوا عليه ومَدَحوه.

٣ ـ تفسرُ لنا الآيةُ سـببَ ذمِّ اليهـودِ والنصارى للعلماءِ والدعـاةِ والقادةِ المجاهدين، من المسلمين المعاصرين، حيث يوجِّهونَ لهم اتّهاماتٍ عديدة، بالتطرّفِ والعنفِ والإرهابِ والإفساد والتخريب، ويُعلنون عليهم الحرب!.. بينما يرضونَ عن زعماءَ وقادةٍ للمسلمين، يمدحونَهم وينَسِّقونَ معهم! والقرآنُ يكشفُ عن سِرِّ كرهِهم للفريقِ الأول، ورضاهم عن الفريق الثاني.

ولا بدَّ أن نوقنَ باستحالةِ حصولِ مؤمنٍ صالحٍ ملتزمٍ بالإسلام، على رضا ومحبة اليهود والنصارى، ولا يهمّه ذلك، لأنّه إن رضوا عنه شُكَّ في دينِه.

من صفات المؤمنين وصفات الكافرين:

٤ ـ تقصرُ الآيةُ الهدى على هدى الله، وهو ما أوحى به لرسوله الخاتم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾. وبما أنَّ اليهودَ والنصارى لم يدخلوا في الإسلام، فإنّهم ليسوا على هدى، وهذا معناهُ: أنهم على باطلٍ وضلال.

٥ ـ بما أنهم ليسوا على هدى، فإنّهم مُتَّبِعون للهوى، والهوى مناقضٌ للهدى، وأهواؤُهم هي التي تسيِّرُهم وتوجّهُهم، وتحكمُ حياتَهم، وهم عبيدٌ لتلك الأهواء.. قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

٦ ـ وبما أنَّهم متَّبعون للهوى، فهم جاهلون، لا علْمَ عندهم ولا معرفة، لأنَّ الهوى لا يقودُ إلا إلى الجهل، وهو يُلغي مواهبَ وطاقاتِ الإنسان، ويشلُّ مداركه. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

العلمُ ملازمٌ للهدى، والذين هم على علمٍ هم المتَّبعونَ لهُدى الله: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ والمرادُ به: العلمُ النافعُ لصاحبِه في الدنيا والآخرة، وليس مجرّد المعرفةِ والثقافةِ والدراسةِ والمطالعة.

٧ ـ يمكنُ أنْ نستخرجَ من الآيةِ الصفاتِ التاليةَ لليهودِ والنصارى: هم جاهلون غيرُ عالمين، هم متّبعون للهوى، هم ضالّون غيرُ مهتدين، هم مبغضون للمؤمنين.

أما صفاتُ المؤمنين في الآية فهي: هم عالمون، ومهتدون، وثابتون على الحق، وحَذِرون من الأعداء!.

نقمة الكافرين على المسلمين:

رابعاً ـ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

تقررُ الآيةُ حقيقةَ (نقمةِ) أهلِ الكتابِ من المؤمنين، وتبيِّنُ سببَ هذه

النقمة، وهو إيمانُ المؤمنين بالله، وإيمانُهم بكتبه كلِّها، وإيمانُهم برسلِه كلِّهم، كما أنَّ سببها هو فسقُ أهلِ الكتاب، وخروجُهم من دينِ الله.

أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى لا يحبّون للمسلمين الخير، وهم حريصونَ على صَرْفِهم عن إسلامِهم، وهم حاسِدون للمسلمين، مبغضونَ لهم، منتقمون منهم!.

يتعاملُ الكفارُ مع المسلمين، وهم متَّصفون بهذه الصفات، ويواجهونَهم وهم يكِنُّون لهم هذه المشاعر، ويُخطّطون لحربِهم وهم بهذا الرصيدِ من القبائح. هذا ما بيَّنَتْه لنا آياتُ القرآنِ الهادية الكاشفة.

إنَّ انتقامَ أصحابِ الباطلِ من أصحابِ الحقّ قائمٌ على الحقدِ الأسود، وصَبِّ صنوفِ الأذى عليهم، والرغبةِ في قتْلِهم والتخلّصِ منهم.. كما قال تعالى عن أصحابِ الأُخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

وإذا كان الكافرون فاسقين، حريصين على الانتقامِ من المسلمين، والقضاءِ عليهم، فهل يَتوقَّعُ المسلمون أنْ يتوقَّفوا عن مواجهتِهم وحربِهم؟.

عداوة الكفار للمسلمين:

خامساً ـ قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

تتكلَّمُ الآيةُ عن اليهود، وتُبيِّنُ للمسلمين ما هم عليه من كفرٍ وعداوة، وحرصٍ على مواجهةِ المسلمين، وإبعادِهم عن دينِهم.

اليهودُ يكرهونَ الحق، وهم يعلمونَ أنَّ المسلمين على حقّ، ولذلك يُبغضونَهم، وكلما ازدادَ المؤمنون ثباتاً على الحق، ازدادَ اليهودُ كفراً به، وطغياناً ضدَّ المسلمين.

ورغمَ أنَّ العداوةَ والبغضاءَ متعمّقتان بين طوائفِ اليهودِ إلى يوم القيامة، أَلقاها اللهُ بينَهم إلقاءً، فلا ترتفعُ من بينهم، إلاّ أنهم يجتمعونَ على مواجهة المؤمنين.

واليهودُ فاسدون مفسِدون، يَسْعَون في الأرضِ فساداً، ويَحرصونَ على نشرِ الرذائلِ بين الناس، وعلى محاربةِ الفضائلِ وأهلها، ولذلك أبغضهم اللهُ ولعنَهم!.

وبما أنَّهم فاسدون مفسدون، فهم دعاةُ حروبٍ ودمار، وموقدون لنيرانِ الفتنِ والنزاعاتِ والخلافات المسلَّحة، وحَريصونَ على تجييشِ الآخرين لمواجهةِ المسلمين وحربهم.. ولكنَّ اللهَ لهم بالمرصاد، يُبطلُ مكائدَهم ضدَّ المسلمين، وكلَّما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأَها، وكلَّما أشعلوا فتنةً قضى عليها.

استمرار قتال الكفار للمسلمين:

سادساً ـ **قال تعالى**: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

تتحدّثُ الآيةُ عن حربِ الكافرين المشركين للمسلمين، وحرصِهم على فتنتِهم وتعذيبِهم، ليتخلَّوا عن دينهم الحق، ويعودوا إلى ما عليه الكافرونَ من باطل!.

وتقررُ الآيةُ قاعدةً عامةً مطردة، في نظرةِ الكفارِ إلى المسلمين، وأساساً راسخاً يحكمُ تعاملَهم معهم.

الكفارُ وطَّنوا أنفسَهم على مواجهةِ المسلمين، وحربِهم وقتالِهم، وجعلوا هذه المهمةَ الشيطانيةَ رسالتَهم في الحياة، أَوقفوا أنفسَهم عليها، ورَصَدوا أَموالَهم لها، ووظَّفوا كلَّ ما يملكون لأدائِها!.

وفعل ﴿لا يزالون﴾: يدلُّ على الاستمرار، وعدمِ التوقّفِ أو الانتهاء، وجملةُ ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ في محلٍّ نصب خبر ﴿لا يزالون﴾ ـ لأَنَّ «مازال» من أخواتِ «كان»، ترفعُ الاسمَ وتنصبُ الخبر ـ أي: لا يزالُ الكفارُ مقاتلينَ لكم.

وعبَّرت الآيةُ عن الفعليْنِ بصيغةِ المضارع ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، للإشارةِ إلى التجدّدِ المستمرّ لهدفهم، والتجددِ المستمرِّ في وسيلتهم، تلك الوسيلةُ القائمةُ على الاستمرار في قتال المسلمين.

هدف الكفار من قتال المسلمين:

ولا يتوقف قتالُ الكفارِ للمسلمينَ إلاّ في حالةٍ واحدة، حدَّدَتْها الآية: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾. إنَّ هدفَ الكفار ـ في الماضي والحاضر والمستقبل ـ مـن قتالِنـا هو ردَّتُنـا عن دينِنـا الحق، وهم يستخدمونَ معنا مختلفَ الوسـائلِ والأساليب، لتحقيقِ هذه الغاية، فإن ارتَدَدْنا عن ديننا توقَّفَ قتالُهم لنا، وانتهتْ مواجهتُهم لنا!.

ويحذِّرُنا اللهُ من الاستجابةِ لهم، وتحقيقِ هدفِهم ضدَّنا، ولذلك يهدّدُ مَنْ يفعلُ ذلـك، ويرتدُّ عن دينه، ويموتُ وهو كافر، بالعذابِ الأليمِ في الدنيـا والآخرة.

وندعو إلى الجمعِ بين آيتَيْن:

آيةٌ تحدّدُ هدفَ اليهودِ والنصارى من مواجهتِهم لنا، بتخلّينا عن ديننا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

وآيةٌ تحددُ هدفَ المشركين الكافرين من استمرارِ قتالِهم لنا، بارتدادِنا عن ديننا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾.

ويَلتقي الفريقان الكافران على تحقيقِ الهدفِ المشتركِ لهما، فالمستهدَفُ من مواجهتِهم لنا هو إسلامُنا، وقد فضحهم القرآنُ في إظهارِ ما أَخفوه وكتموه، وعرَّفَنا على ذلك، لنزدادَ حَذَراً منهم، ووعياً لمخططاتهم، وثباتاً على الحق!.

صفات المؤمنين المواجهين للكفار:

سابعاً ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٦].

كانت الآيـاتُ السابقةُ تقرّرُ استمرارَ مواجهةِ الكافرين للمؤمنين، تلـك المواجهةُ التي بدأَتْ بين آدمَ عليه السلام وإبليس، واستمرَّت على مدارِ تـاريخِ

البشريةِ كلِّها، وستبقى مستمرةً حتى قيام الساعة.

وقد عرَّفَتْنا الآياتُ السابقةُ على صفاتِ الأعداءِ المواجهين لنا، وعن هدفِهم من هذه المواجهة، ووسائلِهم ضدَّنا، وحذَّرتْنا من الاستجابةِ لهم.

أما هذه الآياتُ من سورةِ المائدةِ فإنّها تتحدَّثُ عن الصفات الأساسيةِ للمؤمنين الصادقين، الذين يواجهون الكفار، ويقفون أمامهم، وينحازون إلى إسلامِهم، ويُنقذونَ إخوانَهم وأوطانهم:

١ - إنَّ اللهَ يحبُّهم، ومن محبَّتِه لهم أنَّه استخلَصَهم له، واستعملَهم لخدمةِ دينه.

٢ - إنَّهم يحبونَ الله، ومن محبتِهم له أنهم واجهوا أعداءَه، وانحازوا إلى دينه.

٣ - إنهم يجاهدون في سبيلِ اللهِ جهاداً كبيراً، صادقاً مبروراً، ثابتاً دائماً.

٤ - إنهم لا يحسبون حساباً لغيرِ الله، ولايخافونَ فيه لومةَ لائم، ولا اعتراضَ معترض.

٥ - إنهم ملتزمونَ بدينِ الله، يُقيمونَ الصلاة، ويُؤتون الزكاة، وهم راكعون.

٦ - إنهم أولياءُ لله، يتولَّون اللهَ ورسولَه والذين آمنوا، ويتبرَّؤون من الكافرين.

٧ - إنهم حزبُ الله الغالبون المنتصرون.

* * *

الفصل الثامن

القرآن يبشّر المؤمنين الصّالحين

يوقنُ المؤمنُ أنَّ وعدَ اللهِ منجَزٌ متحقِّق، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، ولذلك هو يُصدِّقُ به، ويثقُ به ثقةً مطلقة، ويتذكّرُه دائماً وهو يواجِهُ الأعداءَ الكافرين، ويتحدَّاهم ويتصدّى لهم.

يتذكّرُ وعدَ اللهِ دائماً في هذه المواجهة، ليصبرَ على شدائدِها، ويتحمّلَ تكاليفَها، وينتظرَ يومَ النصر، ويوقنَ بتحققِه ولو تأخّرَ قليلاً.

يجبُ أنْ يستبشرَ المؤمنُ البشرى المطلقة، بأنَّ المستقبلَ لدينه، والهزيمةَ لأعدائه، وهذه البشرى تملؤُه أَمَلاً، وتدفعُه إلى مزيدٍ من الجهاد والعمل، وتقضي على وساوس الشيطان له، ومحاولاتِه إِحباطَه وتيئيسَه، وإِماتةَ الأملِ والأماني المشرقةِ عنده!.

وفي القرآنِ آياتٌ كثيرةٌ تدعو إلى تبشيرِ المؤمنين المجاهدين، المواجهين لأعداءِ الله، وتطلبُ منهم عدمَ اليأسِ والإحباطِ والقنوط، وتُزيلُ وساوسَ الشيطانِ في نفوسهم، وإِبطالَه لأمنياتهم!.

ولْنقفْ مع بعضِ هذه الآيات، لنأخذَ منها البشريات والآمال، نستعينُ بها على مشقّات الطريق الطويل، ونعالجُ بها هواجسَ اليأسِ والقنوطِ والإحباط!.

موسى يبشّر أتباعه المؤمنين:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

تدلُّ هذه الآيةُ على أنَّ التبشيرَ بالفَرَجِ والنصرِ ليس خاصّاً بهذه الأمة، إنما هو عامٌّ لكلِّ مسلمين مواجِهين لقوى الباطل، وكان الرسلُ السابقونَ عليهم الصلاة والسلام يُبَشِّرون أَتْباعَهم المؤمنين بالفَرَجِ والنصر.

ففي هذه الآية، يأمرُ اللهُ موسى وهارونَ عليهما السلام أَنْ يتبوَّأا البيوتَ الخفيةَ السريةَ لقومِهما الإسرائيليين في مصر، التي كانوا يواجهون فيها تعذيبَ فرعونَ وآلِه، وأَنْ يَجْعَلوا تلك البيوتَ قبلةً لهم، يَعبدونَ اللهَ فيها، ويقيمون فيها الصلاة.

وأَمَرَ اللهُ موسى عليه السلام أَنْ يُبشّرَ أَتْباعَه المؤمنين بقربِ الخلاصِ والفَرَج. ونفذَ موسى عليه السلام أَمْرَ الله، وبَشَّرَهم البشرى المشرقة، وسْطَ «تبرُّمهم» منه، واعتراضِهم عليه، واستبعادِهم الفَرَج، وانزعاجِهم من طولِ الطريقِ وشدتِه!.

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

موسى عليه السلام يَطلبُ من الإسرائيليّين المعذَّبين المضطهدين، أَنْ يَستعينوا باللهِ ويَصْبِروا، ويبشِّرُهم بأنَّ الفَرَجَ آت، فالأرضُ لله، يورثُها مَنْ يشاءُ مِن عبادِه، وينزعُها ممن يشاءُ من عباده، ويُهلكُ الكافرين الظالمين، ويجعلُ العاقبةَ لعباده المتّقين.

لكنَّ قومَه كانوا غلاظاً قُساةَ القلوب، فلم يَقبلوا هذا التبشيرَ، وإنَّما تبرَّموا به وبدعوتِه، وقالوا له: لم نستفِدْ منك شيئاً، فقد نالَنا الأذى والعذابُ من فرعون قبلَ أَنْ تأتينا، وها هو العذابُ والأذى يُصَبُّ علينا من بعدِ ما جئتَنا، فماذا استفَدْنا منك؟ ولماذا لم توقفْ هذا الإيذاءَ عنا؟.

ردَّ موسى عليه السلام على اعتراضِهم وتبرُّمهم، بتبشيرٍ صريحٍ لهم، وقال: عسى اللهُ أَنْ يُهلكَ فرعونَ وجنودَه، ويُفرّجَ عنكم ما أنتم فيه، ويستخلِفَكم من بعدِهم في الأرض.

وقد تحققت هذه البشرى بعد ذلك، عندما أنجى اللهُ موسى عليه السلام ومَنْ معه أجمعين، وأغرقَ فرعونَ وجنودَه، واستخلفَ بني إسرائيل، وأورثَهم الأرض، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ

وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

القرآن يبشِّر المؤمنين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

القرآنُ كتابُ تبشير، فهو يرشدُ المؤمنين للخير، ويَهديهم للطريق الأقوم والأصلح، ويقدمُ لهم البشرى بالفلاحِ والنجاحِ والفوز، في الدنيا والآخرة.

وتكمنُ البشرى القرآنيةُ في وعودِه الصادقةِ المتحقّقة، التي يَعِدُ بها المؤمنين الصالحين، كما تكمنُ في ما يذكُره القرآنُ من قصص السابقين، ويركِّزُ على مواطنِ الصبر فيها، بإهلاكِ أهلِ الباطل، وانتصارِ أهلِ الحق.

واللطيفُ في التعبيرِ القرآني، أنَّ هذه الآية: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جاءتْ بعدَ عدةِ آيات، تحدَّثتْ عن إفسادَيْن كبيرَيْن لبني إسرائيل، مقرونَيْن بعلوٍّ واستكبار، موجَّهَيْن ضدَّ الأُمةِ المسلمة، وذكرتْ كيفيةَ القضاءِ على ذينك الإفسادَيْن وإزالتِهما.

فمن المناسبِ أنْ يأتيَ الحديثُ عن تبشيرِ القرآنِ للمؤمنين، بعدَ الحديثِ عن إزالةِ الإفسادَيْن اليهوديَّيْن، ليكونَ من مظاهرِ التبشيرِ القرآني تقريرُه أنَّ إزالةَ الإفسادَيْن حقيقةٌ قرآنيةٌ قاطعة، وبشرى قرآنيةٌ واقعة!.

واللطيفُ أيضاً: أنَّ التعبيرَ عن التبشيرِ القرآني جاءَ بصيغةِ الفعلِ المضارع: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ذلك الفعلُ الدالُّ على التجدّد والاستمرار. وهذا معناهُ: أنَّ البشرى القرآنية متجدّدة، فكلّما قرأ المؤمنُ البصيرُ المبْتَلى آياتِ القرآنِ بوعيٍ وتدبُّرٍ وبصيرة، كلّما تزوَّدَ من تلك البشرى بالزادِ العظيم الذي يُعينُه على الثباتِ والصبر.

الأمر بتبشير العباد الصالحين:

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

يُثني اللهُ في هاتينِ الآيتَيْن على عبادِه الصالحين المتقين، الذين يستحقّون البشرى المشرقة، فهم مؤمنون، اجتنبوا عبادةَ الطاغوت، وعَبدوا اللهَ وحْدَه، وأنابوا له وحده، واستمعوا كلامَه، واتَّبعوه والْتزموه، واهتدَوْا به، وبذلك كانوا من أُولي الألبابِ الواعية، وأصحابِ العقولِ الكبيرة.

هؤلاء لهم البشرى من الله، بأَنْ يعيشوا في الدنيا حياةً طيبةً سعيدة، في ظلالِ ذكرِ اللهِ وطاعتِه، وبأَنْ يتنعَّموا في الآخرةِ بجنَّته.

هؤلاء العبادُ الربّانيون مكْرَمون عندَ الله، ولذلك يأْمُرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبشِّرَهم بالخيرِ والفلاح، وذلك لتشرقَ أرواحُهم، وتستنيرَ قلوبُهم، وتنشطَ هممُهم، وتقوى عزائمهم.

هؤلاء العبادُ الذين يبشّرُهم الرسولُ ﷺ في الدنيا، يُنزِّلُ اللهُ عليهم ملائكتَه عند احتضارِهم لطمأنتِهم وتأمينِهم وتبشيرِهم، ليغادروا هذه الدنيا سعداءَ آمنين مطمئنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ـ٣٢].

البشرى للأولياء في الدنيا والآخرة:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ـ٦٤].

تقررُ هذه الآياتُ حقيقةً قاطعة، وهي تأمينُ وحفظُ وحمايةُ اللهِ لأوليائه، المؤمنين المتقين، وبما أنَّ اللهَ يَحفظُهم ويحميهم، فإنهم يعيشون حياتَهم بدونِ خوفٍ من المستقبل، ولا حزْنٍ على الماضي.

وتقدمُ الآياتُ صفتَيْن عظيمتَيْن لهؤلاء الأولياء: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: الإيمانُ العظيمُ الحيّ، المؤثِّرُ المحرّك، الذي ينتجُ عنه العملُ الصالحُ والاستقامة. ثم التقوى العظيمة لله، التي تحولُ بين صاحبها وبين ارتكابِ ما حَرَّمَ الله، أو تركِ ما أوجبَ الله، وتجعلُه يعيشُ معنى معيةِ الله، ومراقبتِه له.

هؤلاء الأولياءُ يستحقّون البشرى العامة، الشاملة المطلقة: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وبُشْراهم في الدنيا تشملُ كلَّ مجالاتِ حياتهم، فبما أنّهم أولياءُ لله، مؤمنون متّقون، فإنَّ اللهَ يوفِّقُهم ليعيشوا الحياةَ الطيبةَ المباركةَ السعيدة، عابدين ذاكرين مطيعين لله، ومعلومٌ أنَّه لا طعم ولا معنى للحياة، إن لم يعشْها صاحبُها في عبادةِ اللهِ وطاعتِه.

وهم مفلحون في أعمالِهم، ناجحون في أدائهم لها، فائزون في نهايتها، وسَجَّلَ اللهُ لهم أَجرها وثوابَها.

وبُشْراهم في الآخرة تتحقق، عندما يُظِلُّهم اللهُ في ظلِّه، وهم في ساحةِ الموقف، وعندما يتجاوزُ عن ذنوبهم، ويُثْقِلُ موازينَهم، ويُعطيهم كتبَهم بأَيْمانِهم، ويُدخلُهم الجنةَ برحمتِه وفضْلِه، ويجعلُهم منعَّمين خالدين فيها أبداً.

وأخبرت الآياتُ أنَّه لا تبديلَ لكلماتِ الله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. أي: لا تغييرَ للحقائقِ المذكورةِ في هذه الآيات، ولا تراجُعَ عن البشرى للأولياء المبشَّرين، وهذا هو الفوزُ العظيم، الذي يمنُّ اللهُ به على أوليائه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

البشرى للصابرين:

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

يخبرُ اللهُ المؤمنينَ أنَّ حياتَهم قائمةٌ على الابتلاءِ والاختبارِ والامتحان، حتى يوطِّنوا أنفسهم على ذلك، ويستعدّوا لمواجهته، ولا يُفاجَؤوا به. وهو سبحانه سيبتلي المؤمنينَ بشيءٍ مِنَ الخوفِ والجوع، ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمرات.

ويدعوهم اللهُ إلى مواجهةِ ذلك كلِّه بالصبرِ والاحتساب، وكلَّما أصابتْهم

مصيبة؛ في أنفسِهم أو أموالِهم، أو أَهليْهم أو ممتلكاتِهم، يتذكَّرون أنّهم عباد، خاضعون لله، وأنَّ حياتَهم في الدنيا قصيرةٌ زائلة، وهم راجعونَ بعدَها إلى الله، ويقولون: إنّا لله، وإنّا إليه راجعون.

وصبْرُهم على ما يواجِهُهم من ابتلاءاتٍ ومِحَنٍ، يَدفعُهم إلى الثباتِ على الحق، والرضا بقَدَرِ الله، والثقةِ بما عنده، وإشغالِ أوقاتِهم بطاعةِ اللهِ وعبادتِه، والابتعادِ عما حَرَّمَ عليهم!.

هؤلاء العبادُ الصابرون، يأمرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبشّرهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وصبْرُهم على ما يلاقون أَهَّلَهم لنيلِ البشرى من الله، على لسانِ رسولِه ﷺ، مما يدلُّ على عِظَمِ مكانةِ الصبر عند الله، وعُلُوِّ منزلةِ صاحبه.

والبشرى للصابرين مطلقة، عامةٌ شاملة، تشملُ كلَّ خيرٍ وفوزٍ وفلاح، يبشَّرون به في الدنيا والآخرة.

وكما أنَّ صبْرَهم زادٌ ضروريٌّ لهم في حياتِهم، يتزوَّدون به في قطعِ الطريقِ إلى الله، وتحملُ مشقّاتِه وابتلاءاتِه ومحنِه، كذلك البشرى من الله حافزٌ كبيرٌ لهم، يدفعُهم إلى مزيدٍ من الجهدِ والاجتهاد، والصبر والاحتساب.

وفرقٌ بعيدٌ بين مَنْ يصبرُ على البلاءِ رغمَ أنفه، وهو يائسٌ قانطٌ محبَط، كارهٌ لحياتِه ومسيرتِه، وبينَ مَنْ يصبرُ على ذلك وهو مستبشرٌ فاعل، إيجابيٌّ نشيط، يستعذب المصائب، ويستمتعُ بالمشقّات، والبشرى تملأُ عليه حياتَه!!.

البشرى للمؤمنين المجاهدين:

سادساً: قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١ ـ ١١٢].

أكرمَ اللهُ المؤمنين الصادقين، بأن اشترى منهم أنفسَهم وأموالَهم، وجعلَ ثمن هذه الصفقةِ الجنة، يُدخلُهم فيها منعَّمين مكرَّمين، لكنَّ طريقةَ تسليم الأنفسِ والأموالِ المباعة، هي جهادُهم الصادقُ في سبيل الله، وقتالُهم المستمرُّ لأعداءِ الله.

وأكرمَ اللهُ المؤمنين الصادقين إكراماً آخر، بأَنْ جعلَ هذه الصفقةَ الكبيرة وعْداً عليه حقاً، ألزمَ نفسَه بإنفاذِه رحمةً وكرماً وفضلاً، وجعلَ هذا الوعدَ في كتبِه الثلاثة المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن.

ودعا اللهُ هؤلاء المؤمنين إلى الاستبشار بقبول هذا البيع، الذي باعوه لله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وما أعظمَ أنْ يُجاهِدَ المجاهـدُ في سـبيل الله، ويقتحمَ الميدان، ويقاتلَ الأعداء، وهو مستبشرٌ سعيدٌ مسرور، راضٍ عن ربِّه الكريم، موقنٌ بإنجازِ وعْدِه العظيم، مقبلٌ عليه بحيويةٍ وتفاعل، وشجاعةٍ وإشراق!.

ولا بدَّ للمؤمنين المجاهدين من أَنْ يَتَّصفوا بالصفاتِ الإيجابيةِ العظيمة، التي ذكرتْها الآيةُ الثانية، ليَصْدُقوا في البيعة، وينالوا الثمنَ والجزاءَ والكرامة: التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.

هؤلاء المؤمنون هم أكرمُ الناس على الله، وهم أفضلُ مَنْ على وجْهِ الأرض، يُباهي اللهُ بهم ملائكتَه، ويَحوطُهم بحفْظِه ورعايتِه.

ومن كرامتِهم على الله، أنه يأمُرُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبشِّرَهم البشرى المطلقة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. البشرى بالخيرِ والتوفيقِ في الدنيا، والاستمتاعِ فيها بالحياةِ الطيبة، وبالجنةِ ونعيمِها في الآخرة!.

البشرى بالفوز والربح والنجاة:

سابعاً: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بتبشيرِ المؤمنين، في هذه السورةِ الجهادية (سورة الصف)، وورد في سياقِ الحديثِ عن الجهادِ، باعتبارِه التجارةَ الرابحةَ المنجية، وهو السياقُ نفسُه الذي وردَ فيه الأَمْرُ بالتبشيرِ في سورةِ التوبة، الذي تحدَّثْنا عنه في الآيات السابقة.

الجهادُ تجارةٌ رابحةٌ، منجيةٌ من عذابٍ أليم، والقعودُ عنه خسارةٌ، وسببٌ للعذابِ الأليم، والجهادُ خيرٌ للمؤمنين، والقعودُ شَرٌّ لهم.

وللجهادِ نتائجُ عظيمة، وثمراتٌ باهرة، لا يمكنُ للأمةِ أَنْ تنالَها إلاّ به، مثل مغفرةِ الذنوب، ودخولِ الجنات تجري من تحتها الأنهار، وتملُّكِ المساكنِ الطيبة في جنات عدن، وتحقيق الفوزِ العظيمِ والفلاحِ الكبير.

ومن نتائجِ الجهادِ العظيمةِ في الدنيا تحقُّقُ النصرِ من الله، والحصولُ على الفتح القريب.. والقعودُ عن الجهاد لا يفتحُ بلاداً، ولا يَجلبُ نصراً، ولا يحررُ وطناً، ولا يدفعُ عدواً.

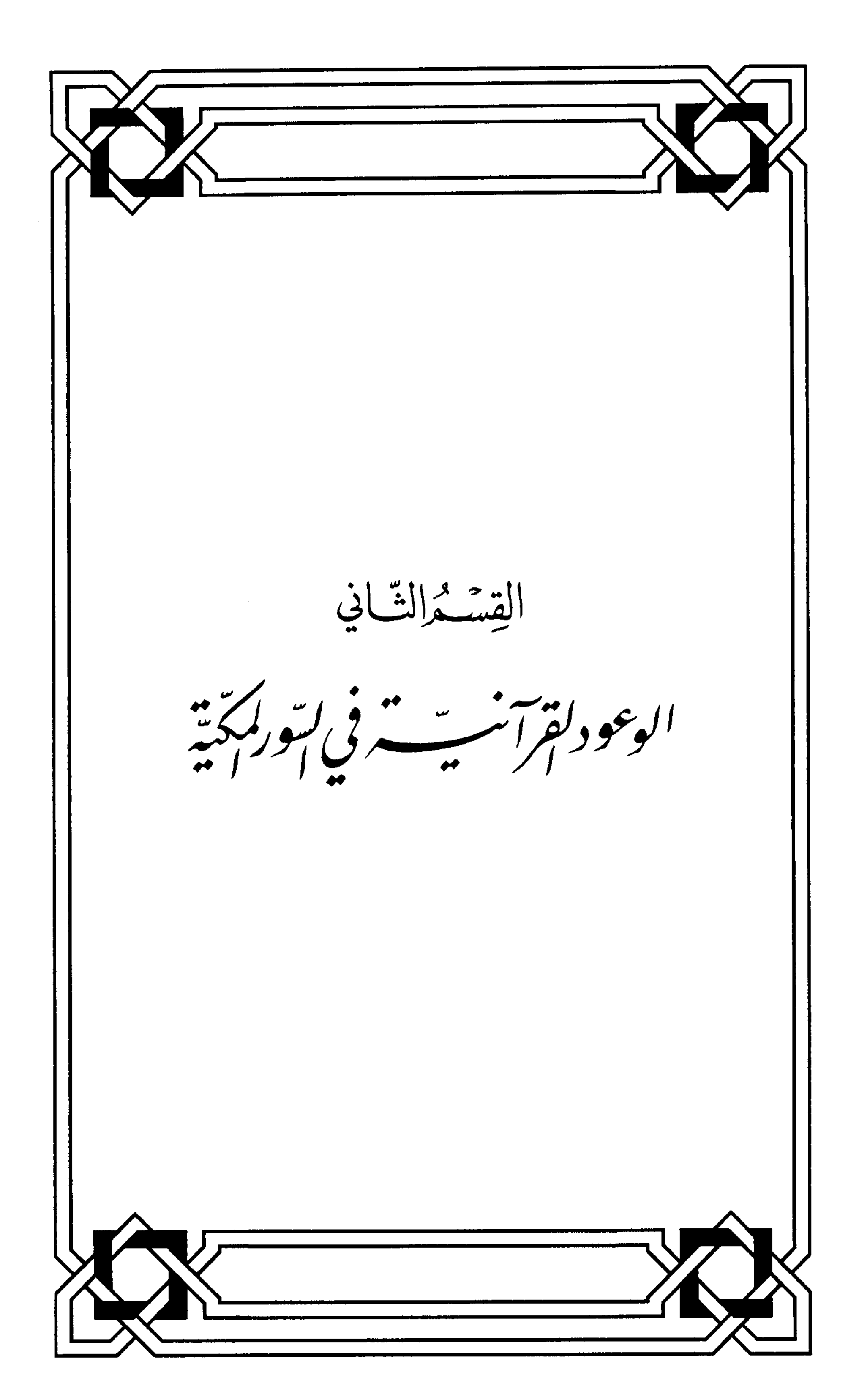
وفي خاتمةِ الحديثِ عن ثمراتِ ومكاسبِ الجهادِ في الدنيا والآخرة، يأمرُ الله رسولَه ﷺ أن يبشرَ المؤمنين المجاهدين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بماذا يبشّرهم؟ يبشِّرهم بشرى مطلقة، بالحصولِ على كلِّ مظاهرِ الخير، في الدنيا والآخرة، ومن أهمِّها اكتسابُ ثمراتِ الجهاد العظيمة، التي قررَتْها هذه الآيات!.

القرآنُ حريصٌ على تبشيرِ المؤمنين الصادقين، والمجاهدين الثابتين، وهم ينالون البشرى القرآنيةَ بيقين، فيَفرحونَ ويَنشطون، ويؤدّون واجباتهم، وهممهُم عالية، ونفوسُهم مشرقة، وآمالُهم عريضة، وقد أبعدوا عنهم وساوسَ الشيطان، وتدَسُّسَ هواجسِ اليأس أو القنوط أو الإحباط، يحدوهم قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

* * *





القِسمُ الثّاني

الوعود القرآنيّة في السّور المكّيّة



الفَصْلُ الأوَّل

الوعد القرآني في سورة الأنعام

سورةُ الأنعام مكية، موضوعُها الأساسيُّ هو العقيدة، فهي تعرضُ حقائقَ العقيدة، وتقدمُ الأَدلّةَ على وحدانيّةِ الله، وتقيمُ الحجَّةَ على الكافرين، وتُفَنِّدُ ما هم عليه من كفرٍ وشرك، وتُبطلُ إشاعاتِهم وشبهاتِهم ضدَّ الحقّ، وتقودُ المؤمنين في مواجهة الباطل.

وأُنزلتْ سورةُ الأنعامِ في فترةٍ حرجةٍ شديدة، عاشَتْها الدعوةُ الإسلاميةُ في مكة، وكانت أقسى الفتراتِ التي مرَّت بها، وكان هذا في سنواتِ حصارِ المؤمنين في شِعْبِ أبي طالب، وما أَعْقَبها من عامِ الحُزْن، وإيذاءِ الرسولِ ﷺ في الطائف، إلى أنْ كانت حادثةُ الإسراءِ والمعراج.

كانت الدعوةُ الإسلاميةُ محاصرةً حصاراً شديداً في هذه الفترةِ الحرجة، حيثُ اشتدَّ إيذاءُ وتعذيبُ الكافرين للمسلمين، وكان المسلمون يبحثونَ عن مخرجٍ لهذا الحصار، وينتظرونَ الفرَجَ من الله!.

وأُنزلَتْ سورةُ الأنعامِ في هذه الفترةِ الحرجةِ، بهدفِ تعليمِ المسلمينَ الحجَّة، وملءِ قلوبِهم بالأمل، ورفعِ هممِهم ومعنوياتِهم وعزائمِهم.

ولذلك تضمَّنَتْ آياتُ السورةِ وُعوداً قرآنيةً بهزيمةِ وعقابِ الكافرين، ونصر المسلمين، والتمكين لهم في الأرض. وكانت الوعودُ في الآيات التالية:

تهديد الكفار بالهزيمة في غزوة بدر:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ٤ ـ ٥].

تتحدَّثُ الآيتان عن موقفِ الكفارِ من الحق، فقد تعاملوا معه بعنادٍ

واستكبار، وكلّما أسمعهم رسولُ الله ﷺ آياتٍ من القرآن، وفهموا ما فيها من أدلّةٍ وحججٍ وبراهين، كانوا يُعرضون عنها عناداً، فلا يُقِرُّون أنّها من عند الله، ولا يؤمنونَ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله، ولا يعترفونَ أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ، وإنما كانوا يُكذِّبون بالحقِّ الواضح، ويستهزئون بالرسول ﷺ، ويسخرونَ من المؤمنين، ويزدادونَ عداوةً للحقِّ وأهلِه.

وعندما كان يُخبرُهم رسولُ اللهِ ﷺ بأنّه سينتصرُ عليهم، يزدادون سخريةً واستهزاءً، وتكذيباً للرسولِ ﷺ. حيث كانوا ينظرون لذلك نظرةً مادية، فهم أكثر قوةً وعدداً ومالاً، والمسلمون مستضعَفون فقراءُ أقلية، لا يَملكون مالاً ولا سلاحاً ولا كياناً، فكيفَ يهزمون أهلَ مكةَ الأقوياء، ويتغلّبون عليهم؟.

وقد توعَّدهم اللهُ وهدَّدهم بالعذاب: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

والمعنى: كَذَّبَ الكفارُ بالحق، ونَفَوْا أَنْ ينتصر، وهم مُخطئون في ذلك، وسوفَ تأْتيهم الأنْباءُ التي كانوا يُكذِّبون ويستهزئون بها، وذلك عندما تتحقّقُ الوعودُ التي وعدَ اللهُ بها المؤمنين، والتوعُّداتُ التي توعَّدَ اللهُ بها الكافرين.

وإتيانُ الأنباءِ إليهم، عندما تنشبُ المعاركُ بينهم وبين المسلمين، وعندما ينصرُ اللهُ المؤمنين عليهم.

فهذه الجملة: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وعْدٌ للمؤمنين بالنصرِ، ووعيدٌ للكفَّارِ بالهزيمة.

وقد تحققَ الوعْدُ بعد بضعِ سنينَ من نزولِ هذه الآيات، وكان ذلك في السنةِ الثانيةِ من الهجرة، على أرضِ معركةِ بدر، حيثُ نصرَ اللهُ الحق، وهزمَ الباطل، وفقدَ الكافرون زعيمهم أبا جهل، وسبْعين رجلاً معه، إضافةً إلى الجرحى والأسرى منهم.

ولما أصاب المشركين في بدرٍ ما أصابهم، أتتهم الأنباءُ التي كانوا يستهزئون بها، وتحقَّقت الوعودُ القرآنيةُ في الآياتِ المكية، بهزيمةِ الكافرين وانتصارِ المؤمنين، وعاشَ المؤمنون والكافرون صورتها العمليةَ الواقعية، وبذلك تحوَّلَ الوعدُ القرآني من صورته النظرية إلى صورتِه العملية.

الكفار خاسرون في حرب الإسلام:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

تتحدَّثُ الآيةُ عن جهودِ الكفار في محاربةِ القرآن، والوقوفِ أمامَ رسولِ الله ﷺ، وتُبيِّنُ أنَّهم لن ينجحوا في ذلك، وهم الذين سيخسرون.

كان زعماءُ وقادةُ الكفار يَنهون أَتْباعَهم عن الدخولِ في الإسلام، ومتابعةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وينأَون هم عنه، ويَبتعدون عن الإيمانِ به.

وتعودُ الهاء في ﴿عنه﴾ على رسول الله ﷺ، وما معه من القرآنِ والحقّ، أي: ينهى زعماءُ قريشٍ أَتباعَهم عن الإيمانِ بالرسولِ ﷺ، وهم يَنْأَوْنَ ويَبْتَعدون عنه.

لقد ارتكبَ هؤلاء الزعماءُ جريمَتَيْن: الجريمةُ الأولى في حقِّ أنفسِهم، حيثُ كفروا ونَأَوْا وابْتَعدوا عن الإيمان.. والجريمةُ الثانيةُ في حقِّ الآخرين، حيث نهوهم عن الإيمان.

وهدفُهم من النأي والنهي القضاءُ على الحقّ، وإبطالُ دعوة الرسولِ ﷺ، والتغلُّبُ عليه، وهزيمتُه في النهاية.

وأشارتْ إلى هذه الجرائم والوسائلِ الخبيثةِ آياتٌ أُخرى في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

طلبَ قادةُ الكفارِ من أَتْباعِهم أَنْ لا يستمعوا للقرآن، وأَنْ يَلْغَوْا فيه ويُشَوِّشوا عليه، لئلاّ يسمعَه الآخَرون، لأنَّهم يخشونَ أَنْ يؤمنَ الآخرونَ به إذا استمَعُوا له، لأنَّه سرعانَ ما يدخلُ القلبَ ويؤثِّرُ فيه، والحلُّ عندهم هو اللغوُ والتشويشُ لئلاّ يستمعوا له!.

هل ينجحُ الكفارُ في اللغوِ والتشويشِ على القرآن؟ وفي إيقافِ انتشارِه عندما ينْهَوْن وينأَوْنَ عنه؟ وهل يمكنُ أَنْ يَغْلبوه ويَهْزِموه؟.

الجوابُ بالنفي. وقد حسمت الآيةُ المسألة، وقرّرتْ نتيجةَ حربِهم

للقرآن، بأنّهم الخاسرون الهالكون: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذا وعدٌ قرآنيٌّ قاطع، صيغَ بهذه الجملةِ المحددة، حيث نفتْ إمكانيةَ نجاحِهم أو انتصارِهم، وحصرت الهلاكَ بهم، ومعلومٌ أنَّ اجتماعَ «إنْ» النافية، و«إلا» الاستثنائية معاً يدلُّ على الحصر: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

الكفار لا يفكرون في العواقب:

إنَّ الكفارَ ـ في الماضي والحاضر والمستقبل ـ يُهلِكونَ أنفسهم بأنفسِهم، ويجلبـونَ العذابَ لأنْفُسِهم بأنفسِهم، ويَحفرونَ قُبورَهم بأيديهم، ولا يحيقُ المكرُ السيِّئ إلاّ بأهلِه.

ولذلك نفت الآيةُ عنهم الشعورَ بعواقبِ الأُمور: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنهم حاقدون متوتِّرون هائجون، يُحاربون القرآنَ بعصبيةٍ وتشنّجٍ ونَزق، ويَرسمونَ الخططَ والمؤامرات، ويستخدمونَ مختلفَ الأساليبِ والوسائل، ويظنّون أنهم سينجحون في مَسعاهم، وسيقضون على القرآن.. وما درى هؤلاء المسـاكينُ أنّهم سيفشلون في حربهم، وأنَّ القرآنَ سيخرجُ منها قوياً ظافـراً منصوراً، وهم الذين يَهلكون ويَخسرونَ ويَنهزمون.

ولو كانوا يشعرونَ في غمرةِ تخطيطِهم وهياجِهم، ولو كانوا يرونَ هذه النهايةَ التعيسةَ البائسةَ لحربهم، فقد يتخلَّوْنَ عنها..

وقد تحقَّقَ الوعدُ القرآنيُّ في هذه الآية، وسجَّلَ التاريخُ مصيرَ الذين كانوا ينهون عنه وينأَوْنَ عنه، ويطلبونَ من أَتْبَاعِهم عدمَ الاستماعِ للقرآنِ واللغوَ فيه والتشويشَ عليه! ولْنتذكَّرْ مصيرَ زعماءِ قريش، ونتائجَ حربهم للقرآن، ونتذكَّرْ نتائجَ جهودِ المنافقينَ واليهودِ في المدينة في حربِهم للقرآن، ونتذكَّرْ حروبَ قوى الكفرِ المختلفةِ للقرآن، ونلاحِظْ خروجَ القرآنِ من كلِّ حربٍ منتصراً، ووقوعَ الفشلِ والخسارةِ والهلاكِ بأعدائِه!.

تكذيب الكفار بالوعود القرآنية:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦ ـ ٦٧].

الخطابُ في الآيةِ من اللهِ لرسولِه ﷺ، بهدفِ مواساتِه وتسليتِه، على ما يجدُ من تكذيبِ قومِه بما معه من الحق.

يقولُ اللهُ له: لقد كَذَّبَ قومُكَ الكفارُ بالقرآنِ الذي معك، مع أنّه الحق من عندِ الله، وكلُّ ما فيه صوابٌ وصحيح، ولا باطلَ فيه. وعليكَ أنْ تقولَ لهؤلاءِ الكافرينَ المكذّبين: أنا لستُ وكيلاً عليكم. أيْ: لا يجبُ عَلَيَّ قذفُ الإيمانِ في قلوبِكم، وإدخالُكم في الإسلام بقوةٍ وإكراه! إنَّ واجبي هو في دعوتِكم وتذكيرِكم ونصحِكم، وإقامةِ الحجّة عليكم، فإن استجبْتُم لي كنتم فائزين، وإنْ رفضْتُم دعوتي كنتم خاسرين، ولا يضرُّني ذلك شيئاً.

ومن مظاهرِ تكذيبِ الكفارِ بالحق، تكذيبُهم بالوعودِ القرآنية، التي كانتْ تُحددُ نهايـةَ المواجهـةِ بين جنودِ الحق وجنودِ الباطل، وتجزمُ بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، في وقتٍ كان فيه الكفارُ في مكة غالبين مسيطرين، وكان المسلمون مستضْعَفين معذَّبين، فعندما كان الكفارُ يَسمعونَ تلك الوعودَ كانوا يَسخرون ويَستهزئون، وردَّت الآيةُ على موقفِهم بتأكيدِ تحقُّقِ تلك الوعود: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

النبأُ هو الخبرُ الصادقُ المهمّ، الذي يهمُّ صاحبَه. واستقرارُ النبأ تحقُّقُه في الواقع، في صورةٍ عمليةٍ واقعيةٍ مشاهَدة.

استقرار وتحقق الوعود القرآنية:

المرادُ بالنبأ الوعودُ القرآنيةُ الجازمةُ بانتصارِ الإسلامِ وهزيمةِ الكفر في المستقبل، والمرادُ باستقرارِ النبأ تحقُّقُ هذه الوعودِ على الأرض.

مثلاً: قولُه تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] نبأ، يتضمّنُ وعداً بانتصارِ المسلمين وهزيمةِ المشركين. واستقرارُه في غزوةِ بدر، حيثُ هُزِمَ الكفارُ فعلاً.

وقولُه تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١ ـ ٣] نبأ، يجزمُ بوفاةِ أبي لهبٍ على الكفر، ووعيدٌ له بأنّه سيعذَّبُ في النارِ يومَ القيامة. . وكان استقرارُ هذا النبأ

في الدنيا ما حصل لأبي لهب بعد غزوةِ بدر، حيثُ ماتَ كافراً مهموماً حزيناً. وبذلك تحقّقَ له ما تنبَّأَ وجزمَ به القرآن، وله استقرارٌ آخر يومَ القيامة، حيث سيُدخلُ اللهُ أبا لهبٍ نارَ جهنم.

وبعدما جَزمت الآيةُ باستقرارِ أنباءِ القرآن، وتحقُّقِ وعودِه عملياً في المستقبل، هدَّدت المشركين الذين يُكَذِّبون بأنباءِ القرآن، ويَجعلونَ وقوعها مستحيلاً، فقالت لهم: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنتم تُكذّبون بأنباءِ القرآن، وتَجْزِمون أنّها لن تتحقّق، وتوقِنون أنكم ستغلبون المسلمين، وتنتصرون عليهم، أنتم في ذلك جاهلون، لا تَعلمون ولا تَشعرون، ولا تَعرفون ماذا سيكون في المستقبل.. ولكنكم عندما ترونَ استقرارَ أنباءِ القرآنِ وتحقُّقَ وعودِه، ستعلمونَ مقدارَ جهلِكُم وغبائِكم، ومقدارَ خسارتِكم وإحباطِكم!! ولكن هذا العلمَ لن ينفعَكم، لأنَّه سيكونُ بعدَ فواتِ الأوان.

ولقد عَلِمَ الكفارُ استقرارَ أنباءِ القرآن، عندما تحقّقت وعودُه في المعارك والغزواتِ بعد الهجرة، في بدرٍ وأُحد والأحزاب وحُنين.. وعَلِمَ الفرسُ والرومُ استقرارَ أنباءِ القرآنِ عندما انتشروا واستقرَّ الإسلامُ في المنطقة!.

وسيعلمُ اليهودُ والصليبيونَ استقرارَ أنباءِ القرآنِ وتحقّقَ وعودِه، عندما ينتصرُ الإسلامُ في المستقبلِ القريبِ إنْ شاءَ الله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الكفار موعودونَ بعذابِ الله:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٣ ـ ١٣٥].

هذه الآياتُ في سلسلةِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، والصراعِ بين رسولِ اللهِ ﷺ وبين المشركين في مكة.

يُخاطبُ اللهُ رسولَه ﷺ، ليزيدَهُ إيماناً ويقيناً بانتصارِه على أعدائِه، وأَمَلاً

بأنَّ المستقبلَ له ولدينِه، يقولُ اللهُ له: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ فهو غنيٌّ عن عبادِه جميعاً، لا تنفعُه طاعةُ المطيعين منهم، ولا يضرُّه كفرُ الكافرين منهم.. وهو معَ غِناهُ رحيمٌ بعبادِه، بعثَ لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنزلَ عليه القرآن، ودلَّهم على طريقِ الحق، وقَبِلَ منهم العبادةَ والعملَ الصالح، وتجاوَزَ عن ذنوبِهم وسيئاتِهم.

وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يُهددَ الكافرينَ بالعذاب، بأَنْ يقول لهم: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾.

أَيْ: اللهُ قويٌّ قادر، فعَّالٌ لما يريد، وأنتم لا تُعجزونَ الله، فإذا أرادَ إهلاكَكم واستخلافَ غيرِكم بعدَكم، فعلَ ذلك وأهلككم؛ لأنّه لا رادَّ لأمْرِه، ولا مُبطِلَ لإرادتِه.

وهو سبحانه قد فعلَ ذلك بالكفارِ المكذِّبين من قبلكم، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود وقومِ فرعون وغيرهم، حيث أَهلَكَهم واستخلفَ آخرينَ بعدهم، وأنتم أنفسُكم أنشأكم اللهُ من ذريةِ ونسلِ قومٍ آخرين من قبلكم، أَهلكهم وجعلكُم خلفاءَ مكانَهم.

وبمعنى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

كما أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ لهم مهدِّداً متوعِّداً: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

أَيْ: ما وعدَكُم اللهُ به من العذاب، سوفَ يأتيكم ويقعُ بكم ويُصيبُكم لا محالة، وأَنتم مهما ملكْتُم من القوةِ فإنكم لا تُعْجِزونَ الله، ولا تُعَطِّلونَ إرادتَه.

والذي وعدهم اللهُ به أمران:

الأمرُ الأول: فَشَلُهم في حربهم للحقِّ في الدنيا، وانتصارُ الحقِّ وامتدادُه وانتشارُه، ورسوخُه في حياةِ الناس. وقد تحقَّق هذا، حتى في أيامِ الرسولِ ﷺ، حيثُ حقّقَ انتصاراتٍ متواليةً على الكافرين.. كما تحقَّقَ بعد انتقالِه ﷺ للرفيقِ

الأعلى، وما زالَ يتحققُ حتى في أيامنا، رغمَ اشتدادِ حربِ اليهودِ والصليبيين ضدَّ الإسلامِ والمسلمين.

الأمرُ الثاني: بَعْثُهم يومَ القيامةِ، وحسابُهم على جرائمهم ضدَّ الحق، ثم تعذيبُهم في نارِ جهنَّم.

اعملوا على مكانتكم إني عامل:

وفي انتظارِ تحقّقِ ما وعدَهم اللهُ به في الدنيا، كان الرسولُ ﷺ حريصاً على العمل. ولذلك أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ للمشركين: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أَيْ: يا قوم! اعْمَلوا على طريقتكم وخطّتكم، واستمرّوا على نهجِكم وبرنامجكم، ونَفِّذوا ما تشاؤون من مخططاتكم، وحاربوني كما تشاؤون.

وأنا أيضاً عاملٌ على مكانتي، وأَتْباعي المؤمنون عاملونَ على مكانتهم، وسوفَ نستمرُّ في دعوتِنا وعبادتِنا، وسنواجِهُ عملَكُم وحربَكم بالمواجهةِ والتحدّي، والصبرِ والثبات، ولن نتوقّفَ عن عملِنا ودعوتِنا وعبادتِنا وتحدّينا وصبرِنا..

ونحنُ نوقنُ أنَّ المستقبلَ لنا، وسوفَ ينصرُنا اللهُ عليكم، وعندما تنهزمون أمامَنا في المواجهاتِ القادمة، سوف تعلمونَ مَنْ كانَ اللهُ معه، ومَنْ كان على الحقِّ، ومَنْ تكونُ له عاقبةُ الدار، ونتيجتُه النصرُ والغلبةُ والتمكين!.

وأنتم أيها الكافرون ظالمون، والظالمونَ دائماً خاسرون، لأنَّ سنّةَ اللهِ تقرّرُ أنَّه لا يمكنُ أنْ ينجحَ أو يفلحَ الظالمون!.

وما قالَه الرسولُ ﷺ نقولُه نحنُ لأعداءِ الإسلام، من اليهودِ والأمريكان وغيرِهم: اعملوا على برنامجكم وخطَّتِكم في حربِ الإسلامِ والمسلمين، ونحنُ نعملُ على مكانتِنا وطريقِنا، وسوفَ تفشلونَ في حربِكم، وسينصرُنا اللهُ عليكم، وسيجعلُ لنا عاقبةَ الدار، والتمكين للإسلام، وعندما يتحقّقُ ذلك في المستقبل بإذن الله، سوف تعلمون مقدارَ خسارتِكم وهزيمتِكم وحسرتِكم!!.

* * *

الفصل الثاني

الوعد القرآني في سورة الأعراف

سورةُ الأعراف مكية، نازلةٌ في الفترة الحرجة الشديدة نفسِها، التي مرَّتْ بها الدعوةُ الإسلاميةُ في مكة، والتي تحدَّثنا عن بعضِ ملامحِها في المبحث السابق، الذي عرضْنا فيه الوعدَ القرآنيَّ في سورةِ الأنعام، ولذلك كان من أهدافِ السورةِ تفنيدُ شبهاتِ ودعاوى المشركين، والانتصارُ للحق، وتعليمُ المؤمنين الحجة، وملءُ قلوبِهم بالأملِ واليقين بانتصارِ الإسلام وأهلِه، وهزيمةِ الكفرِ وأهله، وتقديم الوعدِ الجازمِ النافذِ بتحقيقِ ذلك.

وحقَّقَتِ السورةُ هذه الأهداف، عن طريقِ (استعراضِ) الموكبِ الإيمانيّ الكريم، الذي يقودُه الرسلُ الكرامُ عليهم الصلاةُ والسلام، في مواجهةِ الكافرين المكذّبين، حيث كان سياقُ السورةِ المتتابعُ يتوقّفُ في (محطّاتٍ) خاصة، للعبرةِ والعظة، يُبرزُ فيها نهايةَ كلِّ جولةٍ من جولاتِ الصراعِ بين الحقِّ والباطل، التي تحقَّقَتْ في انتصارِ الحق، ونجاةِ الرسلِ وأَتْباعِهم المؤمنين، وهزيمةِ الكفرِ وإهلاكِ الكافرين.

بدأ الاستعراضُ بقصةِ آدمَ عليه السلام ضدَّ إبليس، ومرَّ بقصةِ نوحٍ عليه السلام، ثم بقصةِ هود، ثم بقصة صالح، ثم بقصة لوط، ثم بقصة شعيب، عليهم الصلاة والسلام، وكانت الوقفةُ طويلةً أمامَ قصةِ موسى عليه السلام أمام فرعون، عرضت فيها لقطاتٍ منوَّعةً من قصةِ بني إسرائيل، وأَدانَتْهم لخروجِهم على شرعِ الله!.

ودلَّ الاستعراضُ الهادفُ على حقيقةٍ قرآنيةٍ إيمانية، هي: هزيمةُ الباطل، وإهلاكُ أَهلِه الكافرين، وفَشَلُهم في مواجهةِ الحق، وانتصارُ الحقِّ وأَهله، والتمكينُ لهم في الأرض.

وتُؤخَذُ هذه الحقيقةُ المقرّرةُ للوعد القرآني من آيات السورة التالية:

الحديث عن الآجال الثلاثة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

تتحدَّثُ الآيةُ عن أعمارِ الأُممِ وآجالِها، فإذا ما انتهى عمرُ أمةٍ وجاءَ أَجلُها، انتهتْ وزالتْ.

لقد جعلَ اللهُ الحكيمُ للمخلوقاتِ آجالاً ثلاثة:

أجل كل إنسان:

١ ـ **الأجلُ الخاصُّ بكلِّ إنسان:** حيثُ حدَّدَ اللهُ لكلِّ إنسانٍ عمره، وقدَّرَ له أجلَه، فإذا انتهى عمرُه ودنا أجلُه، قبضَه وأماتَه.

وقرَّرتْ هذه الحقيقةَ المتفقَ عليها، آياتٌ عديدةٌ من القرآن؛ منها قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وإذا دنا أَجَلُ إنسان، وأتاهُ مَلَكُ الموتِ لقبضِ روحه، وطلبَ التأخير، فإنَّه لا يُستجابُ له، لأنّه لا يُؤخَّرُ الأَجَل، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

أجل كل أمة:

٢ ـ **الأجل المتعلِّقُ بكلِّ أمـة:** فاللهُ هو الذي يوجدُ الأُمَّة، ويمكِّنُ لها في الأرض، ويُنعمُ عليها بالعديدِ من النعم، ويطالبُها بذكْرِه وشكْرِه، وهو سبحانه يحدّدُ لها عمرَها، ويقدِّرُ زمناً معيناً لقوَّتِها وسلطانِها، ونفوذِها ووجودِها..

فإذا جاءَ أجلُ الأُمة، أَوقعَ اللهُ بها أَمْرَه، وقضى عليها، وذلك إمَّا بتدميرِها وإهلاكِها، كما فعلَ مع الأقوامِ السابقين، كقومِ نوحٍ وعاد وثمود، وإمَّا بإضْعافِها وإزالةِ نفوذِها، وتقلُّصِ سلطانِها.

كما حصلَ مع الرومِ والفرسِ والهنودِ في الماضي، وكما حصلَ مع أُممٍ قويةٍ معاصرة؛ كالإسبانِ والطليان، والإنكليز والروس والألمان!.

وتحدَّثَ القرآنُ عن آجالِ الأُممِ المحدَّدَةِ في عدّة آيات، إضافةً إلى هذه الآيةِ من سورة الأعراف. منها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥].

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

أجل الحياة الدنيا:

٣ ـ الأجل المتعلّق بالدنيا: فاللهُ خلقَ الكونَ كلَّه، بما فيهِ من سماواتٍ وأرض، ونجومٍ وكواكب، وشمسٍ وقمر. وحدَّدَ لهذا الكونِ عمراً، وقضى له أجلاً، فإذا جاءَ هذا الأجلُ المسمّى المحدّد، أزالَ اللهُ هذا الكونَ، وأنهى الحياةَ الدنيا، وقضى على الشمسِ والقمرِ والأرضِ والنجوم، وبذلك تبدأُ الحياةُ الآخرةُ الدائمةُ الباقية.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرعد: ٢].

فالشمسُ والقمرُ يجريانِ ملايينَ السنين، دونَ توقّفٍ أو عطب أو تلف، لكنَّ اللهَ حَدَّدَ لهما أَجَلاً مسمى، إذا جاءَ أَفْناهما وقضى عليهما.

قال تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الأحقاف: ٣]. فالسماواتُ والأرضُ لهما أجلٌ مسمّى معيَّنٌ محدَّد، إذا جاءَ أفْناهما الله، وأزالَ الحياةَ الدنيا، وبدأت الحياةُ الآخرة.

تدافع الأمم وتعاقبها:

وحديثُ سورةِ الأعرافِ عن الأجلِ المحدَّدِ لكلِّ أمةٍ، يقدّمُ وعداً ناجزاً، بإزالةِ قوةِ وسلطانِ أُممٍ قوية، وإيجادِ أُممٍ أُخرى وارثةٍ لها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

وهذه الآيةُ تقررُ حقيقةً قرآنيةً تاريخية، حول (تعاقُبِ) الأُمم، وتدافُعِها

فيما بينها، وتداوُلِ الأيامِ والزمانِ بينها، فللأممِ أعمارٌ مثلُ الأفراد، فالإنسانُ يولَدُ صغيراً، ثم يكونُ فتًى فشاباً فكَهْلاً فشيْخاً، ثم عجوزاً هرماً، ثم يتوفّاهُ الله. . وهكذا الأمم: تنشأُ الأُمةُ وتتحرَّكُ بحركةٍ فتية، ويقوى سلطانُها، وتعلو كلمتُها، وتهابُها باقي الأمم، ثم تكبرُ وتشيخ، ثم تهرمُ وتعجز، ثم تنتهي من التأثيرِ والسلطة، وتتحوّلُ من القيادةِ إلى التبعية، فتذلُّ لأُمةٍ أخرى، وتعجزُ أمامها! وسبحان الباقي القويِّ الواحدِ القهّار.

لقد انتهتْ أُمةُ اليونان عندما جاءَ أجلُها، وانتهتْ أُمةُ الرومانِ عندما جاءَ أجلُها، وانتهتْ أُمةُ الفرسِ عندما جاءَ أجلُها، وورثها الإسلامُ الحيُّ المؤثّر. .

وانتهتْ في العصرِ الحديثِ أُممٌ كبرى عندما جاءَ أجلُها؛ كالفرنسيين والإنكليز، والروس والألمان واليابان. . وأمريكة الآن دولةٌ قوية، وأُمةٌ عظمى، تتحكَّمُ في العالم، ولكنَّها لنْ تكونَ مخلَّدة، فاللهُ حدَّدَ لها أجلاً، لا بدَّ أَنْ يأْتيها، فإذا حان أجلُها أنهاها الله، وأزالَها عن مركزِ السيطرةِ والهيمنة، وهذا وعدٌ نافذٌ عند الله. وسيرثُها الإسلامُ العظيم، الذي جعلَه اللهُ دينَ العالمين حتى قيامِ الساعة!.

موسى يعد أتباعه بالفرج والنصر:

ثانياً: قوله تعالي: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٩].

تتحدثُ هذه الآياتُ عن مشهدٍ من مشاهدِ قصةِ موسى عليه السلام مع فرعون، ليأخذَ المسلمونَ منها الدلالةَ والعبرة.

وكان حديثُ الآياتِ السابقةِ عن إيمانِ السحرةِ بموسى عليه السلام، ومفاجأةِ فرعونَ بذلك، وتهديدِهم بالقتلِ والصلبِ والهلاكِ والفناء.

أما هذه الآياتُ فإنَّها تتحدَّثُ عن تهييجِ الملأ لفرعون، ضدَّ موسى وأتْبَاعِه المؤمنين، وتحريضِه على قتْلِهم، وتوعُّدِ فرعونَ بقتْلِ أبنائِهم واستحياءِ نسائِهم.

وواجهَ موسى عليه السلام هذا الوعيدَ والتهديد، بدعوةِ أَتْباعِه إلى الإيمانِ بالله، والاستعانةِ به، والتوكلِ عليه، والصبرِ على كلِّ ما يلاقون من العذاب. .

ووعدَهم الفرجَ والخلاصَ والنجاة، فالأرضُ لله وليس لفرعون، واللهُ يزيلُ الطغاةَ الظالمين، ويورثُها عبادَه المؤمنين الصابرين.

ولكنَّ بني إسرائيل كانوا متوتِّرين نَزِقين، ضيِّقي الصُّدور، فلم يستجيبوا لوصيةِ موسى عليه السلام، ولم يأْخُذوا ما بَشَّرَهم به، وآذوه قائلين: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

موسى يشير إلى الوراثة بين الأمم:

ولكنَّ موسى عليه السلام لم يفقدْ هدوءَه وصبْرَه عليهم، وأعادَ لهم البُشرى بالفَرَج، والوعدَ بالخلاصِ والنصرِ والتمكين، وقال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

لقد لفتَ موسى عليه السلام أنظارَهم إلى سُنَّةٍ ربانية مطردة، هي سنةُ التداولِ والوراثةِ بين الأُمم، حيثُ يُنهي اللهُ الأُمَّة، عندما ينتهي عمرُها، ويحينُ أجلُها، ويأتي بأمةٍ جديدةٍ مكانَها، تخلُفُها في السلطة، وترثُها في الأرض.

ولقد طغى فرعونُ وظلم، فاستحقَّ الهلاكَ والعذابَ من الله، وبنو إسرائيلَ آمنوا، فاستحقّوا الاستخلافَ في الأرض. . وهذه سنّةُ الله!.

وتابعَتْ آياتُ السورةِ استعراضَ لقطاتٍ ومشاهد، مما جَرى بعدَ ذلك لموسى وأَتْباعِه مع فرعون: [١٣٠ ـ ١٣٥]. وكيف كان فرعون يَزيدُ تعذيبَه لهم، وينكثُ وعْدَه لموسى بالإيمان، والإفراج عن بني إسرائيل، ولا يُحسنُ فهمَ الآياتِ التي أَخذَ اللهُ بها قومَه، فاستحقَّ بذلك الهلاكَ والعذاب.

اللهُ يورث بني إسرائيل الأرض:

وانتهت المواجهةُ بين موسى عليه السلام وبين فرعون، النهايةَ المعروفَةَ، المتفقةَ مع سنّةِ الله، في إهلاكِ الظالمين، وإنجاءِ المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا

غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦ ـ ١٣٧].

انتقمَ اللهُ من فرعونَ وجنودِه، وأغرقَهم في اليمِّ، بسببِ طغيانِهم وظلمِهم، وتكذيبِهم بآياتِ الله، واستعبادِهم لعبادِ الله.

واستخلفَ بني إسرائيلَ في الأرض، وأَورثَهم مشارقَها ومغاربَها، وصاروا أصحابَ السلطانِ والتمكين، بعدما كانوا في الأرضِ مستضعَفين، وكان هذا مكافأةً لهم على صبرهم: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

وامتحنَ اللهُ بني إسرائيلَ بالاستخلافِ والوراثة، لينظرَ كيفَ يعملون. لكنَّهم لم ينجحوا في الامتحان، ولم يكونوا على قَدْرِ المسؤولية، وخالَفوا أَمْرَ الله.. فحقَّتْ عليهم سُنَّةُ الله، التي حقَّتْ على مَنْ كانَ قبلَهم!.

وعد المسلمين بوراثة الأرض:

وذكرَ اللهُ للمسلمين المستضعفين في مكة هذه المشاهد، ليقدِّمَ لهم البشرى بالفرَج، والأمَلَ بالخلاص، والوعدَ بالنصرِ والاستخلافِ والتمكين. فقد كان الصحابةُ في مكة يمرّونَ بمرحلةِ الاستضعاف، التي لا بدَّ من تجاوُزِها، بالاستعانةِ بالله، والصبرِ على البلاء، والتي ستقودُهم إلى مرحلةِ الاستخلافِ والتمكين، والانتصارِ على أعدائِهم الكافرين.

ولذلك تضمَّنَتْ هذه الآياتُ وعْداً ضِمْنياً غيرَ صريح، بنصرِهم واستخلافِهم، لأنَّهم أفضلُ وأكرمُ على الله من بني إسرائيل.. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ فيما بعد.

وعندما يقفُ المسلمون المستضعَفونَ المضطهدون، أمامَ هذه الآياتِ من قصةِ بني إسرائيل، يأخذونَ منها هذه الإشارةَ الواعدةَ بالفرَجِ والتمكين!.

* * *

الفَصل الثالث

الوعد القرآني في سورة يونس

سورةُ يونس مكية، أُنزلَتْ في الفترةِ الحرجةِ الشديدة نفسها، التي مرَّتْ بها الدعوةُ الإسلاميةُ في مكة، ولذلك هدَفَتْ إلى تسليةِ ومواساةِ الرسولِ ﷺ، على ما يجده من أذى قومِه، وإلى تقديم البشرى والأمل، للمسلمين المستضعفين، ورفْعِ هممِهم وعزائمِهم، ليوقِنوا يقيناً جازماً بأنَّ الأملَ لهم، والمستقبلَ لدينهم.

وتضمَّنتْ آياتُ السورةِ وعداً قرآنياً بالتمكينِ للمسلمين، ووعيداً وتهديداً بالهزيمةِ والخسارةِ للكافرين. ومن هذه الآياتِ الواعدةِ ما يلي:

سنّة الله في إهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين:

أولاً ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

تتحدَّثُ الآيتانِ عن السنَّةِ الربَّانيةِ في إهلاكِ الظالمين الكافرين المجرمين، والسنَّةِ الربَّانيةِ في استخلافِ الأُممِ وتوارثِها، وتداولِ الأيامِ بينها.

فاللهُ أَهلكَ الظالمين المجرمين السابقين، لأنهم كفروا بالحق، وكَذَّبوا الرسل، وظلموا الناس، واضطهدوا المؤمنينَ المستضعَفين.

واللهُ جعلَ الأجيالَ الجديدةَ خلائفَ في الأرض، من بعدِ تدميرِ وإهلاكِ الظالمين، وابتلاهم بالتمكين، لينظرَ كيفَ يَعملون. فإنْ آمَنوا واستقاموا، حافَظوا على الإنعامِ الربّاني، وأدامَ اللهُ عليهم التمكينَ والتأييد، وإنْ طغوا وأجرموا حقَّتْ عليهم سُنَّةُ الله، وأَهلكَهم كما أَهلكَ الظالمين من قبلِهم.

وهذا وعدٌ للمسلمين بالنصرِ والتمكين، ووعيدٌ لكفارِ قريشٍ بالإذلالِ والهزيمة.. وقد حقَّقَ اللهُ للمؤمنينَ الصابرينَ وعْدَه بالنصر، وأوقع بالكافرين وعيدَه وتهديدَه، بما حصلَ في الغزواتِ الجهاديةِ الإسلامية.

تحدّي الكفار بالقرآن:

ثانياً ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٧ـ٣٩].

تقررُ الآيةُ الأُولى أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ مفترى من دونِ الله، وهو مصدِّقٌ للكتبِ الربَّانية السابقة كالتوراة والإنجيل، وقد فَصَّلَ اللهُ فيهِ كلَّ شيء، وكلُّ ما فيه حقٌّ وصدقٌ وصواب.

وتُبطلُ الآيةُ الثانيةُ مزاعمَ الكفارِ ضدَّ القرآن، فهم يتَّهمون الرسولَ ﷺ بأنّه افترى القرآنَ واختلَقَه، ونسبَه إلى اللهِ افتراء..

ولذلك تحدَّتْهم الآيةُ بأنْ طلَبَتْ منهم الإتيانَ بسورةٍ هي مثلُ القرآنِ في فصاحتِه وبلاغتِه وأُسلوبِه، والاستعانةَ بمنْ يُريدون ويَستطيعون، فإن نجحوا في ذلك، وقدَّموا السورةَ المطلوبة، كانوا صادقين في كلامهم، وكان القرآن مفترى، وليس من عند الله، وإنْ عَجَزوا عن ذلك كانوا كاذبين في مزاعمِهم، وثبتَ أنَّ القرآنَ من عندِ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ.

تكذيب الكفار بوعود القرآن:

أما الآيةُ الثالثةُ فإنّها تتضمَّنُ تهديداً ووعيداً للكفارِ بالعقاب، ووعْداً مشرقاً للمؤمنين بالنصر.

تصفُ الآيةُ الكفارَ بالجهل، الذي دفعَهم إلى التكذيبِ بالقرآنِ جملةً وتفصيلاً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.. إنهم لم يُحيطوا علماً بالقرآن، ولا بمعانيه ومضامينه، فكيفَ كَذَّبوا بشيءٍ يجهلونَه؟.

ومن الحقائقِ القرآنيةِ التي لم يُحيطوا علماً بها فكذَّبوها، وعودُ القرآنِ بالنصرِ والتمكينِ للمسلمين، وبالخسارةِ والهزيمةِ للكافرين.. فقد سمعوا آياتٍ قطعَتْ تلكَ الوعود، فاستبْعَدوا تحقُّقَها، وأنْكَروا وقوعَها، وكَذَّبوا بها، وتساءلوا:

هل من الممكنِ أَنْ يتغلَّبَ عليهم المسلمون وهم مستَضْعَفون أمامَهم؟ لا يملكونَ قوةً ولا سلطاناً ولا أرضاً؟!.

وتردُّ الآيةُ على تكذيبِهم، واستبعادِهم تحققَ الوعودِ القرآنية، بقولِها: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾. وهذه الجملةُ وعيدٌ وتهديدٌ لهم، بقربِ وقوعِ العذابِ بهم!.

«لمَّا»: حرفُ إطماع، يدلُّ على قربِ تحقُّقِ وقوعِ ما بعدَها. وهي حرفُ جزم، يجزمُ الفعلَ المضارعَ بعدَه، و«يأتِهم»: مضارعٌ مجزوم، وعلامةُ جزمِه حذفُ حرف العلة، أَصلُه «يأتيهم». والضمير «هم» يعودُ على المشركين، وهو في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم، و«تأويلُه»: فاعل مؤخَّر، والضمير في «تأويله» يعودُ على القرآن.

فمعنى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾: لم يتمّ تأويلُ آياتِ القرآنِ الواعدةِ بانتصارِ المسلمين، وهزيمة الكافرين، ولذلك كَذَّبَ الكافرونَ بها.

معنيان للتأويلِ في القرآن:

ما معنى التأويل هنا؟.

التأويلُ بمعنى بيانِ العاقبةِ والمآل، أَو رَدِّ الشيءِ إلى غايتِه المرادةِ منه، وتحديدِ معناه الصحيح، أو مآله الدقيق.

والتأويلُ في القرآنِ له صورتان:

الأولى ـ صورة نظرية: تقومُ على إزالةِ اللبسِ والغموضِ عن الكلام، وذلك بحملِه على نصٍّ آخرَ صريح، واضحِ محكَم، وردِّه إليه. وهذا هو تأويلُ الآياتِ المتشابهاتِ القليلةِ في القرآن، وذلك بإزالةِ الاشتباهِ عنها، عن طريقِ حمْلِها على الآياتِ المحكماتِ الكثيرة في القرآن.

الثانية ـ صورة عملية مستقبلية: وذلك ببيانِ العاقبةِ والمآلِ للآية، فعندما تتحدَّث الآيةُ عن أمرٍ مستقبليٍّ قادم، يكونُ حديثُها وعداً نظرياً، وعندما يتحقَّقُ ذلك الوعدُ النظري، في صورةٍ عمليةٍ واقعيةٍ تطبيقية، يكون ذلك الوقوعُ تأويلاً لها، لأنه به يتحقّقُ مآلُها.

التأويل العملي للوعود القرآنية بالنصر:

الوعودُ القرآنية في السورِ المكيةِ بانتصارِ الحقّ وإزهاقِ الباطل، كانت وعوداً نظريةً مجرّدة، وهذه الوعودُ تحتاجُ إلى «تأويل»، أَيْ: تحتاجُ إلى إنجازٍ وتنفيذ، وتطبيقٍ على الأرض، فوقوعُها على الأرضِ تأويلٌ عمليٌّ لها.

إنَّ الوعدَ القرآنيَّ في قولِه تعالى في سورةِ القمر: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وعدٌ نظري، قطعهُ القرآنُ في مكة.. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ في غزوةِ بَدْر، فكانَ وقوعُه وتحقُّقُه «تأويلاً» له، ولذلك قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: «فعرفتُ تأويلَ الآيةِ يومئذ». وبذلك كان تأويلُ الآيةِ تحقُّقَ مضمونِها على الأرض.

إذن معنى قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾: لم تتحقَّقْ حتى الآن الوعودُ القرآنيةُ الواعدة، ولم يتمّ تأْويلُها العملي، ولذلك كَذَّبَ بها الكافرون.

واختيارُ حرفِ الإطماع «لمّا» مقصود، لأنَّه يدلُّ على قربِ مجيءِ ذلك التأويل، وقد أتاهم تأويلُ تلك الوعودِ القرآنية في غزوةِ بدر، وما بعدها.

والدليلُ على أنَّ هذا هو معنى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ قولُ الآيةِ بعدَ ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أَيْ: كما كَذَّبَ كفارُ مكة بما لم يحيطوا بعلْمِه من معاني القرآن، ووعودِه وأَخبارِه المستقبلية، كذلك كذَّبَ الكفارُ السابقون بما أَخبرَهم به رسلُهم.

فماذا فعلَ اللهُ بالكفارِ المكذِّبين السابقين؟ لقد أهلَكَهم ودمَّرَهم، وبذلك أَتـاهم تأويلُ الأَخبـارِ والوعودِ التي كَذَّبوا بها.. وبذلك كانتْ عاقبةُ الظالمين السابقين سيئة. فانظرْ كيفَ كانتْ عاقبتُهم، وخُذْ منها العبرة.

وهذا تهديدٌ للكفارِ المكذِّبين بالقرآن، بأنَّه سيأتيهم تأويلُ ما كَذَّبوا به، كما أتى التأويلُ مَنْ سبقَهم من المكذِّبين.

وهذا وعْدٌ للمؤمنين المستَضْعَفين في مكة بالنصرِ والتمكين، لأنَّ تأويلَ آياتِ الوعيدِ والتهديدِ للكفار، معناه انتصارُ المسلمين عليهم.. وهذا ما حصلَ في الغزواتِ بعدَ الهجرة، التي انتهتْ بفتْحِ مكة.

انتظارُ الكفارِ العذابَ:

ثالثاً ـ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢ ـ ١٠٣].

في هاتَيْن الآيتَيْن وعيدٌ آخر للكافرين بالعذاب، في مقابلِ وعْـدٍ جديـدٍ للمؤمنين بالنجاة والفرَج.

ماذا ينتظرُ الكفارُ المكذّبون؟ وماذا يتوقّعون أَنْ يحصلَ لهم؟ وهم يعذِّبون المؤمنين، ويكذِّبونَ الرسولَ ﷺ، ويُحاربونَ الإسلام!.

لن يحصلَ لهم إلاَّ مثْلُ الذي حصلَ للكفار المكذِّبين المحاربين من قبلِهم، كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وفرعون، لأنَّ هذه سُنَّةُ الله التي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّل: كلُّ مَنْ حاربَ الحقَّ فهو مهزومٌ لا محالة، وتنتظرُه في النهايةِ عاقبةٌ سيئةٌ مظلمة. فكفارُ قريشٍ يسيرون نحو هذه العاقبة، التي وصَلَها الذين من قبلِهم!.

ولذلكَ أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ لهم: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

أَيْ: انْتَظروا أَنْ تَرَوْا أياماً سوداءَ قاسية، مثلَ أيامِ الكفارِ الذين من قبلِكم، وانْتَظِروا وقوعَ العذابِ بكم، فإنّه آتيكُم لا محالة، وانْتَظِروا انتصارَ المسلمين عليكم، وانْتَظِروا إذلالَكم وهَزيمتكم.

وأنا معكم من المنتظرين، أنتظرُ تحققَ هذا كلِّه، تحقُّقَ الجانبِ السلبيِّ عليكم، وتحققَ الجانبِ الإيجابيّ لي ولأَتْباعي..

انتظارُ المؤمنين النصرَ والنجاة:

وقد ذكرت الآيةُ التاليةُ ماذا ينتظرُ المؤمنون، وماذا يأمَلون من الخيرِ عندَ الله، حيثُ بَشَّرَ اللهُ المؤمنين بالنجاةِ والخلاصِ والأَمانِ والفوز: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا واضحٌ في القصصِ القرآنيّ، الذي كان يحدّدُ هذه النهايةَ لقصةِ كلِّ نبيٍّ مع قومـه، من نـوحٍ إلى هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وغيرهم، عليهم الصلاة

والسلام، فاللهُ كان يُنهي المواجهةَ بين الرسولِ وقومِه، بإهلاكِ الكفارِ المعادين، وإنجاءِ الرسولِ وأتْباعِه. فهذه سُنَّةُ اللهِ التي لا تتخلف.

وقطعَ اللهُ وعْداً جازماً بإنجاءِ المؤمنين، على اختلافِ الزمانِ والمكان: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

اللهُ لا يُخلفُ الميعاد، ووعْدُه ناجزٌ نافِذ، فإنجاءُ المؤمنين عند إهلاك الكافرين أمْرٌ قَدَّرَه الله، وأنفذَه وأمضاه، وتفضَّلَ على المؤمنين بإخبارِهم أنّه حقٌّ عليه، وجعلَه اللهُ حقاً عليه تكرُّماً منه وفضلاً سبحانه.

وتحقَّقَ ما في الآيتيْن من وعيدٍ وتهديدٍ للكافرين، ووعْدٍ مشرقٍ للمؤمنين، وذلك في الغزوات الإسلامية بعد الهجرة.

وبذلك تحقَّقَ ما كان ينتظرُه رسولُ الله ﷺ من خيرٍ له وشَرٍّ لأعدائه: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

بهذا اليقينِ الجازمِ بتحقُّقِ وعْدِ الله، وانتظارِ تأويلِه في عالم الواقع، يتعاملُ المسلمون المجاهدون المعاصرون مع أعدائِهم من اليهودِ والأمريكان وغيرهم!

الاتباع والصبر حتى يتحقق الوعد:

رابعاً ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٨ ـ ١٠٩].

هاتان الآيتان خاتمةُ سورةِ يونس المكية، التي تُريدُ تثبيتَ المؤمنين على الحق، وملءَ قلوبِهم بالأملِ واليقين، وتقديمَ الوعودِ الصادقةِ لهم بالنصرِ والتمكين.

يأمُرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يُبلغَ دعوتَه للناسِ جميعاً، وأَنْ يُقيمَ عليهم الحُجّة، ويقولَ لهم: أنا رسولُ الله إليكم جميعاً، وقد قدَّمْتُ لكم الحق، وأقمْتُ عليه الأدلّةَ والبراهين، وبذلك انتهتْ مهمتي عندكم، والخطوةُ التاليةُ عليكم، فإذا قبلْتُم الهدى وآمنْتُم؛ أفلحْتُم وفُزتُم، وإنْ رفضْتُموه كنتم الخاسرين، وأنا لستُ وكيلاً عليكم، ولا يجبُ عَليَّ قذفُ الإيمانِ في قلوبِكم!.

ماذا يفعلُ رسولُ اللهِ ﷺ بعدَ التبليغِ والبيانِ وإقامةِ الحجّة؟ ماذا يفعلُ وهو ينتظرُ تحقُّقَ موعودِ الله؟ .

كانَ ينتظرُ تحققَ موعودِ الله، عندما قال لهم: ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ وهو في فترةِ الانتظارِ ينفِّذُ ويطبّقُ قولَ الله له: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

لقد أَمَرَهُ اللهُ بأمرين:

الأول: اتِّباعُ شرعِ الله: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾. وذلك بتنفيذِ الأوامرِ والتوجيهات، التي أنزلَها اللهُ في القرآن، والمتعلّقةُ بالشعائرِ التعبّدية، والمشاعرِ الأخلاقية، والحركةِ الدعوية، ومواجهةِ الأعداء، والصمودِ أمامَهم.

الثاني: الصبر ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ وهو صبرٌ عامٌّ شاملٌ مطلق، يقدِّمُ زاداً للمؤمنين، يثبتُهم على الحقِّ، ويدفعُهم إلى تجاوزِ مرحلةِ انتظارِ النصرِ بعزيمةٍ وهمةٍ وأملٍ ويقين.

وسوفَ يَحكمُ اللهُ بين المؤمنين والكافرين، ويُنهي المواجهةَ بينهم، ويُحققُ وعدَه للمؤمنين، ويوقعُ وعيدَه للكافرين، وهو سبحانه خيرُ الحاكمين.

زادُنا ونحنُ ننتظرُ تحقيقَ وعودِ اللهِ لنا بالنصرِ، تنفيذُ الأمْرَيْن المذكورَيْن في الآية: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ﴾ . . الاتّباعُ الجادُّ الصادقُ لشرعِ الله، والصبرُ الجميل، والانتظارُ الإيجابي، المقرونُ بالبشرى والأمل، والجهدِ والعمل.

* * *

الفصل الرابع

الوعد القرآني في سورة هود

سـورةُ هود مكيـة، وأُنزِلَتْ في الفترةِ الحرجـةِ نفسها، التي تحدَّثْنا عن ملامِحِها من قبل، وهدفَتْ إلى ما هدفَتْ إليه سـورةُ يونس، والسـورُ الأُخرى النازلةُ في تلك الفترة، مع تميُّزِ كلِّ سورةٍ بشخصيةٍ خاصة، ذاتِ ملامحَ خاصة، وطريقةٍ خاصةٍ في عَرْضِ موضوعاتِها، وتقريرِ حقائقِها.

وقامَتْ سورةُ هود بتثبيتِ النبيِّ ﷺ والمؤمنين على الحق، وملء قلوبِهم باليقينِ والأمل، بانتصارِ الإسلام، وهزيمةِ الكفر، من خلالِ استعراضِ قصصِ الرسلِ مع أقوامِهم، وهم: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم الصلاة والسلام. وكان ترتيبُ ذِكْرِ الرسلِ وفقَ التسلسل التاريخي.

والمذكورُ من قصةِ كلِّ رسولٍ من هؤلاء مع قومِه هو قيامُ الرسولِ بتبليغِ الدعوةِ لقومِه، وذكْرُ موقفِهم من دعوتِه، ثم استعراضُ بعضِ ما جرى من حوارٍ ونقاشٍ بينَه وبينهم، وتحدّيه لهم، وإصرارُهم على الكفرِ والتكذيبِ والعداء، ثم ذكْرُ خاتمةِ قصتِه معهم، بإنجاءِ الرسولِ وأتباعِه المؤمنين، وإهلاكِ أعدائِه المكذّبين.

والهدفُ من هذا الاستعراض، والتركيزِ على هذه المشاهدِ من قصةِ كلِّ رسول، هو تثبيتُ المؤمنين على الحق، وتقويةُ هممِهم وعزائمِهم على المواجهة والتحدّي، ولفْتُ أنظارِهم إلى سُنّةِ الله في الدعوات، واستشرافُهم الأَمَلَ الكبير، ونظرتُهم نحو المستقبلِ المأمول، بالتمكينِ لهم، والهزيمةِ لأعدائِهم!.

وقد جاءتْ آياتُ التثبيتِ والتوجيهِ والوعد، في ذكْرِ ما جرى بين الرسلِ وأَقْوامهم، أو فـي التعقيـبِ على إنهاءِ المواجهـةِ بين الفريقَيْن. . ومن أشـهرِها ما يلي:

العاقبة للمتقين:

أولاً: في التعقيبِ على قصةِ نوحٍ عليه السلام مع قومه، التي انتهت بإغراقِ الكافرين بالطوفان، وإنجاءِ نوحٍ وأتباعه المؤمنين في السفينة، ثم إنزالِهم إلى الأرض بعد الطوفان، لاستئنافِ الحياةِ من جديد.

جاءَ التعقيبُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

يقولُ اللهُ لرسولِه محمد ﷺ: ما ذكرناه لك من قصةِ نوحٍ من أنباءِ الغيب، أوحيناها إليك، ولم تكنْ تعلمُها أنتَ من قبل، كما أنّ قومَك لم يكونوا يعلمونَها، وورودُ هذه الأنباءِ في القرآنِ دليلٌ على أنَّ هذا القرآنَ ليس من تأليفِ مخلوق، إنما هو وحيٌ منّا إليك.

وأمرَ اللهُ رسولَه ﷺ بالصبر، بمعناه العامّ الشامل، لأنَّ الصبرَ زادٌ ضروري، في مرحلةِ انتظارِ النصر.

وقررَت الآيةُ سنّةً ربّانيةً مطردة: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. أي: نهايةُ المواجهةِ بين جندِ الحقِّ وأصحابِ الباطلِ هي في إنجاءِ المتقين، وإهلاكِ الكافرين، فالعاقبةُ دائماً للمتقين، يمنُّ اللهُ عليهم بالفرَج والنجاةِ والنصرِ والتمكين، وعليهم أنْ يستشرفوا المستقبلَ بيقين، وينظروا للعاقبةِ بثقةٍ وأمل، وينتظروا تحقيقَ ما وعدَهم اللهُ به!.

سنّة الله في الاستخلاف:

ثانياً: عرضت آياتُ السورةِ بعضَ ما جرى بين هودٍ عليه السلام وبين قومِه، وسجّلَتْ بعضَ ما قالَه هودٌ عليه السلام لهم، ومنه انتظارُه إهلاكَهم واستخلافَ آخرين مكانَهم. وذلكَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧].

أي: الواجبُ عليَّ تبليغُكم الدعوة، وإقامَةُ الحجّةِ عليكم، وقد فعلْتُ ذلك، فإنْ رفضْتُم دعوتي، وتولَّيْتُم وأَعرضْتُم، وأصررتُم على الكفرِ والتكذيبِ والعداء، فأَنتم الخاسرون، وبذلك تجنون على أنفسِكم، فاللهُ سيدمّرُكم

ويهلكُكم، كما فعلَ بقومِ نوحٍ من قبلكم، وأنتم لا تُعجزونَ الله، ولا تضرّونَه شيئاً بكفركم..

وسيستخلفُ اللهُ قوماً غيرَكم، يرثونكم، ويأْتونَ مكانَكم، فهذه سنّةُ اللهِ التي لا تتخلَّف.

وقد حقَّقَ اللهُ سنَّتَه، فأَنجى هوداً والذينَ معه، وأهلكَ قومَه الكافرين. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٨ ـ ٦٠].

العمل المتواصل وارتقاب الموعود:

ثالثاً: ذكرت آياتُ السورةِ بعضَ ما جرى من كلامٍ وحوارٍ بين شعيبٍ عليه السلام وبين قومِه مدين. ومن ذلك صبْرُ شعيبٍ عليهم وتحدّيه لهم. قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣].

معنى: ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾: على طريقتِكم وخطَّتِكم وبرنامجكم.

بعدما بلَّغَ شعيبٌ عليه السلام قومَه الدعوةَ، اتضحَ لهم طريقان: طريقُ الحقّ وطريقُ الباطل. الحقّ الذي يمثّلُه شعيبٌ عليه السلام، وأَتْباعُه المؤمنون، والباطلُ الذي يمثّله الملأُ من قومِه، وأَتْباعُهم الكافرون.

ولكلِّ فريقٍ منهما مكانةٌ وطريقةٌ وبرنامجٌ عملي: برنامجٌ عمليٌّ إيجابي، يقومُ على العبادةِ والدعوةِ والعملِ الصالح، يقومُ به شعيبٌ عليه السلام وأَتباعُه المؤمنون. وبرنامجٌ عمليٌّ سلبيٌّ خبيث، يقومُ على الكفرِ والبغيِ والظلمِ والطغيان، ونشْرِ الفسادِ والإفسادِ بين الناس، ومحاربةِ الحقّ وأَهلِه.. وشتّانَ بين العمَلَيْن والبرنامَجَيْن.

ولذلك تحدَّى شعيبٌ عليه السلام قومَه بقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾.

أيْ: كلٌّ منّا يعمل، وفقَ خطتِه، وكلٌّ منّا يسعى في إبطالِ عملِ الآخر، فأنتم عاملون على هزيمتي والقضاء على دعوتي، وأنا عاملٌ على نشرِ دعوتي، وعلى إزهاقِ باطلِكم، والقضاءِ على سلطانكم، فاعْمَلوا، وأنا أعمل!.

والمستقبلُ لنا وليس لكم، إننا ننتظرُ ما وَعَدَنا اللهُ به من النجاةِ والنصر، وننتظرُ ما توعَّدَكُم اللهُ به من العذاب، ونحنُ نوقنُ أنَّ هذا آتٍ لا محالة، وعندما يحلُّ ذلك بكم ستعلمون: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾.

واستمرَّ شعيبٌ عليه السلام في تحدّيهم، فقال: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. أي: ارتقبوا نهايةَ الصراعِ بيني وبينكم، ووقوعَ العذابِ بكم، فأنا رقيبٌ أرقبُ ذلك، فالزمنُ جزءٌ من العلاج.

ولما شاءَ اللهُ إنهاءَ قصةِ شعيبٍ عليه السلام مع قومه، حقّقَ الوعدَ والوعيد. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥].

سنة الله في أخذ الظالمين:

رابعاً: بعدَ استعراضِ مصارعِ المكذِّبين السابقين، من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ ومدين وقوم فرعون، جاءَ التعقيبُ على ذلك بأخذِ العبرة. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٣].

تلخصُ هذه الآياتُ ما جرى بين جندِ الحقّ وجندِ الباطل، على مدارِ التاريخِ البشري، منذ نوحٍ حتى محمد عليهما الصلاة والسلام، وتُبرزُ إهلاكَ الظالمين الكافرين، وتَدعو إلى ملاحظةِ آثارهم، فها هي المدنُ والقُرى التي كانوا فيها باقية، منها ما هو قائمٌ في أطلالِه، ومنها ما هو حصيدٌ مدمَّر، وأهلُها الكافرون هم الذين

ظلموا أنفسَهم بكفرِهم وطغيانِهم، وعَجَزوا عن دفعِ عذابِ اللهِ لما وقعَ بهم.

وهذه سُنَّةُ اللهِ في أَخْذِ الكافرين المعادين للحق، على اختلافِ الزمانِ والمكان، واللهُ منتقمٌ جبار، وأَخْذُه للأعداءِ أليمٌ شديد، يَقْصِمُهم قصماً، ويجعلُهم عبرةً لمن يَعتبر.

ولكنْ لا يعتبرُ من ذلك إلاّ المؤمنون الصالحون، الذينَ يخافونَ عذابَ الآخرة، ويتمتَّعون ببصائرَ إيمانيةٍ هادية. أما الآخرون فإنّه مطبوعٌ على قلوبِهم، مطموسٌ على أبصارهم، لا يَعتبرون ولا يَتَّعظون!!.

وهذا التعقيبُ المقصودُ الهادفُ يقدمُ للمؤمنين البشرى بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، ويَدعوهم إلى انتظارِ موعودِ الله لهم، واستشرافِ المستقبلِ المشرق، وإسراعِ السيرِ إليه بثباتٍ ويقين.

ويستفيدُ من هذا التعقيبِ المسلمون الصادقون، على اختلافِ الزمانِ والمكان، لأنّهم يعيشونَ فترةَ انطباقِ السنّةِ الربّانية على أعدائِهم الذين يحاربونهم، ويفرحون بانطباقِ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ على أُولئك الأعداء!.

أثر الوعد في تثبيت قلوب المؤمنين:

خامساً: ختمتْ سورةُ هودٍ بذكرِ الهدفِ من ذكْرِ أنباءِ الرسلِ فيها، وأثَرِ ذلك على الرسولِ ﷺ والمؤمنين، وتحدّي الأعْداءِ، وتهديدِهم بالهزيمة، ووعْدِ المؤمنين بالفرجِ والنصر، ودعوتِهم لانتظاره. قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٠ ـ ١٢٣].

من فوائدِ ذكْرِ قصصِ الأنبياءِ في القرآن، تثبيتُ فؤادِ النبيِّ ﷺ وقلوبِ المؤمنين، لأنَّ هذا القَصَصَ معرضٌ لتطبيق سُنَنِ اللهِ على الواقع، ولأنَّ نهاياتِ القصص تدميرُ الكافرين ونجاةُ المؤمنين، وفي هذا بشرى وأملٌ للمؤمنين، تطمئنُّ به قلوبُهم.

وأَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يتحدّى الكافرين قائلاً لهم: ﴿ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾.

أي: اعْمَلـوا على طريقتِكم وبرنامجِكم، وابْذُلوا جهدَكم وطاقتكم في حربي وإِبطالِ دعوتي، ونحنُ المؤمنون عاملون على مكانتِنا وطريقتِنا وبرنامجِنا، في الثباتِ على الحق، والوقـوفِ أمامكم، وإِبطالِ مكائدِكم، ونشـرِ الدعـوة بينكم.. أنتم تعملون أقصى ما في وسعكم ونحن نعملُ أقصى ما في طاقتِنا.. والأيامُ بيننا، والمستقبلُ لنا، والزمنُ في صالحِنا، لأنَّ اللهَ معَنا، وسيهزمُكم وينصُرُنا عليكم.

وانتظروا ما سيحلُّ بكم في المستقبل، فنحنُ منتظرون تحقيقَ ما وعَدَنا اللهُ به، من الغلبةِ عليكم، ونحنُ موقنون بحصولِ ذلك، لأنّه وعْدُ الله، واللهُ منجزٌ وعْدَه، لا يُخلفُ الميعاد.

وكان الزمنُ في صالحِ الرسولِ ﷺ وأَتْباعِه المؤمنين، فما هي إلا سنواتٌ معدودات، حتى كانت الهجرةُ إلى المدينة، وما هي إلا فترةٌ قصيرة، حتى بدأت المعاركُ مع المشركين، وانتهتْ بانتصارِ المسلمين، والتمكينِ لهم، وهزيمةِ الكافرين، وإِذلالِهم وخسارتِهم.

وعلى المسلمين الصادقين المعاصرين، الذين يُلاقونَ الحربَ والعداوةَ من اليهودِ والأمريكان أَنْ يقولوا لهم ما قالَه الرسولُ ﷺ لكفارِ عصره: ﴿ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾.

* * *

الفَصل الخامِس

الوعد القرآني في سورة يوسف

سورةُ يوسف مكيةٌ أيضاً، وأُنزلتْ في الفترةِ المكية نفسِها التي تحدَّثْنا عنها فيما سبق.

ولسورةِ يوسفَ طريقةٌ خاصةٌ متميزة، في تثبيتِ قلوبِ المؤمنين، وغرسِ الأملِ واليقينِ فيها، بتحقّقِ ما وعدَ اللهُ به.. فالسورةُ كلُّها تقومُ على قصّةٍ واحدة، بدأتْ بالوعد، وانتهتْ بتحقُّقِه في أرضِ الواقع، وتخلّلَتْ آياتِ السورةِ إشاراتٌ عديدة، للتأكيدِ على الحقائقِ القاطعة فيها.

بدأت السورةُ بذكْرِ رؤيا، رآها الطفلُ الصغير، رؤيا واعدة بتحققِ شيءٍ له في المستقبل، ولما قصَّ الطفلُ الرؤيا على أبيه بشَّرَهُ بالخير، وجرت للطفلِ أحداثٌ متتابعةٌ مفاجئة، استمرَّتْ سنواتٍ عديدة، وانتهت الأحداثُ بتأويلٍ عمليٍّ لتلك الرؤيا، وتحقيقِ ما وعدَه اللهُ به. وفيما يلي إشارةٌ إلى بعضِ تعقيباتِ السورةِ على أحداثِ القصة.

رؤيا يوسف وهو صغير:

أولاً: رأى يوسفُ سجودَ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له، وقصَّ هذه الرؤيـا على أبيه النبيِّ يعقوب عليه السلام، فاستبشرَ الأبُ بها خيراً، واعتبرَها بشرى من اللهِ لابنِه بمستقبلٍ مشرق، وأخبرَ ابْنَه بذلك ليستشرفَه ويسعى إليه. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

اعتبرَ الأبُ هذه الرؤيا وعْداً من الله، بالمستقبلِ العظيمِ لابنه، وألقى هذا الوعْدَ لابنه، الذي استقرَّ في داخلِه، والأبُ والابنُ يوقنَان بتحققِ وعدِ الله، لأنّهما يؤمنانِ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وعد الله ليوسف:

ثانياً: بدأت الأحداثُ بدايةً مثيرة، لم يتوقّعْها الطفلُ الصغير، حيثُ فوجئ بحقْدِ إخوتِه عليه، إذْ أَلقوه في غيابةِ الجُبّ، وبينما كان الطفلُ يعيشُ دهشةَ تآمرهم عليه، أوحى اللهُ له بأنه سينجو من هذه المحنة، ويخرجُ منها سالماً، وسيأتي يومٌ يُذَكِّرُ فيه إخوانَه بجريمتِهم ضدَّه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

التمكين الصغير ليوسف في بيت العزيز:

ثالثاً: أخرجَ اللهُ يوسفَ من محنةِ غيابةِ الجُبِّ سالماً، وقَدَّرَ أَنْ يُباعَ عبداً في مصر، وأَنْ يشتريَه عزيزُ مصر، الرجلُ الثاني فيها بعد الملك، وهذا تمهيدٌ للأحداثِ التي سيمرُّ بها يوسف، والتي ستقودُ إلى تأويلِ رؤياه، وتحقيقِ ما وعدَهُ اللهُ به.

وقد علّقَت الآياتُ على استقرار يوسفَ عبداً رقيقاً في بيتِ العزيز. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢١ ـ ٢٢].

مكّنَ اللهُ ليوسفَ في الأَرض، وهيّأَ له الإقامةَ في بيتِ العزيز، حيثُ أكرمَه الأخير، وأوصى به امرأتَه خيراً، وفعلَ اللهُ ذلك به، ليعَلِّمَه من تأويلِ الأحاديث، وتعبيرِ الرؤى، وهذا كلُّه تهيئةٌ للأحداثِ الأخيرةِ في حياتِه، التي يتحقَّقُ فيها وعْدُ اللهِ له.

واللهُ غالبٌ على أمْرِه، يفعلُ ما يشاء، ويوجدُ ما يُريد، ويُقدرُ الأَحداث، ويُرتبُ الأُمور، لتحقيقِ أمرِه، وإنفاذِ وعْدِه، ولا يُعجزُه شيء، ولا يقفُ أمامه مخلوق. ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ هذه الحقائقَ الإيمانية.

التمكين الكبير ليوسف على خزائن الأرض:

رابعاً: تعرَّض يوسفُ في بيتِ العزيزِ لفتنةِ امرأتِه الطاغية، التي طمعَتْ فيه

واشتهَتْه، وراودَتْه عن نفسِه، ولكنَّه استعصمَ بالله، واستعلى على فتنتِها، فأُدخِلَ السجنَ ظُلْماً، ولبثَ فيه بضعَ سنين، وعلَّمَهُ اللهُ فيه تأويل الرؤيا، وأوَّلَ لصاحبَيْه السجينيْن رؤيا كلٍّ منهما، ثم أوَّلَ الرؤيا المثيرةَ للملك، الذي أُعجبَ به، وأمَرَ بإخراجِه من السجن، والإتيانِ به إليه، وعندما اطمأنَّ إليه الملكُ، جعله (عزيزاً) لمصر، وسلَّمه خزائنَ الأرض. وبذلك صارَ يوسفُ الرجلَ الثاني بعد الملك. .

وقد عَلقت الآياتُ على ترتيبِ الأحداثِ بتقديرِ الله، لتوصِلَ يوسفَ عليه السلام إلى ما وصلَ إليه بتقديرِ الحكيم الخبير. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٥ ـ ٥٧].

هذا هو التمكينُ الثاني الكبير، الذي مكَّنَه اللهُ ليوسف، وقد كانَ التمكينُ الأوَّلُ صغيراً، حيث هيَّأَ له الإقامةَ في بيتِ العزيز، أمَّا في هذا التمكينِ فقد جعلَه اللهُ على خزائن الأرض.

وهذا التمكينُ تحقيقٌ لما استشرَفَه له أبوه من مستقبلٍ واعدٍ مشرق.

وبقي تحقيقُ وعدِ اللهِ له بلقاءِ إخوته، وتأويلِ رؤياه حول سجودِ الكواكب له.

يوسف يواجه إخوانه وتحقيق وعد الله له:

خامساً: ساقَ اللهُ له إخوتَه العشرة، الذينَ أَلقوه في غيابةِ الجُب، وتعاملوا معه على أنَّه عزيزُ مصر، ولا يوجَدُ عند أيِّ واحدٍ منهم احتمالُ أَنْ يكونَ هذا العزيزُ هو أخاهم الصغير. قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

وتتابعت الأحداثُ بينه وبينهم، حيث طلبَ إحضارَ أخيه الصغير، وأَخَذَ أخاه بعد أن اتَّهمه فتيانه بسرقةِ صُواعِ الملك، وعادَ الإخوةُ إلى أبيهم بهمٍّ وحزن، وطلبَ منهم أبوهم أنْ يَعودوا إلى مصر، وأنْ يتحسَّسوا من يوسفَ وأخيه، ودخلوا عليه متْعَبين، فَرَقَّ لهم، وذكَّرَهم بما فعلوه به وهو صغير، وتعرَّفوا عليه، وعفا عنهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٨٩ ـ ٩٠].

وعَدَهُ اللهُ وهو صغيرٌ ملقى في غيابةِ الجُب، أَنْ يُخبرهم في المستقبلِ بجريمتِهم معه: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

والآنَ وبعدَ سنواتٍ عديدة، لا يعلمُ مقدارَها إلاّ الله، وبعدما صارَ الطفلُ رجلاً كبيراً واعياً ناضجاً، يستلمُ المركزَ الثاني في حكم مصر، حققَ اللهُ له وعْدَه السابق، في الوقتِ الذي حدَّدَه الله، والذي رَتَّبَ الأَحداثَ التي توصلُ إليه، وها هو ينبئُهم بأَمرهم السابق، وهم لا يَشعرون، ولا يتوقَّعون أَنْ يكونَ عزيزُ مصر، الجالسُ أمامَهم الآن، هو أخاهم الصغير، الذي أَلقوهُ في غيابةِ الجُبّ، قبلَ سنين وسنين!!. وسبحانَ اللهِ، الغالبِ على أمرِه، الصادقِ لوعدِه، المنفذِ لإرادتِه.

الله يحقق ليوسف الرؤيا:

سادساً: بعدما تعرَّفَ الإخوةُ على يوسف، أعطاهم قميصَه بشارةً لأبيه، وأمرهم أنْ يأْتوا بأَهْلِهم أجمعين.. ولما دخلوا جميعاً عليه، خَرُّوا له سُجَّداً؛ الأَحَدَ عشرَ أخاً وأبواه.. وبذلك تمَّ تأويلُ رؤياه، التي رآها قبلَ سنين عديدة، لا يعلمُ مقدارَها إلاّ الله.

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

لقد كانت الرؤيا التي رآها وهو طفلٌ صغيرٌ وعداً وبشرى من اللهِ له، وبقيَ الوعدُ معلَّقاً سنين عديدة، ومَرَّ يوسفُ الموعودُ بتجاربَ مثيرة، وأحداث عديدة، قَدَّرَها اللهُ له، وساقَ خُطاهُ فيها، ورتَّبَ له الأُمور، وهيَّأَ له الأسباب، وأخذَ بيدِه حتى المشهد الأخير، مشهدِ تأويل الرؤيا عملياً، ودخولِ أهلِه عليه، وسجودِهم أمامه.. وبذلك صَدَقَ اللهُ له وعْدَه، وهو سبحانه لا يُخلفُ الميعاد.

ثقة يعقوب بتحقيق وعد الله:

سابعاً: كان أبوه النبيُّ يعقوبُ عليه السلام، يؤمنُ أنَّ اللهَ سينجزُ ليوسفَ ما وعد، من خلالِ الرؤيا التي أراهُ إيّاها، لأنّه يوقنُ أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد، وكان يؤكِّدُ أنَّ يوسف آمِنٌ في مكانٍ خاصّ، تُحيطُ به عنايةُ اللهِ ورعايتُه، لكنّه لا يعلمُ تفاصيل ما جرى له، ولا يقدرُ على تحديدِ مكانِه ووصْفِه وتفاصيلِ حياتِه. . لا يعلم ذلك لأنَّ هذا من الغيب، والنبيُّ لا يعلمُ من الغيبِ إلاّ ما علّمَه اللهُ إيّاه، وشاءَ اللهُ الحكيمُ العليم أَنْ لا يُخبرَه عن تفاصيلِ ذلك.

صحيحٌ أنَّ يعقوبَ عليه السلام حزنَ لفراقِ يوسف، وتألَّمَ مما جرى له، وشكَا بَثَّهُ وحزْنَه وأَلَمَهُ إلى الله، وأثّرَ حُزْنُه وألَمُه وكَظْمُ مصابه على عينَيْه. . لكنَّه لم يفارِقْهُ أملُه ويقينُه، وجزمُه أنَّ ابنَه يوسفَ محفوظٌ بحفظِ الله، آمنٌ برعايةِ الله، لأنَّ اللهَ وعدَه بذلك، واللهُ منجزٌ له ما وعد.

ولذلك لما فقد أبناءَه الثلاثة كلَّفَ بقيةَ أولادِه البحثَ عنهم في مصر، مع يقينه أنهم سيجدونهم. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

النصر بعد الاستيئاس:

ثامناً: كانت الآياتُ الأخيرةُ من سورةِ يوسفَ تعقيباً على القصة، وتأكيداً على بعضِ عِبَرِها ودلالاتِها.

ومن تلك الآيات قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١٠].

تُخبرُ الآيةُ الأُولى عن جنسِ الرسل، وأنّ اللهَ اختارَهم رجالاً، فلم يجعل امرأةً نبية. . ثم تلفتُ الآيةُ أنظارَ الكافرين، الذين كذَّبوا محمداً ﷺ، إلى مصارعِ الكفارِ السابقين، وتدعوهم إلى السيرِ في الأرض، للوقوفِ على آثارِهم، ومعرفةِ

ما جرى لهم، ورؤيةِ عاقبتِهم السيئة، فلعلَّ ذلك يدفَعُهم للتخلّي عن ما هم فيه من كفرٍ وتكذيبٍ وعناد.

وهذا تهديدٌ للكفار، ووعيدٌ لهم بالعذابِ القادم، إن استمرّوا على ما هم عليه، وقد حقّقَ اللهُ في كفارِ قريشٍ وعيدَه، بأنْ هزَمَهم وأذلَّهم على أيدي المسلمين في الغزواتِ الجهاديةِ بعدَ الهجرة.

أما الآيةُ الثانيةُ فإنَّها تشيرُ إلى سنّةِ اللهِ في الدعوات، فقد قَدَّرَ سبحانَه أنْ يعيشَ الرسلُ والدعاةُ في شدائدَ ومحنٍ وابتلاءات، وأَنْ يزدادَ ضغطُ الكفارِ عليهم، وكان الرسلُ يواجهونَ هذا بالصبرِ والثبات، واليقينِ بالفرَجِ والنصرِ، والتصميمِ على الدعوةِ والمواجهةِ وتحدّي الكفار..

وكان اللهُ الحكيمُ العليمُ يؤخّرُ النصر، فلا يمنُّ به على الرسلِ وأَتْباعِهم إلا بعد أنْ «يستيئسوا» ويبلغَ بهم الضيقُ والكربُ مداه.. ولكنَّ النصرَ كانَ يأتي في النهاية، حيث كان يُنجي المؤمنين ويدمِّرُ الكافرين.

وهذا وعْدٌ من الله للرسولِ ﷺ وأَتْبَاعِه، يَعِدُهُم فيه بزوالِ الكرب، وانفراجِ الشدَّة، وتحقّقِ النصر، وهو ما حصلَ بعد الهجرة.

الآياتُ الأَخيرةُ من سورةِ يوسف وعْدٌ بالمستقبلِ المشرق، والسورةُ كلُّها وعْدٌ عريضٌ بالمستقبلِ الكبيرِ للإسلام، وهذا ما استوعَبَه الرسولُ ﷺ وأصحابُه، وكان زاداً لهم على تجاوزِ الفترةِ الحرجة، ونيلِ النصرِ الموعودِ بفضلِ الله.

* * *

الفصل السادس

الوعد القرآني في سورة إبراهيم

سورةُ إبراهيم مكية، أُنزلَت في الفترةِ الحرجةِ نفسِها التي تحدَّثْنا عنها من قبل، وهي تهدفُ إلى ما هدَفَتْ إليه السورُ التي تحدَّثْنا عنها، سورُ الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف، ولكنَّ سورةَ إبراهيم تُحققُ أهدافَها بطريقتِها الخاصة، ومن خلالِ شخصيتِها المتميزة!!.

موضوعُ السورةِ الأساسي هو المواجهةُ بينَ الحقِّ والباطل، الحقِّ الذي يُقدّمه ويَحمله الرسل، ويقودونَ أتباعَهم في الوقوفِ أمامَ الباطلِ وجندِه، وتذكُرُ بعضَ ما يقولُه الرسلُ في تحدّي الكافرين، وتَعرضُ سنّةَ اللهِ المطردة في الانتقامِ من الكافرين الظالمين، وتُتابعُ العرضَ لتقدمَ صوراً ومشاهدَ لذلِّ وهوانِ الظالمين في الآخرة.

وتَضربُ السورةُ مثلاً لأصالةِ الحقِّ وقوتِه ورسوخِه، ومَثلاً لضعفِ الباطل وهزالِه، وتقدمُ الوعدَ الجازمَ بانتصارِ الحقِّ على الباطل. ونقفُ الآن مع هذه المجموعات من آيات السورة.

ممّا جرى بين الرسل وأعدائهم:

أولاً: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ

وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ٩ ـ ١٧].

هذه آياتٌ تسعٌ، تقدّمُ مشهداً للمواجهةِ بين الرسلِ وأَقْوامِهم، وتسجلُ الحـوارَ بين الطرفين، وتذكُرُ بعضَ ما يجـري بينهما، وتحددُ نهايةَ الكافريـن الظالمين في الدنيا، واستقرارَهم معذَّبين في نارِ جهنم يومَ القيامة.

وتعرضُ سنّةَ اللهِ في إهـلاكِ الظالمين ونصْـرِ المؤمنين، وتقدِّمُ الـوعدَ المشرقَ بالنصرِ والتمكين، والوعيدَ الشديدَ للكافرين.

بعض الحقائق التي تقررها الآيات:

وليس المقامُ مقامَ تفسيرٍ وتحليلٍ لهذه الآيات، ولذلك نشيرُ إشارةً خاطفة إلى ما فيها من حقائق دعوية، ووعْدٍ بانتصارِ الحق.

١ ـ بعثَ اللهُ الرسلَ للأقوامِ السابقين، وأيدهم بالآياتِ البيّنات، الدالّةِ على صدْقِهم، وقدَّمَ الرسلُ تلكَ الآياتِ إلى أقوامِهم، وبلّغوهم الدعوة.

٢ ـ كـان موقفُ الأقوامِ الكفرَ والعناد، وتكذيبَ الرسـل، ومجاهرتَهم بإعلانِ كفرِهم بهم، وشكِّهم في دعوتِهم.

٣ ـ ردَّ الرسلُ على تشكُّكِ أقوامِهم، بأنَّ دعوتَهم واضحةٌ مفهومة، يتعاملُ معها العقلُ والقلب، ولا يشكُّ بها أيُّ صاحبِ عقلٍ وبصيرة.

٤ ـ أثارَ الكفارُ شـبهةً أُخرى ضدَّ الرسل، وهي أنهم بشر، ولا يمكنُ أَنْ يكونَ الرسـلُ من البشر، فإنْ كانوا صادقين في دعوى الرسالة، فلْيقدِّموا لهم معجزاتٍ خارقة! مع أنَّ الرسلَ قدَّموا الآيات البيّناتِ لأَقْوامِهم.

٥ ـ ردَّ الرسلُ على تلك الشبهةِ بأنّهم بشر، ولكنَّ اللهَ اصطفاهم، وجعلَهم رسلاً، فهذا ليسَ باختيارِهم، وإنما هو من أَمْرِ الله.

٦ ـ ردَّ الرسلُ على طلبِ المعجزات الخارقة، بأنَّ هذا عندَ الله، لا قدرةَ لهم عليه، فاللهُ يُجري عليهم ما شاء من المعجزات، ويُعطيهم ما شاءَ من الآيات.

٧ ـ واجهَ الرسلُ أذى أقوامِهم لهم بالصبر، والتوكُّلِ على الله، وصدْقِ اللجوءِ إلى الله، والثباتِ على المواجهةِ، والاستمرارِ في تبليغِ الدعوة.

٨ ـ لم يوافق الكافرون على موقفِ الرسل، القائمِ على الصبرِ والتوكلِ والدعوة، ولذلك صَعَّدوا في مواجهتِهم وإيذائِهم والتضييقِ عليهم.

٩ ـ قدَّمَ الكافرون للرسلِ خيارَيْن لا ثالثَ لهما، فإمَّا أنْ يَخرجوا من أرضِهم ويغادروها إلى أرضٍ أُخرى، وإمَّا أَنْ يتخلَّوا عن دعوتِهم، ويعودوا إلى ملةِ أقوامِهم! أمَّا أَنْ يستمرّوا على دعوتِهم ويبقوا مقيمين في بلادهم فهذا لن يكون!.

١٠ ـ لما وصلت المواجهةُ بين الرسلِ وأقوامِهم إلى ذورتِها، أنهى اللهُ الأحداثَ بين الفريقيْن، وطبّقَ سنَّتَه المطردة، فأوحى إلى رسلِه أنّه معهم، ووعدَهم النصرَ والتأييد، وأنَّه سيهلكُ الظالمينَ الكافرين، ويجعلُ المؤمنينَ الصالحينَ وارثينَ الأرضَ من بعدِهم.

١١ ـ حقَّقَ اللهُ لرسلِه وأَتْباعِهم وعْدَه، فأنجاهم ونَصَرَهم، وأهلكَ الكافرين، ودمَّرهم، وبذلك كانت نهايةُ كلِّ جبّارٍ عنيدٍ كافرٍ هي الخيبةَ والخسارةَ والذلَّ في الدنيا، والعذابَ في نارِ جهنم.

السنّة الربّانية في إهلاكِ الظالمين ونصر المؤمنين:

لقد حسمَ اللهُ المواجهةَ بين الرسلِ وأَقوامِهم، بإهلاكِ الكافرين، ونصْرِ ونجاةِ المؤمنين.

قال تعالى لرسلِه: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾. وهو وعدٌ من اللهِ لرسلِه بإهلاكِ أَعدائِهم، والتمكينِ لهم، وإسكانِهم الأرضَ من بعدِهم.

وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه، عندما استفتحوا مع أقوامِهم، وطبّقَ ما وعدَهم عملياً: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقد أخبرَنا اللهُ في هذه الآياتِ عن هذهِ الحقائقِ الدعوية، وأعلَمَنا بذلك الوعدِ الذي قدَّمهُ للرسل، ونفَّذَه لهم، لنأخذ من ذلك العِبَر والعظات، ولنحسنَ النظر إلى وعدِ الله، ونثقَ بانطباقِه وتحقّقه في الواقع.

سنّةُ اللهِ التي لا تتخلّف، أنّه إذا قالَ أصحابُ الباطلِ لأصحابِ الحق: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ فإنَّ الله يَعِدُ أنصارَ الحقِّ بالنصر، ويقولُ لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

وينهي اللهُ القويُّ الغالبُ المواجهةَ بين أصحابِ الحقّ وأصحابِ الباطل، على أساسِ قولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

إنَّ الخيبةَ والخسارةَ هي نهايةُ كلِّ جبارٍ عنيد، يَغْترُّ بقوتِه، فيستخدمُها في حربِ الإسلامِ وجنودِه، فيخرجُ من هذه الحربِ بهذه النتيجةِ السيئة. هذا وعْدُ اللهِ للمؤمنين، الذي لا يتخلّفُ في أيِّ زمانٍ ومكان.

وهذه النهايةُ السوداءُ تنتظرُ الجبارين العنيدين من اليهود والصليبيين، وباقي الكافرين في هذا العصر، وسيرثُهم الإسلامُ العظيم، فهذا وعْدُ اللهِ العليمِ الحكيم!!.

التمثيل بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

ثانياً: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٧].

تضربُ هذه الآياتُ مَثَلَ الكلمةِ الطيبةِ بالشجرةِ الطيبة، ومَثَلَ الكلمةِ الخبيثةِ بالشجرةِ الخبيثة، وذلك ليتفكَّرَ الناسُ في هذيْن المثلَيْن..

الكلمةُ الطيبةُ هي الإسلام، والكلمة الخبيثةُ هي الكفر.

والهدفُ من هذا التمثيل، تقريرُ حقيقةِ قوةِ الإسلام وثباتِه، ورسوخِه في الأرض، وتحدّيه للكفار، والتمكينِ له، بحيثُ يعجزُ الكفارُ عن القضاءِ عليه

واجتثاثِه، رغم عنفِ وقوةِ واستمرارِ محاولاتِهم. . كذلك تقريرُ حقيقةِ ضعفِ الكفرِ وهزالِه، واجتثاثِه وزوالِه.

فالإسلامُ القوي، مَثَلُه مَثَلُ شجرةٍ قويةٍ معمّرة، جذورُها ممتدةٌ في أعماقِ الأرض، ضاربةٌ في أغوارِها، متمكنةٌ منها، وجذعُها قويٌّ متينٌ على وجْهِ الأرض، ولها فروعٌ وأغصانٌ وأوراق ممتدةٌ إلى أعلى في السماء، وهذه الشجرةُ مثمرةٌ معطاءة، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها، وتقدمُ ثمارَها في كلِّ وقت، وينتفعُ الناسُ بكلّ شيءٍ منها.

أمَّا الكفرُ الضعيفُ الهزيل، فَمَثَلُه كَمَثَلِ شجرةٍ خبيثةٍ هزيلة، صغيرةٍ حقيرة، ضعيفةٍ ذاوية، ليس لها جذورٌ في الأرضِ، وليس لها امتدادٌ في الفضاء، فهي قابعةٌ على سطحِ الأرض، إذا أتَتْها عاصفةٌ فإنها تجتثُّها وتُطيرها وتذهبُ بها، فتموتُ وتيبس، وكأنّها لم تكن!.

هذا التمثيلُ للإسلامِ والكفرِ بالشجرةِ القويةِ والشجرةِ المهزوزة، ينطبقُ على حالتين: الحالةِ الفرديةِ الخاصة، والحالةِ الجماعيةِ العامة.

أثر الإسلام والكفر على الإنسان:

الحالةُ الأولى: الحالةُ الفرديةُ، على المستوى الشخصي.

تشيرُ هذه الحالةُ إلى الأثرِ الإيجابيِّ المؤثِّرِ للإسلام على الفردِ المسلم، والأَثَرِ السلبيِّ للكفرِ على الفردِ الكافر.

فالإسلامُ يتغلغلُ في كيانِ المسلم، ويَضربُ جذورَه القويةَ في قلبِه وروحِه ومشاعرِه، فتثبتُ وتترسخُ في أعماقِه، ويمتدُّ هذا الإسلامُ في كيانِه، ويتغلغلُ في حواسِّه وأجهزتِه، ومشاعرِه وأحاسيسِه، وتصوُّراتِه وأفكارِه، ويوجِّهُ له سمعَه وبصرَه، ولسانَه وجوارحَه، وعقلَه وفكرَه، وأحلامَه وآمالَه. وينظمُ له أعمالَه ومكاسبَه، وعمرَه وحياتَه، ويُغذي له همّتَه وعزيمتَه، وتكونُ النتائجُ الطيبة، والأعمالُ الجليلة، والحسناتُ الكثيرة، ثماراً مباركةً لشجرةِ الإسلام، الراسخةِ في شخصيةِ المسلمِ وكيانِه.

ويكونُ مَثَلُ الإسلامِ في كيانِ المسلمِ كَمَثَلِ الشجرةِ الطيبةِ في الأرضِ

الصالحة، فتلكَ الشجرةُ أصلُها ثابت، وفرعُها في السماء، تُؤْتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذْنِ ربِّها.

أمَّا الكفرُ فإنَّه كلمةٌ خبيثة، وفكرةٌ قاتلةٌ مدمّرة، ما أنْ تدخلَ كيانَ الفردِ الكافرِ حتى تشلَّه، وتَقضي على مواهبه وقدراته، وتعطلُ أجهزتَه وحواسَّه، فلا يسمعُ ولا يُبصر، ولا يَعي ولا يَفقه، ولا يتَّعظ ولا يتدبَّر.

ويكونُ مَثَلُ الكفرِ في كيانِ الكافر، كَمَثَلِ الشجرةِ الخبيثةِ الضعيفةِ الهزيلة، اجتُثَّتْ من فوقِ الأرض، ما لها من قرار.

من أقوال السلف في الكلمة والشجرة:

وقد كانت أقوالُ الصحابةِ والتابعين في تفسيرِ الكلمةِ الطيبةِ والكلمةِ الخبيثة، تُلاحظُ أثَرَ الإسلامِ الإيجابيّ، وأثَرَ الكفرِ السلبيِّ.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: الكلمةُ الطيبةُ هي شهادةُ أن لا إلـه إلاَّ الله، والشجرةُ الطيبةُ هي المؤمن، والأصلُ الثابتُ هو: لا إلـه إلا الله في قول المؤمن، والفرع في السماءِ هو عملُ المسلم ورفعُه إلى السماء... والكلمةُ الخبيثةُ هي الكفر، والشجرةُ الخبيثةُ هي الكافر، واجتثاثُها من فوقِ الأرض هو الشرك، ليس له أَصْلٌ يَعتمدُ عليه الكافر، ولا بُرهان، ولا يقبلُ اللهُ منه عملاً.

وفي روايةٍ أُخرى عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنّه قال: يعني بالشجرةِ الطيبةِ المؤمن، ويعني بالأصلِ الثابتِ وبالفرعِ في السماء المؤمن، يكونُ المؤمنُ يَعملُ في الأرضِ ويتكلّم، فيبلغُ عملُه وقولُه في السماء، وهو في الأرض. ويعني بتؤتي أُكُلَها كلَّ حين: المؤمن، يذكرُ اللهَ كلَّ ساعةٍ من الليلِ والنهار.. وضربَ اللهُ مَثَلَ الشجرةِ الخبيثةِ كمثلِ الكافر، وإنَّ الشجرةَ الخبيثةَ اجتُثَّتْ من فوقِ الأرض، وكذلك الكافرُ لا يُقْبَلُ عملُه، ولا يَصعدُ إلى الله تعالى، فليس له أصلٌ ثابتٌ في الأرض، ولا فرعٌ في السماء، وليس له عملٌ صالحٌ في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال عطية العوفي: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: ذلك مَثَلُ المؤمن، لا يزالُ يخرجُ منه كلامٌ طيب، وعملٌ صالحٌ يَصْعَدُ إليه... و﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: ذلك مَثَلُ الكافر، لا يَصْعَدُ له قولٌ طيب، ولا عملٌ صالح..

وقال الضحاك: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: تجتمعُ ثمرتُها كلَّ حين.. وهذا مَثَلُ المؤمن، يعملُ كلَّ حين وكلَّ ساعةٍ من النهار، وكلَّ ساعةٍ من الليل، وفي الشتاءِ وفي الصيف، بطاعةِ الله.. وضربَ اللهُ مَثَلَ الكافرِ بالشجرةِ الخبيثة، اجْتُثَّتْ من فوقِ الأرض، ليس لها أصلٌ ولا فرع، وليستْ لها ثمرة، وليستْ فيها منفعة، وكذلك الكافرُ لا يقولُ خيراً، ولا يعملُ خيراً، ولم يجعل اللهُ له بركةً ولا منفعة! [الدر المنثور للسيوطي: ٥/ ٢٠ ـ ٢١].

قوة الإسلام والشجرة الطيبة:

الحالةُ الثانية: الحالةُ العامةُ للإسلام والكفر.

للإسلامِ رسوخٌ مكينٌ في الأرض، وثَباتٌ قويٌّ في الحياة، وأَثَرٌ إيجابيٌّ في الناس، وامتدادٌ متشعِّبٌ في التاريخ.. أما الكفرُ فإنّـه دخيلٌ شاذٌّ غريبٌ على الوجود، وهو ضعيفٌ هزيلٌ في الحياة!.

ومَثَلُ الإسلامِ في رسوخِه وتمكُّنِه وأَثَرِه واستمرارِه، كَمَثَلِ الشجرةِ الطيبةِ القويةِ الراسخةِ المثمرة، ومَثَلُ الكفرِ في ضعْفِه وزوالِه، كَمَثَلِ الشجرةِ الخبيثةِ الضعيفة، كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلَّهم يتفكَّرون.

الإسلامُ أصيلٌ راسخٌ في حياةِ البشرية، أرساهُ اللهُ في الأرض، ومكَّنَه منها، وأصبحَ شـجرةً ضخمـةً معمّرة، تعاهَدَها الرسل، ورعاها أَتْباعُهم، وضربَتْ جذورُها في أعماقِ التاريخ، وكلَّما مضى من عمر البشرية قرن، كلما ازدادتْ جذورُ الإسلامِ متانةً وقوة، وتغلغلاً في الحياةِ البشرية.

وفروعُ شجرةِ الإسلامِ وأغصانُها منتشرةٌ في مختلفِ بقاعِ الأرض، وظلالُها وارفةٌ في كلِّ مكان، يفيءُ إليها الناس، هاربين من شمسِ الجاهلية، ولهبِ الكفرِ الحارق، فيجدونَ عندها الرحمةَ وا لراحة، والأُلفةَ والطمأنينة!.

وشجرةُ الإسلامِ الخضراءُ الناميةُ المعمّرةُ مثمرة، تقدمُ ثمرَها للبشرية، وتؤتي أُكُلَها للناس، ويَظهرُ ذلك في النماذجِ الإسلاميةِ الرائعةِ الرائدة، من جنودِ الإسـلامِ ودعاتِه وأوليائـه، من العلماءِ والمفكّرين، والدعـاةِ والمصلحين، والمجاهدين الصادقين، الذين يُؤَدّون الشهادةَ لهذا الدين، ويقفونَ أمامَ أعدائِه الكافرين.

أما شجرةُ الكفرِ فإنَّها خبيثةٌ سامة، والمذاهبُ الفكريةُ الضالَّـةُ مدمِّـرَةٌ مخربة، تُخربُ المواهبَ والطاقـاتِ البشـرية، وتقضي على القلبِ والـروح، وتُعطّلُ السمعَ والبصر، وتعمي البصيرة، ويكونُ الكافرُ معطَّلاً معوَّقاً، بدونِ هدفٍ نبيلٍ أو رسالةٍ سامية.

والكفرُ دخيلٌ زائف، يدمغُه الإسـلامُ ويقضي عليه، إذا وجـدَ رجـالاً صادقين، يَحملونَه ويُجاهدون به.

وكما يُثبِّتُ اللهُ المؤمنين على الإسلام بالقولِ الثابت، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فإنّه يُثبِّتُ الإسلامَ في الأرض، ويجعلُه راسخاً فيها، متمكّناً منها، ويمدُّ ظلالَه فيها، وينشرُ رحمتَه عليها.

وعد الله بالتمكين للإسلام في حياة البشرية:

إنَّ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ وعدٌ نافذٌ من الله، بانتصارِ الإسلام، والتمكينِ له في الأرض.

وقد جاءَ هذا الوعدُ الربانيُّ في سورةِ إبراهيم المكية، والمسلمونَ مُحارَبون مستَضْعَفون، ولكنَّهم كانوا موقنين بإنفاذِ وإنجازِ هذا الوعد.. وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه، فنصرَهم على أعدائهم.

وقويتْ شجرةُ الإسلام، ونشرتْ ظلالَها على الجزيرةِ العربية في حيـاة رسولِ الله ﷺ، ثم مَدَّتْ فروعَها وأغصانَها إلى العالمِ القديم كلِّه في ذلك الزمان، وعمتْ بركتُها ورحمتُها الشامَ والعراق ومصر، وآسية وإفريقية وأوروبة، وآتتْ أُكُلَها كلَّ حين، في الأجيالِ المتلاحقةِ من العلماءِ والدعاةِ والربانيين.

فشل الأعداء في القضاء على الإسلام:

واستعصَـتْ شجـرةُ الإسـلامِ القـويـةُ علـى محـاولاتِ الأعـداء لقطْعِهـا واجْتِثاثِها.. لقد حاول الفرسُ والرومانُ ذلك ففشلوا، وحاولَ الهنودُ والتـركُ ففشلوا، وحاولَ الإسبانُ والطليانُ ففشلوا، وحاول المغولُ والصليبيون ففشلوا، وحاول الإنكليزُ والفرنسيون ففشلوا، وحاولَ الألمانُ والروسُ ففشلوا، والآن

يبذلُ اليهـودُ محاولاتٍ ضخمـةً لقلعِ الشجرة أو قطعِها، وسيفشلون، ويحاولُ الأمريكانُ بكلِّ ما أوتوا من قوةٍ وسيفشلون. . وستحاولُ قوى الكفرِ اللاحقةُ في القرون القادمةِ القضاءَ على شجرةِ الإسلام، وستفشلُ كما فشلتْ قوى الكفرِ السابقة.

إنّ التاريخَ بماضيهِ وحاضرِه، شاهدٌ على صِدقِ تحققِ الوعدِ القرآني، بقوةِ شـجرةِ الإسلامِ في أعماقِ الأرض، وفي أطباقِ الفضاء، وفي وفـرةِ ثمارِها، وكثرتِها وأصالتِها.

تحاولُ القوى الصليبيةُ واليهوديةُ هَزَّ شجرةِ الإسلام واجتثاثَها، وتظنُّ أنّها نجحتْ، وتصبُّ حربَها على المسلمين، لكنها تكتشفُ فشلَها في النهاية، فهَزُّها للشـجرةِ قد يُسقطُ بعضَ أوراقِها الصفراءِ الضعيفة، ولكنها سـرعان ما تجعلُ مكانَها أوراقاً خضراءَ يانعة، وقد يمسـكُ الأعداءُ بغصْنٍ من أغصانِ الشـجرة، ويَجذبونَه إليهم، آمِلين أنْ يقتلعوا الشجرةَ معه، ولكنهم سرعانَ ما يجدونَ بين أيديهم الغصن مخلوعاً، بينما بقيت الشجرةُ ثابتة!.

ولن يستطيعَ اليهودُ ولا الأمريكان، الذين يهزُّونَ شجرةَ الإسلامِ بعنف، ويشدّون بعضَ أغصانِها إليهم بشدّةٍ في هذه الأيام، لن يستطيعوا فعلَ ذلك، وستخرجُ شجرةُ الإسلامِ من حربِهم أكثر قوةً ومتانةً ورسوخاً وثباتاً، وسيُضافُ اليهودُ والأمريكانُ إلى قوائم الفاشلين الخاسرين!!.

شباب الصحوة هم ثمار الشجرة:

وشبابُ الصحوةِ الإسلامية، هم الثمارُ الطيبةُ لشجرةِ الإسلامِ المباركة، الذين يُقبلونَ على الإسلامِ بجدّية، ويلتزمونَ به بصدْق، ويُجاهدونَ به الصليبيين واليهود، جهاداً كبيراً مبروراً، ويقفونَ المواقفَ الإيمانيةَ الجهاديةَ العظيمة، التي يُغيظونَ بها الكفار.

ويُثبّتُ اللهُ هؤلاءِ الشبابَ على الإسلام، ويجعلُهم إسلاماً حيّاً متحرّكاً إيجابياً، رغمَ محاولاتِ الأعداءِ الكثيرةِ لإغوائِهم وإضلالِهم.

الله ليس غافلاً عن الظالمين:

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا

يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٧].

تَعرضُ هذه الآياتُ مشهداً لذلِّ وهوانِ الظالمينَ المجرمينَ يومَ القيامةِ، ومشهداً لحسرتهم وندمِهم، عندما يأتيهم عذابُ اللهِ في الدنيا، وتقررُ أنَّ اللهَ لا يغفلُ عنهم، ولا يُخلفُ رسلَه وعْدَه!.

عندما يأتي الظالمينَ الطغاةَ عذابُ الله، يَطلبونَ الإمهالَ والتأخير، وإعطاءَهم فرصةً أخرى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾.

فتوجِّهُ إليهم ملائكةُ العذاب سؤالاً لتوبيخِهم وذَمِّهم، وإشعارِهم بمزيدٍ من الذلِّ والحسرةِ والندم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

وتُخبرُ الآياتُ عن مكرِهم ضدَّ المسلمين، وحربهِم لهذا الدين: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

لكن ما هي نتيجةُ مكرِهم وحربِهم؟ لقد حاقَ المكرُ السيِّئ بهم، وانقلبت العاقبةُ السيئةُ عليهم، حيثُ خرجَ الإسلامُ منصوراً قوياً، وباؤوا هم بالهزيمة والذلِّ والخسران.

الله لا يخلفُ أولياءه وعده:

وحتى لا يشكَّ المؤمن، الذي يخوضُ حرباً شرسةً ضدَّ الكافرين الظالمين، فقد نهاهُ اللهُ عن ظنِّ تخلُّفِ وعْدِ الله، وظنِّ غفلةِ اللهِ عن الظالمين.

إننا نخاطبُ كلَّ مسلمٍ في هذا الزمان، ابتُلي بعداوةِ اليهودِ والأمريكان، وحربهم له ولإسلامه، نخاطبُه بما خاطبَ اللهُ به رسولَه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

ونخاطبُه أيضاً بقولِ اللهِ تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾. فاللهُ هو الذي يُقدِّرُ كلَّ شيء، وللظالمين اليهودِ والصليبيين يومٌ شديدٌ عند الله، واللهُ لا يُخلفنا وعْدَه، بنصْرِ دينِه، وإذلالِ أعدائِه، وهذا اليوم آتٍ لا محالة، ونحنُ نوقنُ بذلك، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد!.

* * *

الوعد القرآني في سورة الإسراء

سورةُ الإسراءِ مكية، أُنزلَتْ في الفترة الحرجة نفسِها، التي سبقَ أَنْ تحدَّثنا عنها. ولذلك كان هدفُها نفس أهدافِ السورِ السابقة، ولكنها تُحقّقُ هدفَها بطريقتِها الخاصة، التي تتفقُ مع شخصيتها المستقلة.

ومن أهمِّ ما وعدَتْ به آياتُ السورة، حديثُها عن الإفسادَيْن اليهوديَّيْن الكبيريْن، المقرونيْن بالعلوِّ والاستكبار، وتقريرُها زهوقَ الباطل.

إفسادان كبيران لبني إسرائيل:

أولاً: قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٩].

تتحدثُ هذه الآياتُ الستّ، عن وعدٍ إلـهي، قطعَه اللهُ، وأخبرَ بني إسرائيلَ عنه، وبما أنَّه وعْدٌ من اللهِ فإنّه منجَزٌ لا محالة.

أخبرَ اللهُ بني إسرائيل في كتابه الذي أنزلَه إليهم (التوراة)، عن إفسادَيْن اثنين، مقرونَيْن بالعلوِّ الكبير: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.. ومعنى ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ هنا: أخبرْنا وأعلمْنا بني إسرائيل.

والمرادُ بالكتابِ هنا: التوراة، وهذا معناهُ أنَّ الإفسادَيْن المذكورَيْن في

هذه الآيات وكيفيةَ إزالتهما، مذكوران في نصوصِ التوراة، فإنْ لم نجد في أسفارِ العهد القديم، الموجودةِ بين أيدي اليهود الآن، فلأنَّ أحبارَ اليهود أضاعوا التوراة، وحَرَّفوها، ومزجوا كلامَ اللهِ بكلامِهم الكثيرِ الباطل.

وذكْرُ الإفسادَيْن وصفاتِهما وكيفيةِ إزالتِهما في آياتِ القرآن يوحي بأنهما سيكونان بين اليهودِ وبين أُمة القرآن، فالمسلمون هم الذي سيُبْتَلَون بهذين الإفسادَيْن اليهوديَّيْن، وهم الذين سيُزيلونهما ويَقْضون عليهما.

وعد الله بالإفسادين وإزالتهما:

وبما أنَّ هذيْن الإفسادَيْن اليهوديَّيْن موجَّهان للمسلمين، فالحديثُ عنهما في آياتِ القرآنِ وَعْدٌ، وَعَدَ اللهُ به المسلمين أنْ يواجهوا هذيْن الإفسادَيْن اليهوديَّيْن، كما أنه وعَدَهم أنْ يُزيلوهما ويَقضوا عليهما.

ولذلك أوردْنا الحديثَ عن الإفسادَيْن ضمنَ الحديثِ عن الوعودِ القرآنية التي تحققت، والوعودِ القرآنيةِ التي لم تتحقَّقْ حتى الآن، ولكنها ستتحققُ حتماً في المستقبل.

ولذلك وردتْ كلمةُ (وَعْد)، في الآياتِ التي تتحدَّثُ عن الإفسادَيْن، أربعَ مرات:

الأُولى: في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾.

الثانية: في قوله: ﴿وَكَانَ وَعۡدًا مَّفۡعُولًا﴾.

الثالثة: في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾.

الرابعة: في قوله: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

كُرِّرَ الحديثُ عن الوعدِ في وقوعِ الإفسادِ الأول مرتَيْن، وعن الإفسادِ الثاني مرتَيْن أيضاً، وما ذلك إلا لتأكيدِ تحققِ وقوعِ ذلك الوعد، وحصولِ الموعودِ به من الإفسادَيْن!.

وقد اختلفَ المؤلِّفون والباحثون المعاصرون في وقْتِ وقوعِ الإفسادَيْن،

وتحققِ الوعدَيْن، ولكنَّ معظمَهم على أنَّ الإفسادَ الأولَ كان في المدينة، وما حولَها على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وأننا ـ مسلمي هذا الزمان ـ نعيشُ الإفسادَ الثاني، وهذا ما نرجِّحه.. ونقدّم خلاصةَ معنى الآيات التي قدّمَت الوعدَيْن على هذا الأساس!.

وقوع الإفساد الأول:

قال تعالى عن الإفساد الأول: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾.

(أُولاهما): بمعنى: المرةِ الأُولى، لأنَّ اللهَ تعالى قال في الآية السابقة: ﴿ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ ﴾. فمعنى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا ﴾: إذا حانَ وقْتُ تحققِ وعْدِ المرةِ الأُولى، وذلك بوقوعِ الإفسادِ الأول.

واللافتُ للنظرِ أنَّ الآياتِ لم تتحدّثْ عن مظاهرِ الإفسادِ اليهوديِّ الأول، ولم تُبينْ وضعَ اليهودِ خلالَه وأثناءَه، وإنما تحدَّثَتْ عن العبادِ الربَّانيين الذين يزيلونه!.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾.

الرسول وأصحابه هم الذين أزالوا الإفساد الأول:

الحديث في الآيةِ عن الرسولِ ﷺ وأصحابه، الذين أزالوا الإفسادَ اليهوديَّ الأول، في المدينةِ وما حولَها، وكان ذلك بعدَ الهجرة.

وقد أخبرَ اللهُ أنه يبعثُ عبادَه بعْثاً على اليهود، وإسنادُ الفعلِ (بعثنا) إلى الله يدلُّ على تكريمِ هؤلاءِ المجاهدين، المبعوثين بعثاً على اليهود.

ووصفَ اللهُ هؤلاء المجاهدين بأنّهم عبادٌ له: ﴿ عِبَادٗا لَّنَآ ﴾، أيْ: تتحققُ فيهم العبوديةُ المطلقةُ الخالصةُ لله، وهذا تكريمٌ ربّاني آخر لهؤلاءِ المجاهدين.

وهؤلاء المجاهدون أقوياء: ﴿ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾. وقوةُ اليهودِ المقرونةُ بالعلوِّ الكبير تحتاجُ إلى مجاهدين أقوياء، متَّصفين بالبأسِ الشديد.

وأعانَ اللهُ الصحابةَ المجاهدين، ونَصَرَهم على اليهود المفسدين، وجاسوا وتحرّكوا خلالَ ديارِ اليهود وبساتينِهم وبيوتِهم، وأخرجوا اليهودَ من الديار، وأورثَهم اللهُ إياها.

إنَّ قولَه: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ إجمالٌ لحربِ الرسولِ ﷺ وأصحابِه لليهود.. وقد تكفَّلَتْ رواياتُ السيرةِ بالحديثِ عن إجلاءِ يهود بني قينقاع بعدَ غزوةِ بدر، وإجلاءِ يهودِ بني النضير بعد غزوةِ أُحد، وقتْلِ يهودِ بني قريظة بعد غزوةِ الأحزاب، والقضاءِ على يهودِ خيبر بعدَ صلحِ الحديبية.

وخُتمت الآيةُ بجملة: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، وذلك للتأكيدِ على حقيقةِ تحققِ الوعدِ القاطعِ الناجز، في جانبيه: الجانبُ الأول تحققُ الوعدِ بحصولِ الإفسادِ الأول. والجانبُ الثاني: تحققُ الوعد ببعثِ عبادِ اللهِ الربانيين المجاهدين الذين يُزيلونَ ذلك الإفساد.

أيْ: كانَ الوعدُ بوقوع الإفسادِ الأول وعداً مفعولاً واقعاً، وكان الوعدُ بإزالته وعداً مفعولاً واقعاً أيضاً.

وقد تحققَ الوعدُ القرآنيُّ المتعلّقُ بالإفسادِ الأول، في حياةِ الرسولِ ﷺ، فما قُبِضَ عليه الصلاة والسلام إلاّ بعدَ أنْ تمَّ إزالةُ الإفسادِ الأول، وتحطيمُ قوةِ قبائلِ اليهود: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر، وفدك وتيماء. وتحوُّلُ اليهودِ إلى أفرادٍ متفرّقين هنا وهناك في الحجاز، ولا كيانَ لهم، ولا خطرَ منهم!!.

تحقق الوعد القرآني بوقوع الإفساد الثاني:

أخبرت الآياتُ عن مظاهرِ قوةِ اليهود، عند الإفسادِ الثاني الكبير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

وتوحي الآيةُ بأنَّ اليهودَ سيتغلّبون عند إفسادِهم الثاني على الذين أزالوا إفسادَهم الأول، وهذا ما يؤكِّدُ أننا في هذا الزمان نعيشُ الإفسادَ اليهوديَ الثاني.

(ثم): حرفٌ للتراخي الزمني، ويدلُّ على الفترةِ الزمنيةِ الطويلة، الواقعةِ

بين الإفسادَيْن، الإفسادِ الأول الذي كان في بدايةِ القرنِ الأول، والإفسادِ الثاني الذي بدأ منذُ بدايةِ القرنِ الرابع عشر الهجري. أيْ: أنَّ الفترةَ بين الإفسادَيْن كانت ثلاثةَ عشر قرناً!.

وعَبَّرَ عن عودةِ اليهودِ للإفسادِ الثاني بلفظ: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومعنى: (رددنا) أعَدْنا وأرجَعْنا. و(الكرَّةَ) هي العودةُ للإفساد، والضميرُ في (عليهم) يعودُ على العبادِ الربّانيين، أُولي البأسِ الشديد، الذين جاسوا خلالَ ديارِ اليهود، وأزالوا إفسادَهم الأوَّل.

ونحنُ المقصودونَ بهذا الضمير: «عليهم»، لأنَّنا خَلَفٌ لجيلِ الصحابةِ المجاهدين، ولكننا لسْنا على طريقِهم، فنحن «شرُّ خَلَفٍ لخَيْرِ سَلَف»، ولذلك تغلَّبَ اليهودُ علينا وهزمونا.

ومن مظاهرِ قوةِ اليهودِ في إفسادِهم الثاني المعاصر ما عبَّرَت عنه الآية: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

فاللهُ أَمَدَّهم بالأموالِ الكثيرةِ الطائلة، وأمدَّهم بالبنينَ الكثيرين.. وهو الذي جعلَهم أكثرَ نفيراً وتأييداً، فمعظمُ دولِ العالمِ تنفرُ معهم وتؤيِّدهم، وتقفُ إلى جانبهم، وتدافـعُ عنهم، وفعلَ اللهُ ذلك لهم ابتلاءً وامتحاناً، ليُقيمَ عليهم الحُجَّةَ، ويوقظَ بهم المسلمين، تمهيداً للانتقامِ منهم.

إنَّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾. وقولَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ فيهما وعدٌ قرآنيٌّ بتحقُّقِ هذا العلوِّ والإفسادِ والاستكبارِ من قِبَلِ اليهود. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ بعد ثلاثةَ عشرَ قرناً من الوعدِ به والإخبارِ عنه.

الوعد القرآني بإزالة الإفساد الثاني:

وعدَ القرآنُ وعداً قاطعاً بإزالةِ الإفسادِ اليهودي الثاني، وذَكَرَ كيفيةَ تلك الإزالة، وجاءَ ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

معنى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: إذا حانَ وقتُ المرةِ الثانية، وهي المرةُ الآخرة والأخيرة.

والخطابُ في قوله: ﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ لليهود المتكبّرين، المفسدين إفسادَهم الثاني. والإخبارُ في قوله: ﴿ لِيَسُوءُواْ ﴾ عن المؤمنين المجاهدين، الذين هم أحفادُ الصحابةِ المجاهدين، والذين سيبعثُهم الله، ليُزيلوا إفسادَ اليهودِ الثاني. فهؤلاء العبادُ المجاهدون سيهزمون اليهود، ويُذلّونهم، ويُسَوِّدون وجوهَهم، ويوقعونَ بهم الحسرةَ والهوان.

وأخبرَ اللهُ عن جهادِ هؤلاء ودخولِهم المسجدَ الأقصى بقوله: ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والمرادُ بدخولِ المسجدِ أولَ مرة: دخولُ الصحابةِ الأقصى فاتحين، عندما فتحوا بلاد الشام.

وهذا يدلُّ على أنَّ المعركةَ ضدَّ اليهود عند إفسادِهم الثاني هي معركةُ المسجدِ الأقصى، وسيدخلُه المجاهدون فاتحين، وسيحررون الأرض المقدّسة، ويُدمرون الكيانَ اليهوديَّ عليها: ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾.

ونحنُ نوقنُ أنَّ الوعدَ القرآنيَّ الواردَ في هذه الآيات، والجازمَ بإزالةِ الإفسادِ اليهوديِّ الثاني آتٍ لا محالة، ونعتقدُ أنّه لا بدَّ أَنْ يتحقَّقَ بإذْنِ الله. فعمرُ اليهودِ على الأرضِ المقدّسةِ قصير، وستعودُ فلسطينُ أرضاً إسلاميةً بإذن الله.

وعد الله لرسوله ﷺ أثناء الهجرة:

ثانياً: قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٠ ـ ٨٢].

يوجِّهُ اللهُ رسولَه ﷺ إلى أنْ يطلبَ منه التوفيقَ والسداد، بأَنْ يُلهمَه اختيارَ المكانِ المناسب، والقرارِ المناسب، والتصرفِ المناسب، ويسألَ ربَّه أنْ يُدخلَه مدخلَ صدق، ويُخرجه مخرجَ صدق، وأنْ يجعلَ له سلطاناً قوياً، ونصْراً كريماً.

ويُبشرُ اللهُ رسولَه ﷺ بأنَّ الحقَّ الذي معَه سينتصرُ على الباطل الذي عليه قومُه، وسيُزهقُه ويَقضي عليه، ويُخبرُه أنَّ الباطلَ ضعيفٌ زائلٌ زهوق، ولا يُمكنُ أنْ يقفَ أمامَ الحق.

ويُخبرُه أنه جعلَ القرآنَ شفاءً للمؤمنين، ورحمةً منه سبحانَه يرحمُهم بها،

أما الكافرون فإنهم يُعرضون عن القرآن، ولذلك لا يُرحمون به، وإنما يزدادون به ضلالاً وعمى، وعناداً وخسارة.

وهذه الآياتُ من سورةِ الإسراءِ أُنزلَتْ على رسولِ الله ﷺ عند هجرتِه من مكةَ إلى المدينة، ولذلك قُدِّمَت له البشرى بالفرَج، والوعدِ بالنصر.

والمرادُ بمدخلِ الصدق دخولُه المدينة، والمرادُ بمخرجِ الصدق خروجُه من مكـة، والمرادُ بالسلطان النصير: التمكينُ والتأييد، الذي منحَهُ اللهُ له في المدينة.

من أقوال السلف في ذلك الوعد:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبيُّ ﷺ بمكة، ثم أُمِرَ بالهجرة، فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾.

وقالَ الحسنُ البصري: لما ائتمرَ كفارُ مكةَ برسولِ الله ﷺ، ليقتلوه أو يَطردوه أو يوثِقوه، وأرادَ اللهُ قتالَ أهلِ مكة، أمرَهُ اللهُ أنْ يَخرجَ إلى المدينة، وأن يقول: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: المدينة. ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: مكة.

وقال الحسنُ البصريُّ في تفسيرِ قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾: وعدَ اللهُ رسولَه ﷺ، لينزَعَنَّ عِزَّ فارس ومُلْكَ فارس، وليجعلَنَّه له، ومُلْكَ الرومِ وعِزَّ الرومِ وليجعلنَّه له.

وقال قتادة في تفسيره: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ علمَ أنّه لا طاقةَ له بهذا الأمر إلاّ بسلطان، فسأل السلطانَ نصيراً لكتابِ الله، ولحدودِ الله، ولفرائضِ الله، ولإقامةِ دين الله، فإنَّ السلطانَ رحمةٌ من الله، جعلَه بين أظهرِ عبادِه، ولولا ذلك لأغارَ بعضُهم على بعض، فأكلَ شديدُهم ضعيفَهم» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٢ ـ ٦٣].

وتشيرُ الآياتُ إلى حفظِ اللهِ لرسولِه ﷺ، فهو سبحانَه معه بتوفيقِه وتأييدِه، ونصرِه وتسديدِه، يأخذُ بيدِه لما هو الخيرُ له، ويَعِدُهُ بالتمكينِ.

وهذا الوعدُ الصادقُ مهمٌّ، في الحالةِ التي كان عليها رسولُ الله ﷺ، عند نزولِ الآياتِ عليه، حيث كانَ مطارَداً من قِبَلِ قريش، وكان عيونُها يراقبونَه في كلِّ مكان، وليس معه من البشرِ إلا صاحبُه الصّدّيقُ رضي الله عنه، وكلُّ مَنْ حولَه ضدّه.. ومع ذلك يأتيهِ الوعدُ من اللهِ بانتصارِ دينه، وهزيمةِ أعدائِه، ويُنزلُ اللهُ عليه هذه الآياتِ ليزدادَ أمَلاً وثقةً وتصديقاً وإيماناً بتحقّقِ وعْدِ الله.

وكان ﷺ كلُّه يقينٌ بذلك، ولذلك وعدَ سراقةَ بنَ مالك بسوارَيْ كسرى!.

رد الله رسوله إلى مكة:

وأنزلَ اللهُ عليه ﷺ وهو في طريقِ الهجرة آيةً أُخرى، يَعِدُه فيها وعداً قاطعاً بالعودةِ إلى مكة، فاتحاً ظافراً. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥].

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: لرادك إلى مكة كما أخرجَكَ منها.

وقال الضحاك: لما خرجَ رسولُ الله ﷺ من مكة، فبلغَ الجُحْفَة، اشتاقَ إلى مكة، فأنزلَ اللهُ عليه قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: يعني: إلى مكة.

وقد صَدَقَهُ اللهُ وعْدَه، فأعادَه إلى مكة، بعد حوالي تسعِ سنواتٍ من نزولِ هذه الآية، حيثُ عادَ إلى مكةَ فاتحاً، وجعلَها دارَ إسلامٍ وإيمانَ.

ماذا قال الرسول ﷺ وهو يحطم الأصنام؟:

ولما صدقَ اللهُ رسولَه ﷺ وعْدَه، وأعادَه إلى مكةَ فاتحاً، في رمضان من السنةِ الثامنةِ من الهجرة، دخلَ رسولُ الله ﷺ الكعبة، وحطّم الأصنامَ التي فيها، وهو يتلو آياتِ الوعد، التي نَزَلَتْ عليه قبلَ حوالي تسع سنوات.

روى البخاري [برقم: ٢٤٧٨]، ومسلم [برقم: ١٧٨١] عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه قال: دخلَ النبيُّ ﷺ مكة، وحولَ الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، فجعلَ يطعنُها بعودٍ في يده، وجعلَ يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ

﴿ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وقالَ جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: دخلْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ مكة، وحولَ البيت ثلاثمئة وستون صنماً، تُعْبَدُ من دونِ الله، فأمرَ بها رسولُ اللهِ ﷺ، فأُكِبَّتْ على وجوهِها، وهو يقرأُ قولَه تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٣].

إزهاق الحق للباطل الزهوق:

واللطيفُ أنَّ قوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾ وعْدٌ نظريٌّ من الله لرسولِه ﷺ، بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، وقد حقّقَ اللهُ له هذا الوعدَ بعدَ سنواتٍ معدودة، عندما فتحَ له مكة، وحَطَّمَ الشركَ بها، المتمثّل في الأصنام التي كان المشركون يعبدونها!.

متى زَهَقَ الباطل؟ ومتى تحطَّمت الأصنام؟ ومتى حقَّقَ اللهُ هذا الوعد؟.

لقد تحقَّقَ ذلك بعدَ سنواتٍ عديدة، أمضاها الرسولُ ﷺ في مكة، بلغَتْ ثلاثَ عشرةَ سنة، كان يربّي فيها أصحابَه، وسنواتٍ في المدينة، قاربَتْ تسعَ سنوات، قضاها رسولُ اللهِ ﷺ، في تربيةِ أصحابِه ومحاربةِ أعدائِه.

فلما وُجِدَ الجيلُ القرآنيُّ الفريدُ المجاهد، الذي صدقَ مع الله، وحملَ رسالةَ الإسلام، وجاهدَ أعداءَ الله، أنزلَ اللهُ عليه نصْرَه، وصَدَقَه وعْدَه.

عند ذلك تمَّ تحطيم الأصنام بسهولة، وبحركةٍ خفيفةٍ من عصا صغيرة، بيدِ رسولِ الله ﷺ. لقد حطَّمَ الرسولُ ﷺ الأصنامَ في قلوبِ الناسِ أوّلاً، واستغرقَ ذلك سنواتٍ طويلة، وبعد ذلك سهلَ تحطيمُ الأصنامِ داخلَ الكعبة، حيث لم يستغرِقْ ذلك إلاّ دقائق!.

إنَّ الباطلَ زهوقٌ زائل، ذاهبٌ هالكٌ مضمحل، لكن بشرطِ أنْ يتمثَّلَ الحقُّ في صورةِ وجودٍ فعليّ، مؤثّرٍ قوي، يعتمدُ فيه أصحابُه على اللهِ القويِّ القاهر!!.

* * *

الفصل الثامن

الوعد القرآني في سورة الأنبياء

سورةُ الأنبياءِ سورة مكية، سُميتْ بهذا الاسم لأنَّه ذُكِرَ فيها مجموعةٌ مباركةٌ من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وأُشيرَ إلى مشاهدَ ولقطاتٍ سريعةٍ من قصصهم، وهم إبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، وأيوب، وإدريس، وإسماعيل، وزكريا، ويحيى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

وتتحدَّثُ آياتُ السورةِ عن المواجهةِ المستمرةِ بين الحقِّ والباطل، وكان يقودُ أهلَ الحقِّ الأنبياءُ والرسلُ عليهم الصلاة والسلام، بينما يقودُ أهلَ الباطلِ الملأُ من الأقوامِ الكافرين.

وتركزُ آياتُ السورةِ على المواجهةِ بين خاتمِ المرسلين محمد ﷺ، وبين الكافرين من قريش، حيث تعرضُ لشبهاتِهم وإشاعاتِهم، وتردُّ عليها، وتعرضُ لحقائقَ عديدة، تتعلقُ بمسيرةِ الحقِّ وانتصارِه على الباطل.

وورِدَ فيها وعودٌ قرآنيةٌ بانتصارِ الحقّ على الباطل، وإزهاقِ الباطلِ أمامَ الحق، تلقّاها الصحابةُ وهم مستضعفون معذَّبون مضطهدون، وتعاملوا معها بيقينٍ وثقة، وأملٍ وبشرى.. وثَبَتوا على الحق، وواجهوا الباطل، وقطعوا الفترةَ المكية، وهم موقِنون بتحقّقِ هذه الوعودِ القرآنية. ولما ذهبوا إلى المدينةِ جاهَدوا في سبيلِ الله، وهزموا أعداءَ الله، وحققَ اللهُ لهم تلك الوعودَ المأمولة.

من أهم الوعود القرآنية في سورةِ الأنبياء ما يلي:

الله صدق رسله وعده:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ١٠].

تقدمُ هذه الآيـاتُ خلاصةَ المواجهةِ بين الرسلِ السابقين وبين أقوامِهم الكافرين، ليعرفَها أعداءُ النبيِّ ﷺ، ويعيها أتباعُه.

فاللهُ كان يختارُ رجالاً، ويجعلُهم رسلاً، ويُنزلُ عليهم وحياً، ويبعثُهم إلى أقوامِهم، فيدعونَهم إلى الله، ويُقَدِّمون لهم الآيات، وكان يستجيبُ لهم قلائلُ من أقوامِهم، ويكذّبُهم ويكفرُ بهم كثيرون، ويؤذونَهم وينالونَ منهم، ويضطهدون ويعذّبون أَتْباعَهم، فيصبرُ الرسلُ وأَتباعُهم، ويَثبتونَ على الحق، وينتظرونَ حكمَ اللهِ بإنجائِهم، وإهلاكِ الكافرين المكذِّبين.. وعندما تنتهي المدةُ التي حدّدَها اللهُ بعلْمِه وحكمتِه، يُنهي اللهُ قصةَ الرسولِ مع قومِه، ويُنجي المؤمنين، ويُهلكُ المسرفين.

والشاهدُ في الآياتِ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

الإخبارُ في الآيةِ عن الرسلِ السابقين، حيثُ كان اللهُ يَعِدُهم وعْداً قاطعاً، بأنّه سوفَ يفتحُ بينهم وبينَ قومِهم الكافرين، ويُنهي المواجهةَ معهم، ويجعلُ العاقبةَ لهم، وكان الرسلُ واثقين من تحقّقِ وعْدِ الله، منتظرين وقوعَه.

وكانَ اللهُ يصدُقُهم الوعد، في الوقتِ الذي يحدّدُه سبحانه، وبالكيفيةِ التي يختارُها عزَّ وجلّ، فيُنجيهم هم وأَتْباعَهم، ويُهلكُ أعداءَهم الكافرين المسرفين.

والقَصَصُ القرآنيُّ معرضٌ لهذه الحقيقة، حيثُ انطبقَتْ على قصصِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وغيرهم، عليهم الصلاة والسلام.

وذكْرُ هذه الحقيقةِ القرآنيةِ لتبشيرِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وتوجيهِ أنظارِهم إلى وعْدِ اللهِ القادم، بنصْرِهم على كفارِ قريش.. وقد وعى الصحابةُ هذه الإشارة، وتحرّكوا في دعوتهم صابرين ثابتين، ناظرين إلى تحقّقِ وعْدِ الله، الذي كانوا به موقنين!.

وذكْرُ هذه الحقيقةِ القرآنيةِ لتهديدِ كفارِ قريش، وإخبارِهم بأنَّ العذابَ قادمٌ إليهم، إنْ لم يتوقَّفوا عن الكفرِ والتكذيب، والظلم والتعذيب، ولذلك عرضت الآياتُ اللاحقةُ مشهدَ إهلاكِ الظالمين السابقين. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا

يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

السنة الربانية في الصراع بين الحق والباطل:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

تُقررُ هذه الآيةُ حقيقةً قاطعة، تحددُ نهايةَ الصراع بينَ الحقّ والباطل، تلكَ النهايةُ التي يحددُها اللهُ بحكمتِه، في الزمانِ والمكانِ والأُسلوبِ المناسب، والتي يُزهَقُ فيها الباطل ويُنصَرُ الحق.

وسبقَ هذه الآيةَ آيتان تتحدّثان عن (الجدِّيّة) في أفعالِ الله، وتَنفي عنها اللعبَ والعبثَ. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٧].

خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ لحكمة، ولم يكنْ لاعباً في خلْقِه لهما سبحانه، وأفعالُه منزّهةٌ عن اللهوِ والعبثِ! ولو أرادَ أنْ يتخذَ لهواً لاتّخذه من عندِه، وما كانَ ليفعلَ ذلك.

و﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ حرفُ نفيٍ بمعنى (ما). أي: ما كنّا فاعلين ذلك اللهو.

ونفيُ اللعبِ واللهوِ عن أفعالِ الله، في سياقِ الحديثِ عن المواجهةِ بينَ الحقِّ والباطل، مقصود، ليبيِّنَ أنَّ اللهَ حكيمٌ في توجيهِ هذه المواجهة، ورسْمِ خطواتِها ومراحلِها وأحداثِها.

إنَّ الصراعَ بين الحقِّ والباطلِ سنّةٌ ربانية، وإنَّ إزهاقَ الباطلِ سنّةٌ ربانية، وإنَّ انتصارَ الحقِّ على الباطلِ سنّةٌ ربانية. وقد وعَدَ اللهُ المؤمنينَ بإنفاذِ هذه السنّة، لأنَّ سنَّةَ اللهِ لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّل، ووعْدُ اللهِ لا يُخلفُ أو يُنقض.

وكلُّ قصصِ القرآنِ معرضٌ عمليٌّ لإنجازِ هذا الوعد، وتحقيقِ هذه السنّة، وكلُّ حركةٍ للمسلمين الصادقين المجاهدين، على مدارِ التاريخِ الإسلامي،

معرضٌ عمليٌّ إسلاميٌّ لهذه السنّة، وتفسيرٌ إسلاميٌّ للوعدِ الجازمِ في هذه الآية: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾.

الحق يدمغ الباطل:

ولنستمتعْ بالصورةِ الفنيةِ العجيبةِ الحية، التي تعرضُها الآية، للصراعِ بين الحقِّ والباطل.

إنها صورةٌ عسكريةٌ صاروخيةٌ متحرّكة، نتخيَّلُها في خيالِنا الفاعل، ونحنُ نقرأُ الآية، وكأننا أمام (فيلم تلفزيوني مصوَّر) لمراسلِ عسكري، يبثُّه بثّاً حياً على القناة الفضائية: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾!.

لِننظرْ في (الفيلم) الذي تعرضُه علينا الآية: إننا نرى على الشاشةِ (الباطل) في صورةِ جسمٍ عسكريٍّ مجسّم، كأَنْ يكونَ دبابة، أو حاملة طائرات، أو منصّة لإطلاق الصواريخ! ونلتفتُ إلى الجانبِ الآخر، معسكرِ الحق، فنرى قاعدةً ماديةً مجسَّمةً لهذا المعسكر، ونرى مجموعةً من (الصواريخ) جاهزةً للانطلاق لتدميرِ الباطل.. وما هي إلا لحظةٌ قصيرة، حتى يُصدرَ الآمِرُ أَمْرَه بإطلاقِ (صاروخ الحق) فينطلقَ الصاروخُ نحو هدفِه، ونراهُ في هذا الفيلم المصوّر متوجّهاً نحو معسكر الباطل.. ونراهُ وهو يُصيبُه إصابةً مباشرة، ونراه وهو يدمغُه ويدمِّرُه ويفجِّرُه.. ونرى الباطلَ زاهقاً مدمَّراً هالكاً، زالَ عنه انتفاشُه وادِّعاؤه!!.

لقد عَرَضت الآيةُ المعجزةُ انتصارَ الحقِّ على الباطل، في صورةٍ معبّرةٍ مؤثّرة، على أساسِ القاعدةِ الجمالية القرآنية: (التصوير الفني في القرآن)، التي عرضَ بها القرآنُ مختلفَ موضوعاتِه!.

الكفارُ نشيطون في نشرِ باطِلِهم والتمكينِ له، وينجحونَ في ذلك إلى حدٍّ ما، حيثُ يُقيمونَ لباطِلِهم وجوداً كبيراً، متمثِّلاً في أنظمةٍ وأجهزة، وكيانات ومؤسسات، ويمدّونها بكلِّ وسائلِ القوة، لتستمرَّ وتبقى.. وهم أيضاً جادّون في محاربةِ الحَقِّ وأهله، ويستخدمونَ في ذلك مختلفَ الوسائلِ والأساليب، ويُحققون بعضَ النجاح.

ويُعجَبُ الكفارُ بجهودِهم في التمكينِ لباطلهم، وفي حربِ الحقِّ وأهلِه، ويظنّون أنهم نجحوا في مُرادِهم، وحَقَّقوا أهدافَهم، فيفرحونَ ويرتاحون..

وفجأةً يأتيهم أَمْرُ الله، من حيثُ لا يحتسبون ولا يتوقَّعون، فيُقَوّي سبحانه جندَ الحق، وينصرُهم على جندِ الباطل، ويَقذفُ بقذائفِ وصواريخِ الحقِّ على مؤسساتِ الباطل، فيدمغُها ويدمّرُها ويهلكُها.

تحققَ هذا في إهلاكِ وتدميرِ قوى الباطلِ قبلَ الإسلام، على يدِ الرسلِ وأَتْبَاعِهم، وأنفذَ اللهُ فيها قدَرَه وإرادَتَه سبحانه.. وتحقَّقَ في إهلاكِ وتدميرِ قوى الباطلِ بعدَ الإسلام، وأنفذَ اللهُ فيها قدَرَه وإرادتَه، وقذفَ سبحانه قذائفَ الحقِّ على الفرسِ والرومِ وأهلكَهم، وقذَفَها على الصليبيين والتتارِ وأهلكهم..

وها هي قوى الباطلِ في زماننا منتفشةٌ طاغيةٌ باغية، تتمثّلُ في العالم الغربيِّ الصليبي، الذي تقودُه أمريكة، وتتمثّلُ في اليهودِ المفسدين. وإننا على يقين من أنَّ اللهَ سيقذفُ قذائفَ الحقّ الإسلاميةَ على هذه القوى الكافرة، فيدمغُها ويزهقُها ويدمِّرُها. ويقولون: متى هو؟ قل: عسى أنْ يكونَ قريباً!.

معنى إنقاص الأرض من أطرافها:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤ ـ ٤٥].

الكلامُ عن كفارِ قريش، وفيه إنذارٌ لهم، وتهديدُهم بالعقاب، إنْ لم يتخلَّوا عن الكفرِ والتكذيب، ومعاداةِ رسولِ الله ﷺ.

يُخبرُ اللهُ أنه أنعمَ على كفارِ قريش، ومتَّعَهم بمختلفِ أنواع المتَع، كما أنعمَ على آبـائِهم ومتَّعَهم، ولكنَّهم قابلوا هذا الإنعامَ والإمتاعَ بالجحودِ والكفرانِ والعصيان، واستوجَبوا بذلك العقاب.

وسيكونُ العقابُ بإضعافِهم، وإزالةِ سلطانِهم، حيثُ سيُنقِصُ اللهُ عليهم الأرض من أطرافِها، وسيقلّصُ نفوذَهم، وسيُضعفُ تأثيرَهم.. وهم ضعفاءُ أمامَ قوةِ الله، مغلوبون أمامَ أمْرِه، ولن تستطيعَ أيةُ قوةٍ مخلوقةٍ مهما عظمَتْ أنْ تقفَ أمامَ قوةِ الواحدِ القهار.

وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يُنذرَ الكفارَ العذاب، لعلَّهم يتراجعون عن ما هم

فيه، فإذا فتحوا قلوبَهم وحواسَّهم للإنذارِ استفادوا ونجوا، وإنْ أغلقوا قلوبَهم وحواسَّهم خسروا وهلكوا.

والشاهدُ في الآية قولُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

ويخطئ بعضُ الباحثين من المسلمين في فهمِ المقصودِ من إنقاصِ الأرضِ من أطرافِها، المذكورِ في هذه الآية، وفي الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. فيعتبرونَ حديثَ الآيتَيْن عن (شَكْلِ) الأرض البيضاوي، فاللهُ أنقصَ الأرضَ من أطرافِها، بأنْ صغَّرَ حجْمَها عن القطبين الشمالي والجنوبي، واللهُ مَدَّ الأرضَ وكَبَّرَها عند خطّ الاستواء!.

ونرى أنَّ هذا فهمٌ مرجوحٌ للآيتَيْن، و(شكلُ) الأرضِ قد يكون هكذا، مضغوطاً عند القطبين، و(منبعجاً) عندَ خطِّ الاستواء، لكنَّ إنقاصَ أطرافِ الأرض الذي تحدّثَتْ عنه الآيتان إنقاصٌ معنوي، وليس ماديّاً، وهو يتمثّلُ في إضعافِ قوى دولٍ وإمبراطوريات، وتقلُّصِ سلطانِها، وخروجِ بعضِ البقاعِ في أطرافِها عن سيادتِها، وانكماشِ رقعتِها الجغرافية.

الوعد بإزالة دول وإنشاء أخرى:

لقد مكَّنَ اللهُ لبعضِ الدولِ في الأرض، في الماضي والحاضر، فنشرَتْ سلطانَها، وبسطَتْ نفوذَها، واحتلَّتْ بلاداً لغيرِها، واستعمرَتْ أقواماً آخرين، وبقيتْ على هذا فترةً من الزمان.

ولكنَّ اللهَ أضعفَها، وأنقصَ أطرافَ سيادتِها، وجعلَها تتراجعُ عن بعضِ المواقع، وتنسحبُ من بعضِ البلدان.

تحققَ هـذا في إنقاصِ أطرافِ الإمبراطوريـة اليونانية، والإمبراطوريـة الرومانية، والإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الهندية.

وتحقـقَ هـذا فـي العصـرِ الحـديـث، فـي الإمبـراطـوريـةِ الإسبـانيـة، ثـم الإمبراطوريةِ الفرنسية، والإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية الإنكليزية، وأخيراً الإمبراطورية السوفياتية.

والآنَ تنشُرُ الإمبراطوريةُ الأمريكيةُ سلطانَها ونفوذَها على العالم، وتَطوي دولَه تحتَ أجنحتِها، وتخططُ أنْ تبقى هكذا للأبد، ولكنَّ اللهَ سيضعفُ قوتَها، ويقلِّصُ نفوذَها، وسينقصُ أطرافَها، وتتراجعُ إلى ما وراءِ المحيط، وسيُفتتُ وحدَتَها، ويُفَرِّقُ ولاياتِها الخمسين، ويقسمُها إلى عدةِ دويلات!.

إنَّ إنقاصَ أطرافِ الدولِ الكبرى سنّةٌ ربانيةٌ مطَّردة، فاللهُ هو الذي يُقَوّي الدولة، ويمكّنُ لها، ويكتبُ لها التوسُّعَ والامتداد، وهذه الدولةُ تَستخدمُ قُوَّتَها ومواردَها وطاقاتِها في استعبادِ الآخرين واستعمارِهم، وتظلمُ وتطغى وتتجبَّر، وبذلك تستقدمُ عذابَ اللهِ وبأسَه؛ ويكونُ عقابُه لها بإنقاصِ أطرافِها، وانفصالِ أجزائِها، واستقلالِ الأقطارِ المستعمَرَة، وتحرير البلدان المحتلّة.. ولن تبقى دولةٌ ظالمةٌ قويةً غالبةً أبداً: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾؟.

وراثة الأرض في التوراة والزبور:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ـ١٠٧].

الكلامُ في هذه الآياتِ عن وراثةِ الأرض، ومستقبلِ عبادِ اللهِ الصالحين، وعمومِ بعثةِ الرسولِ ﷺ للعالمين.

وتتضمنُ الآياتُ وعداً قرآنياً بالتمكينِ للإسلام، ونصْرِ أَتْباعِه الصالحين.

وهذا الوعدُ ليس خاصّاً بالقرآنِ فقط، فقد وردَ في كتبِ اللهِ السابقة، وأُنزلَ على رسلٍ سابقين.

تخبرُ الآيةُ أنَّ هذا الوعدَ مذكورٌ في الزبور، وهو كتابُ اللهِ الذي أنزلَه على داودَ عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

والمرادُ بالذِّكْرِ في الآيةِ التوراة، التي أنزلَها اللهُ على موسى عليه السلام، وصفَها اللهُ بهذه الصفةِ في هذه السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقد كتبَ اللهُ في التوراةِ والزبورِ أنه يورِثُ أرضَه لعبادِه الصالحين، ويجعلُ العاقبةَ للمتقين.

وقد وردَ هذا الوعدُ صريحاً، في حديثِ سورةِ الأعرافِ عن ما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون. وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨ـ١٢٩].

الإيمانُ بالله، والاستعانةُ به، والصبر، طريقٌ وسبيلٌ لوراثةِ الأرض، لأنَّ الأرضَ لله، يورثُها عبادَه المؤمنين الصابرين، ويجعلُ العاقبةَ للمتقين.

هذا وعدُ اللهِ الذي كتبَه في التوراة، وهو وعْدُه الذي كتبَه في الزبور، وكتبَه في القرآن.

لماذا الوعد في الزبور؟:

وذكرُ الزبورِ في الآيةِ مقصودٌ ومراد، لأنّه أنزلَه اللهُ على داودَ عليه السلام، وكان داودُ ملكاً على بني إسرائيل، ورسولاً لهم، وأنشأَ لهم مملكةً كبيرة، زادت امتداداً وقوةً في فترةِ حكْمِ ابنِه الرسولِ الملكِ سليمان، عليهما السلام، وكان حكمُهما في الأرضِ المقدّسة.

ويتباهى اليهودُ ويتفاخرونَ في فترةِ مُلْكِ سليمانَ وداودَ عليهما السلام، ويَزعمون أنهما أقاما في الأرضِ المقدّسةِ حكماً يهودياً، وأنَّ اللهَ أعطى الأرضَ المقدّسة (فلسطين) لليهود إلى الأبد!.

وآياتُ سورةِ الأنبياءِ تكذِّبُهم، حيثُ تذكُرُ بعضَ ما كتبَه اللهُ في الزبور، النازلِ على داودَ عليه السلام، وهو يتناقضُ مع ما يزعمُه اليهود.

الأرضُ لله، هو الذي يَملكُها في الحقيقة، ويُمَلِّكُها لمن يشاءُ من عبادِه، وفقَ إرادتِه وحكمتِه، ويورثُها عبادَه المؤمنين المتقين الصالحين، فيأخُذونَها من أيدي الآخرين.

وراثة الأرض للعابدين:

وهذا الوعدُ في الآيةِ بلاغٌ لقومٍ عابدين متّقين، يسمعونَه ويُبلِّغونَه، ويَثقونَ به، ويُحققون شروطَه لينالوه.

وقد تلقّى الصحابةُ هذا الوعدَ القرآنيَّ، وهم مستَضْعَفونَ معذَّبون في مكة ـ لأنَّ سورةَ الأنبياءِ مكية ـ فوثقوا به، وأَيْقَنوا أنّه لا بدَّ من تحقّقِه وإنجازِه، ولهذا كانوا يستقبلون أذى واضطهادَ الكافرين، وهم على يقينٍ من وراثتِهم للأرض، وأنه لا بدَّ منْ أنْ يزولَ الكفرُ عن مكةَ وغيرِها، ولا بدَّ من أَنْ ينتشرَ فيها الإسلام، ويرثَها المسلمونَ الصالحون. . وهذا ما تحقّقَ بعدَ أكثر من عشرِ سنوات من نزولِ هذه الآيات.

ثم قامَ الصحابـةُ المجاهِدون بجهادِهم الكبيـر، في بلادِ الشامِ والعراقِ ومصر وفارس وغيرها، ونَشَروا فيها الإسلام، وورثوها بأمْرِ الله، وتحقّقَ على أيديهم الوعدُ القرآنيُّ الناجز: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ﴾.

وبمناسبةِ الحديثِ عن وراثةِ عبادِ اللهِ الصالحين للأرض، يأتي تقريرُ عمومِ رسالةِ الرسولِ محمد ﷺ للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾. وهذا وعدٌ قرآنيٌّ آخر، بانتشارِ رسالتِه في العالمين، واستمتاعِ الناسِ برحمةِ الله.

وتقريرُ هذا الوعدِ والمسلمون مستضعَفون في مكة، ملأَ قلبَ الرسولِ ﷺ ثقةً ويقيناً بنصرِه وانتشارِ دينِه.

والآياتُ الأخيرةُ من سورةِ الأنبياءِ تأكيدٌ قاطعٌ على إنجازِ هذا الوعدِ القرآني، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨ ـ ١١٢].

* * *

الفَصْل التَاسِع

الوعد القرآني في سورة الرّوم

سورةُ الرومِ مكية، كان نزولُها في منتصفِ عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ في مكة، التي استمرَّتْ ثلاثَ عشرةَ سنة، وسُميتْ بهذا الاسمِ لورودِ كلمة (الروم) فيها. وهي دولةُ (الروم) القوية، التي كانت أقوى دولةٍ في العالمِ عصرَ نزولِ القرآن، وتتنازعُ السيطرةَ على العالمِ القديمِ مع دولةِ الفُرسِ المجاورة لها.

وتحدّثَت الآياتُ الأُولى من السورة، عن الحربِ بين الفرسِ والروم، وأشارتْ إلى هزيمةِ الروم أمامَ الفرسِ في جولةٍ سابقة، وأخبرتْ عن انتصارِ الرومِ على الفرس، خلالَ بضْعِ سنين.

وقد تحدَّثْنا عن جزمِ آياتِ السورةِ بنبأ مستقبلي، حدَّدَتْ له بضعَ سنين، وقد وقعَ في نهايةِ المدة التي حدّدَتْها الآيات، وأشرنا إشارةً سريعةً إلى ذلك، في مبحث (تحقق الأخبار المستقبلية في القرآن).

وحديثُنا هنا عن تحقّقِ الوعدِ القرآني الذي قَرّره مطلعُ السورة، وعن الوعدِ القرآني في آخرِ السورة.

الوعد بانتصار الروم على الفرس:

أولاً: قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٧].

المعنى الإجماليُّ لهذه الآياتِ هو: أخبرت الآياتُ عن هزيمةِ الرومِ أمامَ خصومِهم الفرس، في المعاركِ التي وقعَتْ في أدنى الأرض، وأقربها إلى الجزيرة

العربية. . ثم جزمت الآياتُ أنَّ الرومَ سيهزمونَ الفرسَ، بعد انهزامِهم أمامَهم، وأنَّ انتصارَ الروم على الفرسِ سيكونُ في بضْعِ سنين، وأقصى مدةٍ لها ستكونُ تسع سنوات، لأنَّ البضعَ من الثلاث إلى التسع.

وفي الوقتِ الذي سينتصرُ فيه الرومُ على الفرس، سينصرُ اللهُ المسلمينَ أيضاً، وبذلك سيفرحون بنصْرِ الله الذي مَنَّ به عليهم. وهذا وعدٌ قاطعٌ نافذٌ من الله، لا بدَّ أنْ يتحقّق، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ وعْدَه.

وقد كانت الحروبُ طاحنةً مستمرةً بين الدولتيْن القويتيْن: الروم والفرس، وكان من أعنفِها الحربُ التي وقعَتْ بعدَ بعثةِ رسولِ الله ﷺ.

ففي منتصفِ عهدِ الدعوةِ في الفترةِ المكية، شَنَّ الفرسُ حرباً قويةً ضدَّ الروم، حيثُ توجَّهوا غرباً فاحتلّوا بلادَ الشام، ودخلوا بيتَ المقدس سنة (٦١٤م)، وتوجَّهوا شمالاً فاتحين مختلفَ المدنِ الرومية، حتى حاصَروا العاصمة القسطنطينية.

وسمعَ العربُ أخبارَ هزيمةِ الرومِ أمامَ الفرس، وكان هذا في السنةِ السادسةِ للبعثة، فحزنَ المسلمونَ لهزيمةِ الروم، لأنّهم أهلُ كتاب، بينما فرحَ المشركونَ لانتصارِ الفرس، لأنهم مثلهم يعبدون الأوثانَ والنار، ويُشركونَ بالله.

وأنزلَ اللهُ في تلك السنةِ سورةَ الروم، وفيها الخبرُ بانتصارِ الفرس، والوعدُ بانتصارِ الرومِ عليهم في بضعِ سنين. ولم يكنْ في الأُفُقِ ما يدلُّ على قربِ انتصارِ الروم على الفرس، فالرومُ مهزومون، وجيشُهم محطّم، والفرسُ يحاصرونَ القسطنطينية، فكيفَ يجزمُ القرآنُ أنَّ الرومَ المغلوبين سينتصرون على الفرس، الغالبين في بضع سنين؟.

مراهنة أبي بكر للمشرك على انتصار الروم:

تلقَّى المسلمون هذا الوعدَ القرآنيَّ باليقين، وصاروا ينشرونَه بين المشركين، وكانَ من أكثرِهم فَرَحاً أبو بكر الصدّيق، الذي صارَ يُنادي في شوارعِ مكة أنَّ الرومَ سينتصرون على الفرسِ في بضعِ سنين.

واستبعدَ المشركونَ ذلك وأنكروه، وأمامَ جزْمِ أبي بكر بتحقّقِه جاءَ أَحَدُ

المشركين لمراهنتِه، فراهنَه أبو بكر، على أنَّ الرومَ سينتصرونَ على الفرسِ بعدَ خمسِ سنين، فإنْ لم يتحقّقْ ذلك، دفعَ أبو بكر لصاحبِه عدداً من الإبل، وكان هذا قبلَ تحريمِ الرهان في الإسلام، لأنّه حُرِّمَ بعد الهجرة.

وانقضت السنواتُ الخمس، ولم ينتصرِ الروم، وجاءَ الرجلُ يطالبُ بالرهانِ، وأخبرَ أبو بكر رسولَ الله ﷺ بالأمْر، فأمَرَه أنْ يجعلَ المدةَ تسعَ سنين، لأنّ الآيةَ حدّدَتْها ببضعِ سنين، والبِضْعُ من الثلاثِ إلى التسع، ففعلَ أبو بكر رضي الله عنه.

وفي السنةِ التاسعةِ لنزولِ الآيات، قامَ هرقلُ قيصرُ الرومِ بحربٍ عنيفةٍ، هَزَمَ فيها الفرس، ودخلَ عاصمتَهم المدائن، وبذلك تحقّقَ الوعدُ القرآني، وكسب أبو بكر الرهان، وكان هذا سنةَ (٦٢٣م).

لقد حدّدت الآيات موقعَ المعركة، التي هُزمَت فيه الروم: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾.

والأدنى هو الأقرب، والمرادُ به الأرضُ الأقربُ إلى أهلِ مكة، الذي أنزلَ اللهُ إليهم الآيات. والأرضُ الأدنى إلى أهلِ مكة هي بلادُ الشام، والمتاخمةُ للجزيرةِ العربية.. وقد احتلَّ الفرسُ الأرضَ الأدنى للجزيرةِ العربية، ودخلوا القدس سنة (٦١٤م).

في الآيات وعدان تحققا:

ونرى أنَّ الآياتِ الأولى من سورةِ الرومِ تضمّنَتْ وعدَيْن اثنَيْن، وليس وعداً واحداً، وهذان الوعدان تحقَّقا في سنةٍ واحدة.

الوعدُ الأولُ: انتصارُ الرومِ على الفرس، بعد بضعِ سنينَ من هزيمتهم أمامهم. وهو ما جزمَ به قولُه تعالى: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾.

وقد تحققَ هذا الوعدُ في السنةِ التاسعةِ لنزولِ الآيات، وكان ذلك سنة (٦٢٣م)، حيث دخلَ هرقلُ المدائنَ عاصمةَ الفرس.

الوعدُ الثاني: انتصارُ المسلمين على المشركين، في المعركةِ الأولى

الفاصلة، في غزوةِ بدر، وهو الذي أخبرَ عنه قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لقد كانتْ غزوةُ بدرٍ في السنةِ الثانيةِ من الهجرة، بعدَ تسعِ سنواتٍ من نزولِ سورةِ الروم، الذي كانَ في السنةِ السادسةِ من البعثة.

بين الغلبة والنصر:

لا تسمى غلبةُ الرومِ على الفرس نصراً من الله، لأنَّ نصْرَ اللهِ كرامةٌ وتشريفٌ منه، ولا يكونُ هذا النصرُ إلا لعبادِ اللهِ المؤمنين الصالحين، والرومُ ليسوا عباداً مؤمنين صالحين! صحيحٌ أنّهم نصارى أهلُ كتاب، وأنهم أقربُ للمسلمين من الفرسِ عبدةِ النار، لكنّهم ليسوا مؤمنين، ولذلك أخبرت الآياتُ عن كسبهم المعركَةَ بلفظ الغلبة: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾. وفرقٌ بين الغلبةِ والنصر، لأنَّ للنصرِ ظلالَ التكريم والتشريف من الله، وهذا خاصٌّ بالمؤمنين الصالحين!.

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ينطبقُ على نصْرِ اللهِ للمؤمنين في غزوةِ بدر، ولا ينطبقُ على غلبةِ الرومِ على الفرس.

وهو يتفقُ مع قولِه تعالى في غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ومن تقدير اللهِ الحكيمِ العليمِ، أن يتحقّقَ الوعدان في سنةٍ واحدة، هي سنة (٦٢٣م)، وهي السنة الثانية للهجرة، تغلّب فيها الرومُ على الفرس، وانتصرَ فيها المسلمونَ على المشركين في غزوة بدر.

واللطيفُ في الآياتِ التي تحدَّثَتْ عن الوعدَيْن أنها رَبطت الأُمورَ كلَّها بيدِ الله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾. فاللهُ يدبِّرُ أَمْرَ الكونِ كلِّه، ويُقدرُ كلَّ شيء يَجري فيه، ولا يقعُ حَدَثٌ سياسيٌّ أو عسكريٌّ إلاّ بأَمْرِ الله، ولا تنشبُ معركةٌ إلاّ بأمرِ الله، ولا تغلبُ دولةٌ غيرَها إلاّ بأمرِ الله.

نظرة المؤمنين والكافرين إلى وعدِ الله:

ونصّت الآيـاتُ على أن غلبـةَ الـرومِ للفرس، وانتصارَ المسـلمين على

المشركين، وعْدٌ من اللهِ الحكيم الخبير، واللهُ لا يُخلفُ وعْدَه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. والمؤمنون يتعاملونَ مع وعْدِ اللهِ باليقينِ والثقة، ويَجزمونَ بأنَّ اللهَ منجزٌ وعْدَه.

أما الآخرونَ فإنهم يشكّونَ في وعْدِ الله، لأنهم لا يعلمونَ قدرةَ اللهِ المطلقة، وأنه سبحانه فعّالٌ لما يُريد، ولا يُعجزُه شيء في الأرضِ ولا في السماء: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

لقد كان المشركونَ في مكةَ يستبعدونَ انتصارَ الرومِ على الفرسِ في بضعِ سنين، لأنَّهم حلَّلوا الأحداثَ تحليلاً مادياً بشرياً، وهذا التحليلُ الماديُّ يجعلُ من المستحيلِ انتصارَ الرومِ بعدَ تسعِ سنين، وهم الدولةُ المهزومة، التي تحطّمَ جيشُها، واحتُلَّتْ بلادُها، وحوصرتْ عاصمتُها!.

لكنَّ المسألةَ في التحليلِ الإيمانيِّ لها بُعدٌ آخر، فإذا أرادَ اللهُ تقويةَ الرومِ المهزومين في بضعِ سنين فعل، وهيأ لذلك الأسباب، وإذا وَعَدَ بذلك أَنجزَ وعْدَه!.

وكان المشركونَ في مكة يستبعدونَ انتصارَ الصحابةِ المستضعفين عليهم، لأنَّ قوةَ الصحابةِ لا تُذْكَرُ أمامَ قوتِهم، وذلك وفقَ التحليلِ الماديِّ البشري القاصر. أما في التحليلِ الإيمانيِّ فليسَ الأمرُ مستبْعَداً أو مستحيلاً! لأنَّ اللهَ إذا أرادَ شيئاً فعلَه، وإذا وعدَ بشيءٍ أنجزَه، ولذلك نصرَ الصحابة في بَدْرٍ، مع كونِهم أذلة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

الصبر على انتظار تحقق وعد الله:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٥٨ ـ ٦٠].

ذَكَرَ اللهُ أمثلةً عديدةً منوعةً في القرآن، وفصَّلَ فيه الآيات، ونَوَّعَ فيه الحججَ والأدلّةَ والبراهين، ليفهمَها الناسُ ويَعوها، ويُحسنوا التعاملَ معها.

ولكنَّ الكفارَ جاهلون، مطبوعٌ على قلوبهم، يُقابلونَ الأمثالَ والآياتِ

القرآنيةَ بالعنادِ والإصرار والتكذيب! وإذا قُدّمتْ لهم خوارقُ ومعجزاتٌ لا يُصدقون بها، ويتّهمون الرسولَ ﷺ بأنه ساحرٌ سَحَرَهم، وأنَّ المسلمين على باطل: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

وقد أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بالصبرِ على عنادِ وتكذيبِ المشركين، وحربِهم وعداوتِهم له، فالصبرُ زادٌ عظيم، يتزوّدُ به الرسولُ ﷺ، إلى أنْ يحكمَ اللهُ بينه وبين أعدائه.

عدم استعجال تحقق وعد الله:

وبعد الأمرِ بالصبر، تؤكدُ الآيةُ تحققَ وعْدِ الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ والمرادُ بوعْدِ اللهِ هنا، وعْدُه سبحانه بانتصارِ الحقِّ وأهلِه، وهزيمةِ الباطلِ وأهلِه.

ومعنى أنه حقّ، أنه سيتحقّقُ في عالمِ الواقع، وسيرى الناسُ انتصارَ المؤمنين، وهزيمةَ الكافرين.

واللطيفُ أنه بعد تقريرِ تحققِ وعْدِ اللهِ بالنصر، جاءَ التحذيرُ من الذين لا يوقنون بهذه الحقيقة: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾. فالذين يَشُكّونَ بوعدِ اللهِ، أو يستَبْعِدونَ وقوعَه، قد (يستخفون) بالمؤمنين، ويقذفونَ في قلوبهم اليأس، أو يدفعونَهم لبعضِ الأعمالِ والتصرفاتِ المرتجلةِ المندفعة، التي تقودُ إلى نتائجَ خاطئة، والسببُ في ذلك هو استعجالُ تحققِ وعْدِ الله.

على المؤمنِ أنْ يوقنَ بأنَّ وعْدَ اللهِ حق، وأنه لا بدَّ أن يتحقَّقَ، وأنْ يصبرَ على انتظارِ تحقّقه، وأنْ لا يتعجّلَ وقوعَه، وأنْ لا يستخفَّه أو يستفِزَّه المتعجّلون، وأنْ يَدَعَ الأَمْرَ إلى حكمةِ اللهِ الحكيمِ الخبير، الذي يحققه متى شاء سبحانه!.

* * *

الفَصْل العَاشِر

الوعد القرآني في سورة القمر

سورةُ القمرِ مكية، نزلَتْ في جَوٍّ اشتدادِ أذى قريشٍ للمسلمين، وتكذيبِهم لرسولِ الله ﷺ. وكان المسلمون في مكةَ قلائل مستضعفين، يستقبلونَ أذى واضطهادَ وتعذيبَ الكفارِ بصبرٍ وثبات.

وكان من أهدافِ سورةِ القمرِ تثبيتُ المؤمنين على الحقّ، وتعريفُهم بطريقِ الدعوة، ودعوتُهم إلى الصبر، وتبشيرُهم بالفرَج، وملءُ قلوبِهم ونفوسِهم بالأملِ الكبيرِ بالنصر.. وتهديدُ الكافرين الظالمين بالعذاب، عن طريق عرضِ بعضِ النماذج والأمثلة، لمن سبقَهم من الكافرين، ليَعْتَبروا ويتَّعِظوا، ويتخلَّوا عن ما هم فيه من كفرٍ وطغيان.

موضوع السورة:

بدأت السورةُ بالحديثِ عن معجزةٍ باهرة، معجزةِ انشقاقِ القمرِ أمامَ المشركين، وتكذيبِهم بها، وزعمِهم أنها سِحْرٌ لا حقيقةَ له، وتهديدِهم بالعذاب.

ثم عرضتْ مشاهدَ سريعةً من قصصِ الأنبياءِ السابقين، مع أقوامِهم المكذّبين، كان التركيزُ فيها على كفرِهم وتكذيبِهم واستهزائِهم، ثم إهلاكِهم وتدميرِهم.

والأقوامُ الذين تحدَّثَتْ عنهم آياتُ السورة: قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون.

وعقبت السورةُ على إهلاكِ كلِّ قومٍ منهم بآية: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ التي ذكرت أربع مرات [آيات: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

والتعقيبُ بهذه الآيةِ على القصصِ الأربعِ مقصود، الهدفُ منه تقريرُ حقيقةِ

تيسيرِ القرآنِ للذكر، وهذه من أهمِّ خصائصِ القرآن، فاللهُ يَسَّرَ تـلاوتَه وفهمَـه وحفظَه وتطبيقَه، كما يسَّرَ التذكُّرَ والعبرةَ والعِظة، بما يَعرِضُ فيه من قصصٍ وأمثلةٍ، ونماذجَ وحوادث، وسننٍ وحقائق.

وتحثُّ الآيةُ على التذكّرِ والاعتبار: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. أي: هل يوجدُ شخصٌ واعٍ بصير، يقفُ عند العظاتِ القرآنيةِ متدبّراً متذكّراً؟!.

و﴿مُّدَّكِرٍ﴾: اسمُ فاعل على وزن (مُفْتَعِل)، فعلُه الماضي خماسي هو: (ادَّكَرَ) على وزنِ (افْتَعَلَ). وقد وردَ هذا الفعلُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٤٥].

وأساسُ: (ادَّكَرَ): اذْتكَرَ، على وزنِ: افْتَعَلَ.

الثلاثي منه: ذَكَرَ. أُدْخِلَت تاءُ الافتعالِ لمزيدٍ من التأكيد، فصارَ اذْتكَرَ، وأُبدلت التاءُ دالاً للتسهيلِ، فصارت: اذْدَكَر. وأُدغمت الذالُ في الدالِ إدغامَ المتقاربَيْن، فصارَت: ادَّكَر. واسمُ الفاعل منها: مُدَّكِر، على وزن: مُفْتَعِل!.

تهديد الكفار بالهزيمة:

وبعدما انتهت آياتُ السورةِ من الحديثِ عن الهالكين، الْتَفَتَتْ إلى كفارِ قريش، وهدَّدَتْهم بالعذاب، وتوعَّدَتْهم بالهزيمةِ أمامَ المسلمين، ووعدت المسلمين بالنصرِ عليهم، قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٤٣ ـ ٥٣].

الخطابُ في قولِه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ لكفارِ قريش، والهمزةُ في ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ للاستفهامِ الإنكاريّ، والآيةُ تُنكرُ على كفارِ قريشٍ عدمَ اعتبارِهم بما جرى للكافرين السابقين.

و﴿أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾: اسمُ إشارةٍ للبعيد، والمرادُ به الكفارُ السابقون المذكورون

في ما سبقَ من آياتِ السورة، وهم قومُ نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون.

تسألُ الآيةُ كفارَ قريش: لقد سمعْتُم عن إهلاكِ الكفارِ السابقين، فلماذا لم تتّعظوا وتَعتبروا؟ هل كفّاركم خيرٌ من أولئك الكفارِ السابقين؟ وهل أنتم أقوى منهم؟ لستُم خيراً منهم، ولستُم أقوى وأكثر أموالاً وأولاداً منهم!.

وقد ذكَرَتْ هذه الحقيقةَ آياتٌ عديدة، منها قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦].

وبما أنَّ الكفارَ السابقين أقوى من كفارِ قريش، ولم تدفَعْ عنهم قوتُهم العذابَ، فإنَّ كفارَ قريش أكثرُ ضعفاً وعَجْزاً عن دفعِ العذاب، فلماذا لا يَعتبرونَ ويتخلَّون عن كفرِهم؟.

وتسألهم الآيةُ سؤالاً ثانياً: ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ والمرادُ بالزُّبُرِ هنا: الكتبُ الربانيةُ التي أنزلَها اللهُ على رسله، مفردُها (زبور) بمعنى كتاب.

والمعنى: لماذا أنتم آمِنون من العذابِ مع كفرِكم وتكذيبِكم؟ هل أعطاكُم اللهُ أماناً وبراءةً في كتبه؟. الجوابُ بالنفي، فلا يملكون تلك البراءة، لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّ في كتبه كافراً على كفره، ولا يُعطيه الأمانَ بالنجاةِ إنْ وقعَ به عذاب!.

وتُوجِّهُ لهم الآياتُ سؤالاً ثالثاً: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾. أي: هل يظنُّ كفارُ قريش أنهم متّفقون مجتمعون، وأنَّ تجمُّعهم وتعاوُنَهم واتفاقَهم يحققُ لهم النصر؟ ويدفعُ عنهم العذاب؟.

وتقذفُ الآياتُ الرعبَ في قلوبهم، وتهددُهم بالهزيمة: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾. أي: سيهزمُ جمعُ الكفار المجتمعين في المستقبل، عندما تنشبُ المعاركُ بينهم وبين المسلمين، وسيولّونَ الأدبارَ منهزمين.

وبعدَ جزمِ الآيةِ بهزيمةِ الكفارِ في الدنيا، توعَّدَتْهم الآيةُ التاليةُ بالعذابِ الشديدِ في الآخرة: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

وقدمتْ لهم الآياتُ التاليةُ مشهداً لذلِّهم وعذابهم في الآخرة: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾.

نصرُ المؤمنين وهزيمةُ الكافرين بقدر من الله:

وفي هذا السياقِ وما فيه من الوعدِ للمؤمنين، والوعيدِ والتهديدِ للكافرين، تقرِّرُ آيةٌ محكمةٌ حقيقةَ القَدَر. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾.

فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ مخلوق، خلَقَه اللهُ بقَدَرِه، وأَوجدَه في الزمانِ المحدَّد، والمكانِ المحدَّد، بحكمتِه سبحانه، فهو الذي يُقَدِّرُ الأشياءَ ويوجدُها.

ومن ذلك تحققُ الوعدِ بهزيمةِ الكفار، وانتصارِ المسلمين عليهم في الدنيا، فاللهُ الذي يحددُ الزمانَ والمكانَ والكيفية، بحكمتِه وقَدَرِه سبحانه.

وإذا جاءُ الوقتُ المحدّدُ، فإنّه سبحانَه يحقّقُ قَدَرَه ويُمضي إرادتَه، والأمرُ هينٌ عليه سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾. أيْ: نحققُ أَمْرَنا بكلمةٍ واحدة، هي كلمة: (كُن) فيوجَدُ الشيءُ الذي أردناه كلمح البصر. وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وعادت الآياتُ إلى تهديدِ كفارِ قريش: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾. أيْ: أهلكْنا أشباهَكم وأمثالَكم من الكفار السابقين، كعادٍ وثمودَ ومدين، فهل منكم مَنْ يتذكَّرُ ويتّعظُ ويَعتبر؟.

وتستمرُّ الآياتُ في تهديدِ كفارِ قريش، بإخبارِهم أنَّ كلَّ شرٍّ وسوءٍ وكفرٍ وتكذيبٍ حصلَ من الكفار وصدرَ عنهم، فإنَّ اللهَ قد سجَّلَه وأحصاه، وأثبتَه في الزبرِ والكتب، التي يُثبتُ فيها أفعالَ الناس، صغيرَها وكبيرَها: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾.

وعد المؤمنين بالنصر على الكافرين:

والتهديدُ الصريحُ للكفار في قوله: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾. وهذا وعيدٌ لهم، بهدفِ قتْلِ هممِهم، وإضعافِ عزائمِهم، وتحطيمِ معنوياتِهم، وهو ضمنَ (الحربِ النفسية) التي يشنُّها القرآنُ على الأعداءِ بقوةٍ وجدارة، ويهزُّ فيها نفسياتِهم، ويقضي على إراداتهم!.

وتقدمُ هذه الآية وعداً قرآنياً للمؤمنين، بأنّهم سوفَ يهزمون جمعَ قريشٍ في المستقبل، بحيثُ يولّي الكافرون الأدبار.

وهدفُ هذا الوعـدِ هو رفعُ معنويـاتِ المؤمنين، ومـلءُ نفوسِهم أمـلاً بالمسـتقبل، وتبشيرُهم البشرى المشرقةَ العظيمة، وبذلك يزدادون ثباتـاً على الحق، وتصميماً على تحدّي الباطل، وثقةً بأنَّ المستقبلَ لهم، وإعداداً للمرحلةِ القادمةِ من الصراعِ مع الكفار، وهي مرحلةُ قتالِهم وهزيمتِهم.

ولا ننسى أنَّ الصحابةَ تلَقَّوا هذا الوعدَ القرآني: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وهم مُستضعَفون في مكة، معذَّبون مضطهدون فيها.

لقد كانت القوةُ والغلبةُ وقْتَ نزولِ الآيةِ التي أَطلقَتْ ذلك الوعدَ للكفار، الذين هم قادةُ مكة وزعماؤُها، وبيدِهم الأمْرُ والمالُ والجاهُ والقرار، والناسُ أتبـاعٌ لهم.. بينما كان المسلمون في مكةَ أقليةً ضعفـاء، لا يملكـون مالاً ولا سلطاناً ولا متاعاً، إلا القليلَ من ذلك الذي لا يكادُ يُذْكَر.

وفي هذا الجوِّ الخاصّ، الذي لم تكنْ فيه القوّتان متكافئتَيْن ـ قوةُ الكفار وقوةُ المسلمين ـ حيث كانتْ قوةُ الكفار غالبةً مستعلية، وقوةُ المسلمين مبتدئة، تشقُّ طريقَها بصعوبة، وسطَ العقباتِ والحواجزِ التي يضعُها الكفارُ أمامَها.

في هذا الجوِّ ينزلُ اللهُ آيةً تقدّمُ وعداً لهذه القوةِ الإسـلاميةِ الناميـة، بأنّها سوفَ تقوى وتشتدّ، وتقفُ أمامَ قوةِ الكافرين، وتحطّمُها وتهزمُها!.

إنَّ الجزمَ بهذا الوعدِ القرآنيِّ يدلُّ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، لأنه لا يَجزمُ بشرٌ بهذا الجزم، لعدمِ وجودِ مؤشّرٍ ماديٍّ على هزيمةِ جمعِ الكفار، في تلك الفترةِ الزمنية المتقدمة، من بداياتِ عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ في مكة!.

ولما سمعَ الكفارُ الوعيدَ والتهديدَ في الآية، والجزمَ بأنهم سينهزمونَ أمامَ المسلمين ويولّونهم الأدبار، صاروا يسخَرون ويستهزِئون ويتندَّرون، ويَعتبرون ذلك مستحيلاً!.

أما المؤمنون فإنهم تلقَّوا عن الآية وعْدَها، واستبشَروا به، وأَيْقَنوا أنّه سيتحقّقُ لا محالة، وإنْ لم يعرفوا كيفَ ولا متى ولا أينَ سيتحقق؟.

وثقوا بتحقّق الوعد، وتركوا كيفية إنجازه وإمضائه إلى الله الحكيم الخبير.

متى حقق الله لهم وعده؟:

ومضت السنواتُ المكيةُ من عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ تِباعاً، وانتهت الفترةُ المكيةُ والقوةُ الماديةُ الغالبةُ لكفارِ قريش.. وهاجرَ المسـلمون إلى المدينـة، وأقاموا فيها كيانَهـم..

وبعدَ سنتيْن من الهجرة، جاءَ وقتُ إنجازِ الوعدِ القرآنيِّ الذي أطلقتْه آيةُ سورةِ القمر، قبلَ أكثرَ من تسعِ سنوات.

كان ذلك في غزوةِ بدر، في شهرِ رمضان من السنةِ الثانيةِ من الهجرة، وهي أولُ مـرةٍ يلتقي فيها الجمعان، جمعُ المؤمنين بقيادةِ رسـولِ الله ﷺ، وجمعُ المشركين بقيادةِ أبي جهل.

وكلُّنا يعرفُ نتائجَ غزوةِ بدر، التي نصرَ اللهُ فيها المسلمين، وهزمَ جمْعَ الكافرين القرشيين، الذين قُتِلَ منهم سبعون رجلاً، في مقدّمتِهم زعيمُهم أبو جهل وأُسِرَ سبعونَ آخرون، وفرَّ الآخَرون من الميدان، مولّين الأدبار.

ولْنقفْ أمامَ موقفِ الصحابةِ الإيجابيِّ من هذا الوعدِ القرآنيِّ، وإخبارِهم عن تحقّقِه على أرضِ بدر.

الرسول يسأل ربَّه إنجاز وعده:

روى البخاري [برقم: ٤٨٧٧] عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال ـ وهو في قُبَّةٍ له يومَ بدر: «اللهمَّ إنّي أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعْدَكَ، اللهمَّ إنْ شئتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليومِ أبداً».. فأخذَ أبو بكر رضي الله عنه بيدِه، وقال: حسْبُكَ يا رسولَ الله، فقد ألحَحْتَ على ربِّكَ! وهو في الدرع، فخرجَ وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

يُخبرُ ابنُ عباس رضي الله عنهما في هذا الحديث: أنَّ رسولَ الله ﷺ دعا اللهَ وتضرَّعَ إليهِ واستغاثَه، قُبَيْلَ خوضِ المعركة، ونَشَدَ اللهَ إنجازَ وعْدِه، ونَصْرَ العبادِ المؤمنين المجاهدين، لتستمرَّ عبادتُه في الأرض.

وأكثرَ الرسولُ ﷺ من تضرّعِه ودعائِه، حتى أشفقَ عليه أبو بكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه، وقالَ له: حسْبُكَ يا رسولَ الله، فإنَّ اللهَ منجزٌ لك ما وعد.

وعندما رجا الرسولُ ﷺ ربَّه إنجازَ وعْدِه. كان يتذكَّرُ آيةَ سورةِ القمر، التي نزلَتْ قبلَ بضع سنوات، بدليلِ أنه بعدَ تضرُّعِه، خرجَ من قُبَّتِه، وهو يثبُ في الدرعِ ويتلو الآيةَ نفسَها: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾. وهو مستبشِرٌ بتحققِ وعْدِ الله!.

وقد فصَّلَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه تضرُّعَ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بدرٍ بألفاظٍ أُخرى.

روى مسلم [برقم: ١٧٦٣] عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: حَدَّثَني عمرُ بن الخطاب، قال: «لما كانَ يومُ بدر، نظرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابُه ثلاثُمئة وتسعةَ عشرَ رجلاً، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يدَيْه، فجعلَ يهتفُ بربِّه: «اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدْتَني، اللهمَّ آتِني ما وعدْتَني، اللهمَّ إنْ تهلكْ هذه العصابة من أهلِ الإسلام لا تُعبدُ في الأرض».

فما زالَ يَهتفُ بربِّه، ماداً يدَيْه، مستقبلَ القبلة، حتى سقطَ رداؤُه عن منكبيه.

فأتاهُ أبو بكر، فأخذَ رداءَه، فألقاهُ على مَنْكِبَيْه، ثم التزمَه من ورائِه، وقال: يا نبيَّ الله: كفاكَ مناشدَتك ربَّك، فإنه منجزٌ لك ما وَعدَك..

فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]. فأمدّه اللهُ بالملائكة».

الرسولُ ﷺ - من خلالِ هذه الروايةِ - يهتفُ بربِّه، ويَدْعوه ويتضرّعُ إليه، ويَرجوه أنْ يُنجزَ له ما وعَدَه، ويؤتيهِ ما وعدَه، وهو الوعدُ الذي قرّرتْه آيةُ سورةِ القمر وأمثالِها، بانتصارِ المؤمنين وهزيمةِ الكافرين.

وقد أشفقَ عليه أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه، وطمأنَه أنَّ اللهَ منجزٌ له ما وعدَه.

لقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ على يقينِ أنَّ اللهَ سينجزُ له ما وعدَه، ولم يشكّ في ذلك لحظةً، لكنَّ دعاءَه وتضرُّعَه من بابِ الأخذِ بالأسباب، والدعاء إلى الله، لاستجلابِ موعودِ الله.

وكانَ أبو بكر رضي الله عنه على يَقين، بأنَّ اللهَ سينجزُ وعْدَه، لأنَّه لا يُخلفُ الميعاد، ويوقنُ بالنصرِ في المعركة، رغمَ عدمِ توازنِ وتكافؤ الجمعَيْن!.

عمر يخبر عن إنجازِ الوعدِ في بدر:

واللطيفُ أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه صارحَ عبدَ اللهِ بنَ عباس رضي الله عنهما، بما حدَّثَ به نفسَه، عند نزولِ الآيةِ المذكورة، حاملةً ذلك الوعدَ الرباني.

قال السيوطيُّ في [الدر المنثور: ٧/ ٦٨١]: «أخرجَ ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنزلَ اللهُ على نبيّه بمكةَ قبلَ يومِ بدر: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. فقالَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: يارسولَ الله! أيُّ جمعٍ سيُهْزَم؟.

فلمّا كان يومُ بدر، وانهزمَتْ قريش، نظرتُ إلى رسولِ الله ﷺ في آثارِهم مُصْلِتاً بالسيف، وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. وكانتْ ليومِ بدر».

وأخرجَ ابنُ جرير عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قال: لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ جعلْتُ أقول: أيُّ جَمْعٍ سيُهْزَم؟.

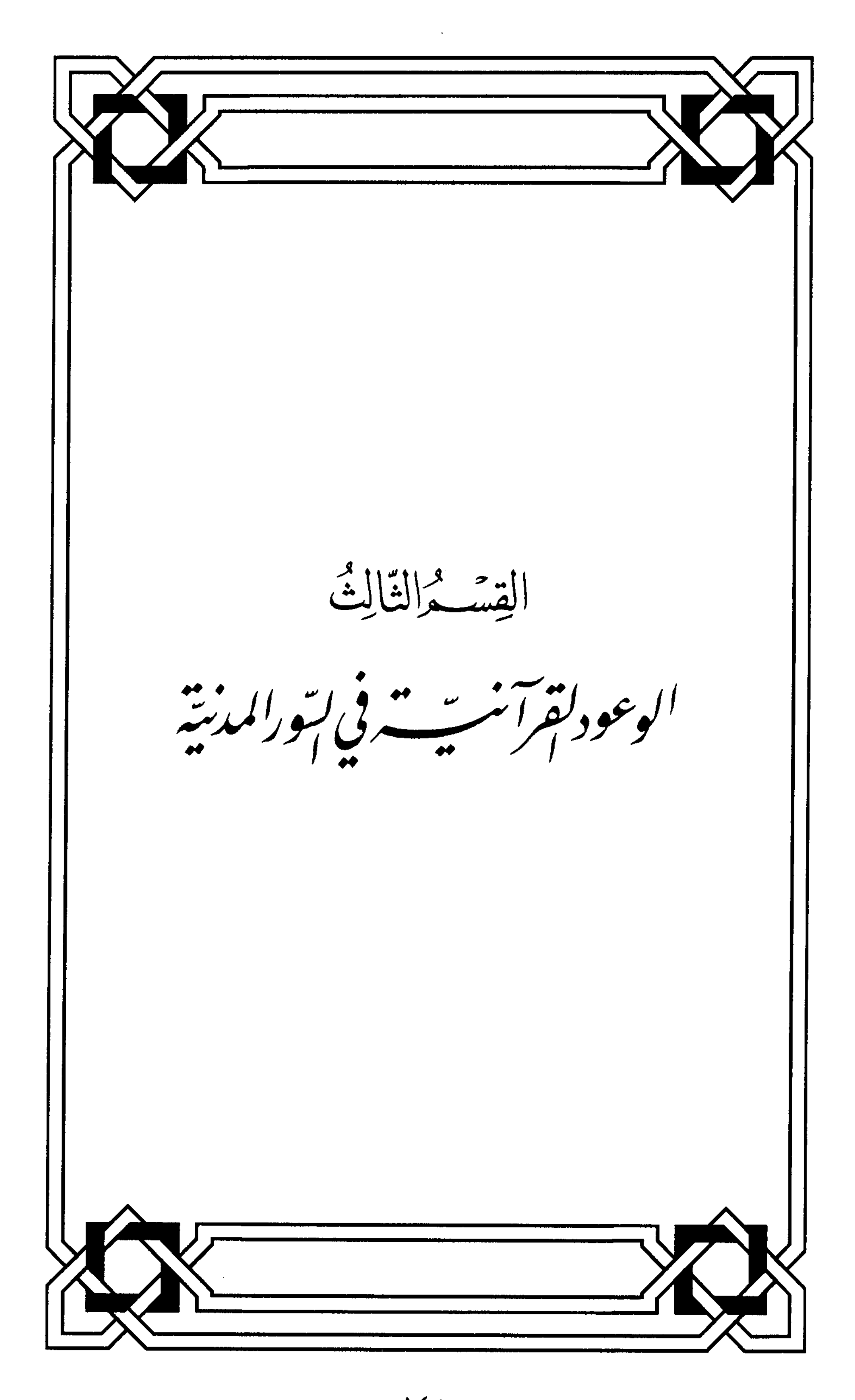
حتى كان يومُ بدر، رأيتُ النبيَّ ﷺ يَثِبُ في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، فعرَفْتُ تأويلَها يومئذٍ.

يخبرُ عمرُ رضي الله عنه أنّه لما أُنزلَت الآيةُ في مكةَ عرفَ معناها، وأيقَنَ بما فيها من وعْدٍ ربّانيٍّ قادم، وأنه لا بدَّ أَنْ يتحقَّق.. لكنَّه لم يعرف كيف ولا متى ولا أين! فآمَنَ بالوعد، وتركَ وقْتَ تحقيقِه لحكمةِ الله.

وبعدَ سنوات، وفي معركةِ بدر، سمعَ الرسولَ ﷺ يتلو الآية وهو يلاحقُ الكفارَ المنهزمين، فعرفَ أنَّ تحقيقَ ذلك الوعدِ كان في بدر.

واللطيفُ في كلامِ عمر رضي الله عنه، أنه اعتبرَ تحققَ الوعدِ النظريِّ في صورتِه العملية التطبيقية: (تأويلاً) للآية، لأنَّ التأويلَ هو بيانُ النهايةِ والمآلِ والمصير: «فعرفْتُ تأويلَها يومئذٍ»!.

* * *



القسم الثالث

الوعود القرآنية في السور المدنية

الفَصْلُ الأوَّل

الوعد القرآني في سورة البقرة

الأمة الوسط الشاهدة على باقي الأمم:

ذكرتْ آياتُ سورةِ البقرة وعوداً قرآنية، وتحقّقَت تلك الوعود؛ من تلك الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

أخبرَ اللهُ المسلمينَ في هذه الآيةِ أنّه جعلهم الأُمةَ الوسط، والحكمةُ من ذلك أَنْ يكونوا شهداء على الناس والرسولُ ﷺ شهيداً عليهم.

وتظهرُ (وَسَطِيَّةُ) الأُمةِ في كلِّ شيء. وسطيةُ المكانِ والموقعِ الجغرافي، فهي في وسطِ الكرةِ الأرضية، ووسطيةُ الزمان، فهي بعدَ اليهودِ والنصارى، والأهمُّ من هذا وسطيةُ المنهجِ والرسالة، فالإسلامُ هو الدينُ الوسط، والمرادُ بوسطية الإسلام (التوازنُ) بينَ مناهجه، و(الاعتدالُ) في تشريعاته، و(التكاملُ) بين توجيهاته، فلا إفراطَ فيه ولا تفريط، ولا مبالغةَ ولا تفلُّت، ولا غُلوَّ ولا تَهاون.

ووسطيةُ الأُمةِ في منهاجِها ورسالتِها جعلَ لها مهمةً حضاريةً كبيرة، ومسؤوليةً عالميةً خطيرة.

لقد جعلَ اللهُ الأُمةَ الوسَط شاهدةً على باقي الأُمم، وهي المرجعُ الأساسيُّ للأُمم، والحَكَمُ لما ينشبُ بينها من خلاف، والأَصلُ في هذه الأُمةِ الوسَطِ أَنْ تؤدّيَ شهادتَها، وتَقومَ برقابتِها، وتُحققَ ريادتَها وأُستاذيّتها.

وقد تحققَ هذا الوعدُ القرآنيُّ في عالمِ الواقع، عندما عاشت الأُمةُ بإسلامِها، وتحرّكتْ بقرآنها، واستقامَتْ على طريقِها، فقدّمتْ للعالمِ النورَ والهدى، والمدنية والحضارة، والمنهجَ والريادة.

وكانت الحواضرُ الإسلاميةُ مراكزَ إشعاع وهدى، في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغيرها، وكان الخليفةُ القويُّ مرهوبَ الجانب، مسموعَ الكلمة، وكانَ قادةُ العالمِ يتقرَّبون إلى النظامِ الإسلاميِّ القوي.

ولم تتحوَّل الأُمَّةُ في هذا الزمانِ إلى ذيلِ القافلة، إلا بعدما ابتعدَتْ عن إسلامِها، وقَلَّدَت الأُممَ الأُخرى في انحرافاتِها وسيئاتِها.

وما تعيشُه الأُمةُ الوسطُ الآن من ذلٍّ وضعفٍ وتبعيةٍ، لا يعني تخلُّفَ الوعْدِ القرآنيِّ لها، بالوسطية والأُستاذيةِ والشهادةِ والريادة، لأنَّ السببَ في ما تعانيه هو قصورُها وانحرافُها. والوعدُ القرآنيُّ ما زالَ قائماً وجاهزاً، ولكنه لا يَعملُ في حياةِ المسلمين، ولا يتحقّقُ فيهم، إلا إذا أَوْفوا هم بالعهد، وحقَّقوا الشرط، وأدّوا الواجب!.

المؤمنون فوق الكفار إلى يوم القيامة:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

تُعَرِّفُنا الآيةُ على حقيقةِ ما عليه الكافرون، فهم لا يؤمنونَ بالآخرة، ولذلك زُينتْ لهم الحياةُ الدنيا، وهم يؤمنونَ بها، ويعملونَ لها، وهي هدفُهم وسعْيُهم، ومحطُّ اهتمامِهم، تجدُهم حريصين عليها، مُقبلين على ملذّاتها ومُتعِها وشهواتِها.

ونظرتُهم للمؤمنين تقومُ على السخريةِ والتهكّمِ والاستهزاء، لا يعجبُهم المؤمنون في ترفُّعِهم عن متَعِ وشهواتِ الدنيا، وفي نظرتِهم للآخرة، وفي سعيِهم لها، وفي خوفِهم من الله، الذي يدفعُهم إلى تركِ ما حَرَّمَ الله.

وشتَّانَ بين المؤمنين والكافرين، فالفريقانِ لا يستويان، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وذَكرت الآيةُ حقيقةً قرآنيةً قاطعة، وقدّمَتْ وعداً قرآنياً مُنْجزاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

المؤمنون المتّقون فوقَ الكافرين، ويَبقونَ فوقَهم إلى يومِ القيامة. هذا ما

قدَّرَهُ اللهُ وأرادَه، ولا رادَّ لأمْرِه سبحانه.

والمرادُ بالفوقيةِ هنا فوقيةٌ معنويةٌ نفسية، وليستْ فوقيةً مكانيةً مادية. إنها فوقيةٌ تملأُ شُعورَ المؤمنين، فهم المتميّزون على الكافرين في كلِّ شيء، متميِّزون بدينِهم ومنهاجِهم، ومتميِّزون بمهمتِهم ووظيفتِهم ودورِهم، متميِّزون بأفكارِهم وتصوُّراتِهم، وبسلوكِهم وتصرُّفاتِهم، وبآمالِهم وتطلُّعاتِهم واهتماماتِهم. متميِّزون في دنياهم وآخرتِهم.. ولهذا يوقنُ المؤمنون أنهم أفضلُ من الكافرين، وأنهم الأعْلَوْن المتفوقون. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وشعورُ المؤمنين بأنّهم الأعلى، وأنهم فوقَ الذين كفروا إلى يومِ القيامة لا يَعني تكبُّرَهم على غيرِهم، لأنَّ التكبُّرَ محرَّمٌ في دينِ الله.

إنما يعني اعتزازَهم بالإسلام، وافتخارَهم بالانتسابِ إليه، وشكْرَهم للهِ على ما ميَّزَهم به، وحرْصَهم على الالتزامِ به، وقيامَهم بواجبِ الدعوةِ إليه، وتقديمَ نورِه إلى الذين يتخبَّطون في ظلماتِ الكفرِ والجاهلية.

كما يعني هذا استغناؤُهم بالإسلام، واكتفاؤُهم به، ويقينُهم بعدمِ حاجتِهم لغيره، ولذلك لا يأخذونَ من الكافرين شيئاً من أفكارِهم ومذاهبِهم، وقوانينِهم وتشريعاتِهم، وقيمِهم وعاداتِهم، وسلوكياتِهم وتصرّفاتِهم، لأنَّ هذا كلَّه نتاجُ كفرِهم، وانغماسِهم في الحياةِ الدنيا وإنكارِ الآخرة.

لا بدَّ أنْ يشعرَ المؤمنونَ بأنَّهم فوقَ الذين كفروا، فلا يجبُنوا ولا يضعُفوا أمامهم، ولا يذلّوا لهم.

وقد حققَ اللهُ للمسلمين وعْدَه، فجعلَهم فوقَ الذين كفروا، حيثُ نصرَهم عليهم، ومكَّنَ لهم في الأرض.

شرط كون المؤمنين فوقَ الكفار:

وكون المسلمين فوق الذين كفروا مشروطٌ بالتزامِهم الصادقِ الجادِّ بالإسلام، وتطبيقِه والحركة به، فإن أخلّوا بهذا الشرطِ فَقَدوا هذه الصفة، ونَزلوا عن هذه المنزلة، ولا يَرتقونَ إليها إلاّ إذا عادوا إلى إسلامِهم.

والمسلمونَ في هذا الزمانِ ليسوا فوقَ الذين كفروا، وإنما صاروا في أوضاعهم العامةِ دونَ الذين كفروا، وهم الذين جَنَوْا بذلك على أنفسِهم، وهم السببُ في ما أصابَهم، لأنَّه انفكَّتْ صلةُ كثيرين منهم بالإسلام، وضَعفَتْ صلةُ آخرينَ به، وبذلك لم يلتزموا بشرطِ الفوقيةِ المشروط.

ونحنُ على يقينٍ أنَّ المسلمينَ سيعودونَ عودةً جادّةً للإسلام، وبذلك يعودونَ إلى المنزلةِ العالية التي وضعهم اللهُ فيها، ورفعَهم إليها، وجَعلَهم فوقَ الذين كفروا.

نحن جازمونَ أنَّ هذا الوعدَ القرآنيَّ سيتحقَّقُ لهم في المستقبل، عندما يُغَيِّرون ما بأنفسِهم من سوء، كما تحقّق هذا الوعدُ لآبائهم الصالحين!.

إصابة المؤمنين بالبأساء والضراء:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

تتحدَّثُ الآيةُ عن طريقِ الدعوة، وضريبةِ الإيمانِ والالتزامِ والسيرِ في الطريقِ الموصلِ إلى الجنةِ.

والخطابُ في الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ للمسلمين، وإنَّ الآيةَ تُعرِّفُهم على ما ينتظرُهم من الابتلاءاتِ والمحن، في طريقِهم إلى الجنة، فطريقُ الجنةِ ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وهو ليسَ سَهْلاً معبَّداً، إنّه مليءٌ بالعَقَباتِ والأخطارِ والمفاجآت، وكلُّ مَنْ سارَ فيه لا بدَّ أنْ يُصيبَه الأذى والألم.

وللمسلمين في ذلك قدوةٌ وأسوةٌ بالمؤمنين الذين خَلَوا من قبلِهم، من أتباع الرسلِ السابقين، فقد عاشوا كثيراً من الابتلاءاتِ والمحن، أخبرَ اللهُ عنها بقولَه: ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾.

البأساءُ هي الشدة، والضراء هي الضّرُّ والألم، والزلزالُ قائمٌ على الإيذاءِ والابتلاءِ، والتهديدِ والتخويفِ، والحصارِ والمعاناة.

لا بدَّ أنْ يمرَّ المؤمنون بهذا الطريق، وأَنْ يذوقوا هذه الابتلاءاتِ والمحن، وأن يَدْفَعوا هذا الثمن.

وأكَّدتْ على هذا آياتٌ عديدة، منها قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

معنى التساؤل: متى نصر الله؟:

وبلغَ من شدةِ ما أصابَ المؤمنينَ السابقينَ قبلَ الإسلام أنَّ الرسولَ وأتباعَه كانوا يقولون: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾؟ فيأْتيهم الجوابُ محقِّقاً ومؤكِّداً قربَ وقوعِه: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

وقولُ الرسولِ وأَتْباعِه المؤمنين: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾؟ ليس شكّاً منهم، ولا إنكاراً لنصْرِ اللهِ لهم، ولا يأْساً أو ظنّاً أنَّ اللهَ تخلَّى عنهم، فهم موقنونَ بأنَّ اللهَ معهم، وأنّه سينصرُهم ويَهزمُ أعداءَهم.

إنَّ تساؤُلَهم ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾؟ تضرُّعٌ ودعاءٌ إلى الله، واستجلابٌ واستقدامٌ لنصْرِه، وإعلانٌ بأنّه قد أصابَهم الكثير، وقد تحمَّلوا الكثير، ودَفَعوا الكثير، وأنهم صابرون محتسبون، لكنهم يريدون أنْ ينْعَموا بالنصر.

الوعد بقرب نصر الله:

وقد علمَ اللهُ صدقَهم، في بذلِهم وصبرِهم وتساؤلِهم، فبشَّرَهم بقربِ وصولِ النصر إليهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

وقد أُكِّدَتْ هذه الحقيقةُ بعدَّةِ مؤكداتٍ في الآية. وهي: حرفُ الاستفتاح: (ألا). وحرفُ التوكيد: (إنّ). والجملةُ الاسميةُ بعدها: ﴿نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾. وإضافةُ النصرِ إلى اللهِ إضافةُ تشريفٍ له. وصيغةُ المبالغة: ﴿قريب﴾.

وهذا وعدٌ قاطعٌ من الله، صيغَ هذه الصياغة، وأُكِّدَ بهذه المؤكِّدات.

وكان الرسلُ السابقونَ وأَتْباعُهم واثقين من نصْرِ الله، وموقنين بقربِ تحقُّقِه وقدومِه، وقد أنجزَ اللهُ لهم وعْدَه، في الوقتِ الذي اختارَه سبحانه بحكمتِه، فأنجاهم من الهلاك، ودَمَّرَ أعداءَهم الكافرين.

وبمعنى هذه الآية قولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠].

وهذا وعْدٌ من اللهِ بنصْرِ عبادِه المؤمنين، الصابرين المجاهدين الصادقين، وهذا الوعْدُ ليسَ مقيّداً بزمان، ولا خاصّاً بمكان، ولا محصوراً بالرسلِ السابقين وأتباعِهم، إنما هو وعْدٌ مطلقٌ عامٌّ شامل، للمؤمنين المجاهدين الثابتين على اختلافِ الزمان والمكان.

نَصْرُ اللهِ قريبٌ من الرسلِ السابقين وأتباعِهم، وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه وأنزلَ عليهم نصْرَه، ونصْرُ اللهِ قريبٌ من رسوله محمد ﷺ وأصحابِه، وقد صَدَقَهم اللهُ وعْدَه، وأنزلَ عليهم نصْرَه.

وإنَّ نَصْرَ اللهِ قريبٌ من المؤمنين المجاهدين من هذه الأمة، وسيَصدُقُهم اللهُ وعْدَه، ويمنُّ عليهم بنصرِه، في الوقتِ الذي يحدّدُه، والكيفيةِ التي يختارُها.

ومن الواجبِ أنْ نوقنَ أنَّ اللهَ لا يحجبُ نصْرَه عن عبادِه المؤمنين المجاهدين الصادقين، لأنه جعلَ ذلك حقاً عليه، فقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].. ولكنَّ صورَ النصرِ وألوانَه عديدة، وليس محصوراً بالغلبةِ الماديةِ والانتصارِ العسكري. قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

استمرارُ قتال الكفار للمسلمين:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الآيةُ نازلةٌ في معالجةِ آثارِ قتْلِ مجموعةٍ من المجاهدين الصحابةِ رجلاً مشركاً في الشهرِ الحرام، وكان قتْلُهم له خطأً، وذلك في سَرِيَّةِ عبد الله بنِ جحش

رضي الله عنه . . وقد أثارَ كفارُ قريشٍ حرباً إعلاميةً دعائيةً ضخمةً ضدَّ المسلمين، واتّهموهم فيها بانتهاكِ حرمةِ الشهرِ الحرام، فأنزلَ اللهُ آيةً في رَدِّ شبهاتِهم وإشاعاتِهم، وتسجيلِ جرائمهم، وخَتَمَها بتقريرِ حقيقةِ استمرار حربِهم وقتالِهم للمسلمين. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وليستْ وقفتُنا أمامَ الآيةِ بكاملِها، وبيانِ معناها، واستخراجِ دلالاتِها، لأنَّ هذا لا يتفقُ مع موضوعِ هذا البحث، إنما وقفَتُنا مع الجزءِ من الآيةِ الذي يتحدّثُ عن استمرارِ الحربِ والمواجهةِ بين المسلمين والكافرين.

الخطابُ في قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ للمسلمين، والإخبارُ في الجملةِ عن الكفار.

وتخبرُ الآيةُ عن استمرارِ قتالِ الكفارِ للمسلمين بفعل ﴿لا يزالون﴾، الدالِّ على الاستمرار، وعدمِ التوقّفِ والانقطاع. وإذا ما أعلنَ الكفارُ رغبتَهم في وقفِ القتال، وحرصَهم على تحقيقِ «السلامِ العادلِ والشاملِ والدائم!»، فإنهم كاذبون في هذا الإعلان، يريدونَ منه خداعَ المسلمين؛ فالسلامُ الذي يريدُه الكفارُ هو الذي يضمنُ لهم إخضاعَ وإذلالَ واستعبادَ المسلمين، واحتلالَ بلادِهم، ونهبَ خيراتِهم ومواردِهم وثرواتِهم، وإبعادَهم عن إسلامِهم وقرآنهم.

وهدفُ الكفارِ من قتالِ المسلمين محدّدٌ في الآية: ﴿ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ فإذا ما حقّقوا هدفَهم، وأبعدوا المسلمين عن دينهم، توقّفَ قتالُهم لهم.

وعاشَ المسلمونَ في مختلفِ فتراتِ تاريخهم مصداقَ هذا الوعدِ القرآني، وابْتُلوا بقتالِ الكافرين المستمرِّ لهم. . ويعيشُ مسلمو هذا الزمانِ أمثلةً حادةً واضحةً من استمرارِ قتالِ اليهودِ والصليبيين لهم. ولن يتوقّفَ ذلك القتالُ إلاّ باستيقاظِ الإيمانِ والجهادِ في نفوسِ وحياةِ المسلمين، عند ذلك ينصرُهم اللهُ على أُولئك الكافرين!.

* * *

الفَصْلُ الثَّانِي

الوعد القرآني في سورة آل عمران

خسارة وحسرة الكفار:

في سورةِ آل عمران عدةُ آياتٍ، تتضمنُ وعوداً بهزيمةِ الكفار وانتصارِ المسلمين. من هذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٠ ـ ١٣].

تقررُ هذه الآياتُ حقيقةً قرآنيةً قاطعة، هي خسارةُ الكفارِ وحسرتُهم، فهم لا يُفلحونَ ولا يَنجحون، لا في الدنيا ولا في الآخرة. إنهم في الدنيا مهزومون مغلوبون هالكون، لا تنفعُهم أموالُهم ولا أولادُهم، ولا تدفعُ عنهم عذابَ الله، وفي الآخرةِ هم وَقودُ النار، مخلَّدون فيها.

وتقدّمُ الآياتُ نموذَجيْن من الكفار، تمثّلتْ فيهما هذه الحقيقة: نموذج آلِ فرعون، ونموذج كفارِ قريش.

آلُ فرعون والذين من قبلِهم، كَذَّبوا بآياتِ الله، وحاربوا رسلَ الله، وأشركوا بالله، وحارَبوا دينَ الله، فخابوا وخسروا، وأخذهم اللهُ بذنوبهم، وأهلكَهم ودمَّرهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم شيئاً.

هزيمة الكفار في بدر عبرة:

أما كفارُ قريش، فإنهم يعلمون ماذا جرى لهم على أرضِ بدر. ولذلك أَمَرَ

اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يقولَ لهم: أيها الكفار! لا جدوى من محاربتِكم للحقّ، فالحقُّ منصورٌ بإذنِ الله، والمؤمنونَ غالبونَ بإذنِ الله، وأنتم مهزومون فاشلون، ومغلوبون خاسرون، وفي الآخرةِ ستُحشَرون إلى جهنَّم، وبئسَ المهادُ والمصيرُ والقرار.

وتذكُرُ الآياتُ ما جرى في غزوةِ بدرٍ بين المسلمين وبين الكافرين، وتجعلُ ذلك آيةً وعبرة، وتُخاطبُ الناسَ قائلةً: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾.

الْتَقَت الفئتانِ على أرضِ بدر، ووقعَتْ بينهما أولُ معركةٍ بين الحقّ والباطل في تاريخ المسلمين. فئةُ المسلمين بقيادةِ رسولِ الله ﷺ، وكانتْ هذه الفئةُ تقاتلُ في سبيلِ الله، وفئةُ الكافرين بقيادةِ أبي جهل (عمرو بن هشام)، وكانتْ تقاتلُ في سبيلِ الطاغوت.

وكانَ الكافرونَ مِثْلَيْ عددِ المؤمنين: ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾. أيْ: يَرى المسلمونَ الكافرينَ مِثْلَيْهم، عندما ينظرونَ إليهم بعيونهم.

ومعلومٌ أنَّ عددَ الكفار في غزوةِ بدرٍ كان ضعْفَي عددِ المسلمين، فبينما كان عددُ المسلمين ثلاثمئة وبضعةَ عشرَ رجلاً، كان عددُ الكفارِ حوالي ألْف رجل.

ومع قلةِ عددِ المسلمين في غزوةِ بدر إلاّ أنَّ اللهَ نصرَهم على أعدائِهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وعد الله بنصر عباده المجاهدين:

ومن سنَّةِ اللهِ المطردة، أنه ينصرُ عبادَه المجاهدين على أعدائِهم الكافرين، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

ولا يَلتفتُ إلى هذه الآيات، ولا يَعتبرُ بما فيها من العِبَرِ والعظات، إلاّ أصحابُ البصائر الإيمانية.

ونأخذُ من هذه الآياتِ وعداً إيمانياً قرآنياً، بنصْرِ اللهِ لعبادِه المؤمنين المجاهدين، في أيةِ صورةٍ من صورِ النصر، التي يختارُها بحكمتِه سبحانه

وتعالى. ونتعاملُ مع الكافرين من اليهودِ والصليبيين وغيرهم على ضوء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾. ونوقنُ أنهم خاسرونَ في النهاية، في أيِّ معركةٍ يخوضونَها ضدَّ إسلامِنا العظيم.

ونخاطبُ هؤلاء اليهودَ والصليبيين بما أَمَرَنا اللهُ أنْ نخاطبهم: يا أيها الذين كفروا: ستُغْلَبون وتُحْشَرون إلى جهنّمَ وبئسَ المهاد، ولا فائدةَ لكم من محاربةِ الإسلام، فقد حاربَه كفارٌ قبلَكم، ففشلوا في القضاءِ عليه، واقرؤوا التاريخَ لتعتَبِروا.

أتباع عيسى فوق الكفار:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[آل عمران: ٥٥].

وهذا وعدٌ آخرُ لنصْرِ المؤمنين، والتمكينِ لهم في الأرض، وَعَدَه اللهُ عيسى ابنَ مريم عليه السلام، عندما كان عيسى عليه السلام يعيشُ الخطرَ المباشرَ من قِبَلِ اليهودِ والرومانِ، حيث أرادوا قَتْلَه وصلْبَه، فأنقذَهُ اللهُ ونجَّاهُ منهم.

وقبل أنْ يُنجيَهُ اللهُ منهم أوحى إليه أنه سيحميه ليطمئنَّ ويأْمَن، حيثُ قال له: يا عيسى إني سأتوفّاك، بأنْ أُلقيَ عليك النوم، وعندما تنامُ سأرفعُكَ إليّ، وأُصْعِدُكَ إلى السماء، وأنتَ نائم، وبذلك سأحميكَ وأُطهّركُ من الكافرين، الذين أرادوا قَتْلَكَ وصلْبَك.

وأنجزَ اللهُ لعيسى عليه السلام ما وَعَدَه، فأنجاهُ وطَهَّرَه من أيدي الكافرين اليهودِ والرومانيين.

ووَعَدَ اللهُ عيسى عليه السلام أنْ يجعلَ الذين اتَّبَعوه فوقَ الذين كفروا إلى يوم القيامة: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

من هم الذين اتبعوا عيسى عليه السلام:

والذين اتبعوه هم الحواريون والنصارى، الذينَ دَخلوا في دينِه، وكانوا مسلمين خاضعين لله، الذين قالَتْ عنهم الآياتُ السابقة: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

هم الذين آمنوا أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وصَدَقوا ما عاهَدوا اللهَ عليه، وصَبَروا على كلِّ ما صبَّ عليهم من صورِ العذابِ والاضطهاد.

وليس الذين اتَّبعوه الذين كفروا بالله، وأَلَّهوا عيسى عليه السلام، وقالَ فريقٌ: إنّه إلـه، وقال آخرون: إنّه ابنُ الله، وقال آخرون: إنّه ثالثُ آلهة ثلاثة، الآبِ والابنِ والروحِ القُدُس. هؤلاء كفارٌ بالله، وعيسى عليه السلام يتبرأُ منهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

والذين اتَّبَعوه حقاً وصِدْقاً أمةُ محمدٍ ﷺ، الذين آمَنوا أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ اللهِ ورسولُه، وأنزلَ اللهُ عليه كتابَه الإنجيل، وأحبّوه ووقَّروه، ودافعوا عنه ونزَّهوه، ونظروا له نظرةً إيمانيةً إيجابية، كنظرتِهم إلى كلِّ أنبياءِ اللهِ ورسلِه، عليهم الصلاةُ والسلام.

هؤلاء هم الذين اتّبعوه حقاً، وهؤلاء أعزَّهم اللهُ وأيَّدَهم، وجعلَهم فوقَ أعدائِه الكافرين، من اليهودِ الذين حاولوا قتْلَه، والنصارى الذين ألَّهوهُ وغالوا فيه، وبقيَ هؤلاء المؤمنون الصالحون الأعلى إلى يوم القيامة. كما قال اللهُ عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وَوَعْدُ اللهِ منْجَز، فالمسلمونَ أَتْباعُ عيسى عليه السلام الحقيقيّون فوقَ الكافرين، ظاهرونَ عليهم بالحجّة والمنطق، والإسلام ظاهرٌ بأدلّته وبراهينِه، ولا تقفُ أمامه فكرةٌ أو دعوة. و الداعيةُ العالمُ المفكِّرُ غالبٌ ظاهر، في أيِّ حوارٍ أو نقاشٍ أو ندوة، لأنَّ الحقَّ واضحٌ غالب، والباطلَ ضعيفٌ مغلوب.

الأمة المسلمة خيرُ الأمم:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١١٠ـ١١٢].

تبدأُ الآياتُ بتقرير حقيقة قاطعة، حولَ خيرية هذه الأمة، والخطابُ في الآية للأمة المسلمة، بجَميعِ أجناسها وشعوبها، فاللهُ الحكيمُ أخرجَ هذه الأمةَ للناسِ إخراجاً، وأنشأها على إسلامها، الذي ميَّزَها به، وعلَّقَ قوَّتَها وعزَّتَها على التزامِها به.

الأُمةُ المسلمةُ هي خيرُ الأُمم وأفضلُها، وهي الأمةُ الوسَط، الشاهدةُ على ما سواها من الأُمم، المتميزةُ عنها بالمنهج والرسالة. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وذَكرت الآيةُ وظيفةَ الأُمة، التي تميَّزَتْ بها، فكانَتْ خيرَ أمّة، وذلك في قولها: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.. فهي خيريةُ وظيفة ومهمة، تقومُ على الالتزامِ بالإسلام، والحركةِ به، والدعوةِ إليه، من خلالِ الإيمانِ بالله والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر.

حاجة الأمم المعاصرة لمنهاج الأمة المسلمة:

وأوضح ما تكونُ خيريةُ الأمةِ المسلمةِ في هذا الزمان، الذي شَهِدَ إقصاءَ الإسلامِ عنَ الوجودِ الفعليِّ المؤثِّرِ في بلادِ المسلمين، وإزاحةَ الأُمةِ المسلمةِ عن مكانتِها العالمية الحضارية، والذي شهدَ سيطرةَ الكفارِ على العالم، وقيادة الجاهليةِ للبشرية!.

رأَيْنا في هذا الزمانِ الأفكارَ والمذاهبَ الجاهليةَ الكافرة، وسيطرتَها على الناسِ، في أفكارِهم وتصوراتِهم، ومشاعرِهم وخواطرِهم، وأقوالِهم وأفعالِهم، وتصرفاتِهم وسلوكياتِهم، واهتماماتِهم ورغباتِهم.. رَأَيْنا السوءَ والخبثَ في ما تفرزُه وتُنتجُه الحياةُ الغربيةُ الجاهلية، في الفكرِ والعلم، والإنتاجِ والصناعة،

والمالِ والاقتصاد، والسياسةِ والاجتماع، والخُلُقِ والسلوك.. رأَيْنا القيمَ والمبادئ الشيطانيةَ تُغرقُ البشريةَ في أوحالِ الإباحيةِ والشهوات.. وتُحَوِّلُ الرجالَ والنساءَ إلى حيواناتٍ، عبيدٍ للشهوةِ والهوى والشذوذ!!.

لقد حَوَّلَ الجنسُ والمخدّراتُ الأممَ إلى (شرِّ) أُمَمٍ عاشتْ على وجْهِ الأرض، ومَسَخَتْ فيها إنسانيةَ الإنسان، وسحقَتْه إلى أدنى من مرتبةِ الحيوان.. وصارَ البقيةُ من العقلاءِ عند الغربيّين يَبحثونَ عن الرصيد المتبقي من الإنسانية عندَ الإنسان الغربيّ الكافر المعذَّب، فلا يجدونَ لها أثراً.

مما جعلَ البشريةَ بأمَسِّ الحاجةِ إلى هذه الأُمةِ المسلمة، الخيِّرةِ الفاضلة، المتميّزةِ بأخلاقِها ورسالتها، لتُعيدَ للبشريةِ المعذَّبةِ إنْسانيّتَها المسلوبة.

هدف الكفار القضاء على المسلمين:

وأهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى يَحسدونَ هذه الأُمة، ويَحقدونَ عليها بسببِ خيريّتِها، ولذلك كَفروا بدينِها، ولو آمنوا به وكانوا مسلمين لكانَ خيراً لهم: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ولم يكتفوا بالكفر، وإنّما أعلنوها حرباً شرسةً عنيفةً ضدَّ هذه الأمة، على مَدارِ قرونِ التاريخِ الإسلامي، بهدفِ ردةِ المسلمين عن دينهم، كما قالَ اللهُ عنهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقد جَزَمَ اللهُ أنّهم لن يحقّقوا هدفَهم هذا ضدَّ المسلمين، ولن ينجحوا في القضاءِ عليهم، وستبقى الأُمةُ في مواقعِها، تواجههُم وتَصُدُّ كيدَهم، وكلُّ ما يمكنُ أنْ يقْدِروا عليه هو (إيذاءُ) المسلمين. قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ﴾.

أَيْ: لن ينجحَ الأعداءُ في تحقيقِ أهدافِهم ضدَّكم، ولن يوصِلوا الضررَ إلى دينكم، ولن يقتلعوهُ منكم، وسيبقى قوياً راسخاً ثابتاً، كالشجرةِ الصلبةِ الممتدة، وهي التي شَبَّهَ اللهُ بها قوةَ الإسلام ورسوخَه، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

ضر الكفار مجرد أذى سطحي:

إنَّ الكفارَ سيؤذونَ المسلمين، مجردَ أذى، وهو أذى سطحيٌّ خارجيّ، يُصيبُ الجانبَ الماديَّ من الإنسـان، كأعضاءِ جسـمِه، بحيثُ يعذِّبـونَ بعضَ المسلمين، وقد يَقْطَعون بعضَ أطرافِهم، وقد يأخذونَهم أسرى ويضعونَهم في السجون، ويَحكمونَ عليهم بأكثرَ من سجنٍ مؤبَّد، وقد يحاربونَهم في أموالِهم وممتلكاتِهم، وتجاراتِهم وأعمالِهـم، ولكنَّ هذا كلَّه مجردُ (أذى) خارجـيٌّ سطحي، سرعانَ ما يزال، حتى لـو طالَ فتـرةً من الزمـانِ فإنّـه يمكنُ تحمُّلُـه واحتمالُه، والصبرُ عليه، واحتسابُ آلامِه.

أما الإيمانُ في القلب، واليقينُ والثقة، وقوةُ العزيمةِ والإرادة، والتصميمُ على التحدّي والمواجهة، والصبرُ والثباتُ، فإنَّ الأعداءَ لن يصلوا إليها في كيانِ المؤمنين الصادقين المجاهدين الثابتين.

وكلّما ازدادَتْ هجمةُ الأعداءِ على الأُمة شدةً وعُنفاً، كلما ازدادَ المؤمنونَ المجاهدونَ الثابتون عزيمةً وهمّةً وتصميماً وجهاداً ومواجهة.

ونرى في أيامِنا مصداقَ هذا الوعدِ القرآنيِّ في عجْزِ اليهودِ والصليبيين عن القضاءِ على إرادةِ الجهادِ والمواجهة في نفوسِ المجاهدين الصادقين، وكلُّ ما يَقدرون عليه إصابةُ أبدانهم وممتلكاتِهم بالأذى!!.

هزيمة الكفار أمام المجاهدين الصادقين:

وتقدمُ الآياتُ وعداً قرآنياً آخر، بهزيمةِ الكفارِ أمامَ المؤمنين الصادقين: ﴿وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وعندما كان الكافرون يواجهونَ جيوشَ المؤمنين الصادقين كانوا يَنهزمونَ أَمامَهم، ويتحقّقُ هذا الوعدُ القرآنيُّ القاطع.

ولا قياسَ على الفترةِ الحرجةِ التي يعيشُها المسلمون المستضْعَفون في هذا الزمان، والتي انهزمَ فيها المسلمون أمامَ الكافرين، وولَّوْا أَدبارَهم أعداءَهم، وانتصرَ الأعداءُ في حروبِهم المستمرةِ ضدَّهم. فهذه فترةٌ خاصة، ولا يتحملُ الـوعدُ القرآنيُّ مسؤوليتَها، ولم يتخلَّفْ هذا الوعدُ بسـببِها، لأنَّ المسـلمينَ

المعاصرينَ هم السببُ في ما أصابَهم، لأنّهم أخَلُّوا بشرطِ النصرِ الذي شرطَه اللهُ عليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

وسيعودُ المسلمونَ إلى دينِهم، وسيعودُ هذا الوعدُ القرآنيُّ إلى التحققِ في حياتِهم، وسيَرونَ انهزامَ الأعداءِ أمامَهم، هذا عندنا يَقين، وهو قادمٌ بإذْنِ الله.

ذلة اليهود والحبال الممدودة لهم:

وأخبرَنا اللهُ عن الذلّة التي أوقعَها باليهودِ بالذات: ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ﴾.

ولا يتعارضُ ما عليهِ اليهودُ في هذه الأيامِ من مظاهرِ قوةٍ وتمكين، وهيمنةٍ وسيطرةٍ على العالم، مع الوعدِ القرآنيِّ بإيقاعِ وضربِ الذلّةِ والمسكنةِ عليهم.

فقد نصَّت الآيةُ على استثناءِ ذلك من حالةِ الذلَّةِ العامة، وجعلَتْه فترةً قصيرة، وجعلتْهُ حبلاً ممدوداً إليهم من الله: ﴿ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾، لكنه حبلٌ قصير، سرعانَ ما يُقْطَع، ولكنها فترةٌ قصيرةٌ لن تزيدَ عن عشراتِ السنين، وماذا تُساوي عشراتُ السنين أمامَ عشراتِ القرون، التي عاشَها اليهودُ في الماضي، بالذلةِ والمسكنةِ واللعنِ والغضب؟ وإنَّ اليهودَ الملعونين ينتظرُهم مستقبلٌ أسودُ مظلم، يَعيشونَه بالذلّة والمسكنة، والضعفِ والعجزِ والهوان، على أَيْدي المؤمنين الصادقين المجاهدين، الذين سيصدُقُهم اللهُ هذا الوعد، ويمكِّنُهم من أعدائِهم!.

عداوة الأعداء للمسلمين:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

تنهى هذه الآياتُ المؤمنينَ عن موالاةِ الأعداءِ واتخاذِهم بطانةً وخبراء

ومستشارين للمؤمنين، وتُرينا شدةَ عداوتِهم لنـا، وتُقدّمُ لهم صوراً كاشفـة، وتحليلاتٍ صائبة.

الأعداءُ الكافرونَ لا يُقصِّـرونَ في إصابـةِ المؤمنين بالخَبـالِ والضعفِ والعجز، وهم حريصونَ على إصابةِ المؤمنين بالعنتِ والشدةِ والمشقةِ والأذى.

ومهما حاولوا إخفاءَ عداوتِهم عن المسلمين، والتحلّي بالدبلوماسيةِ والخداعِ تجاههم، فـإنَّ ألسـنتَهم تخونُهم أحيانـاً، فتتكلَّمُ ببعضِ الكلمـاتِ والعباراتِ، التي تُصرّحُ بالكراهيةِ والبغضاءِ للمسلمين، والتي تشيرُ إلى ما تُخفي صدورُهم من ذلك.. إنهم حاقدونَ كارهون، مبغضون للمسلمين.

ولن ينجحَ المسلمونَ في إزالةِ العداوةِ والبغضاءِ من قلوبِهم وصدورِهم، وإذا حاولوا حسنَ التعاملِ معهم ومحبتهم، والنظرَ إلى إنسانيتهم، فإنَّ الأعداءَ لا يُمكنُ أنْ يحبّوهم، وأنّى يوجدُ مكانٌ صغيرٌ للحبِّ في قلبٍ امتلأَ حِقْداً وكرهاً وعداوةً وبغضاء؟!.

تحليل قرآني لنفسيات الكفار:

وهؤلاء الأعداء المبغضون يحاولونَ التجمُّلَ والتمثيلَ أمامَ المسلمين، فإذا لقوهم زَعَموا اتفاقَهم معهم على الإيمان، والتعاونِ لخدمةِ الأدْيان، والتنسيقِ لمحـاربـةِ الفسـادِ والإلحـاد. ولكنّهـم إذا خَلَـوْا ببعضِهـم صـرَّحـوا بكـرههـم للمسلمين، وعَضُّوا عليهم الأناملَ من الغيظ.

ومن بغضِهم للمسلمين وحقدِهم عليهم، أنهم لا يحبونَ أنْ ينالَ المسلمونَ خيراً، ولا أَنْ تتحسَّن أحوالُهم، أو تُحَلَّ مشكلاتُهم، وإنْ أصابت المسلمين حسنةٌ استاؤوا وتألّموا، وإن أصابَتْهم سيئةٌ فرِحوا واستبشَروا بها!!.

لقد كانت هذه الآياتُ صادقةً في تحليلِها لنفسياتِ الكافرين، وكشْفِها لعداوتِهم وبغضِهم وكرهِهم للمسلمين. وهي لا تتحدّثُ عن فريقٍ خاصٍّ من الكافرين، ولا عن صنفٍ خاصٍّ منهم، عاشوا في زمانٍ معين، أو مكانٍ معين! إنها تنطبقُ على الكافرين في كلِّ زمانٍ ومكان. وابتُليَ المسلمونَ في كلِّ فتراتِ تاريخِهم الماضي والحاضر بهؤلاءِ الكافرينَ الحاقدين!.

وصدقَ اللهُ العظيم، فإننا نرى هذه الآيات، تتحدّثُ حديثاً تحليلياً كاشفاً، عن الكافرينَ الحاقدينَ علينا في هذا الزمان، من اليهودِ والهنودِ والروسِ والأمريكان، وغيرِهم من الأعداءِ الحاقدين المحاربين.

الصبر والتقوى لمواجهةِ الكفار:

وبعدما قدَّمت الآياتُ هذه الصورَ الكاشفةَ للكفار، دلَّت المسلمين على الطريقةِ التي يُبْطِلون بها كيدَهم، وذلك في قولها: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

وهذا وعـدٌ قرآنيٌّ قاطع، يجبُ على المؤمنينَ أنْ يأْخُذوهُ بيقيـن، وأَنْ يتعامَلوا معه بثقة، وأنْ يلتزموا بالشَّرْطِ لينالوا الجزاءَ والنتيجة.

الخطةُ القرآنيةُ المضمونةُ لإبطالِ كيدِ الأعداءِ تقومُ على عنصرَيْن:

الأول: الصبـرُ المطلَق، بمعنـاه العامِّ الشامل، بـاعتبارِه زاداً إيمانيـاً ضرورياً، للثباتِ على الحق، والتصميمِ على استمرارِ التحدّي للباطل.

الثاني: التقوى المطلقةُ لله، بمعناها العامِّ الشامل، باعتبارِها حالةً إيمانيةً دائمةً، لا تفارقُ المسلمَ في أيِّ لحظةٍ من حياتِه.

بـالصبرِ والتقوى يواجهُ المسلمونَ الكافريـن، ويُبطلـونَ عداوتَهم، ولا يضرُّهم كيدُهم شيئاً، وبذلك يفشلُ الكافرونَ في حربِهم ضدّ المسلمين، وعند ذلك يمكنُ للمسلمين أنْ يُخاطِبوا الكافرين المغتاظين بما أمرَهم اللهُ به في قوله: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾.

ولا بدَّ أنْ يتزوَّدَ المسلمونَ المعاصرونَ بزادِ الصبر، وأنْ يَعيشوا دائماً حالةَ التقوى، وأنْ يَلتزموا بكلِّ أحكامِ الإسلام، ويُحققوا كلَّ شروطِه، ليواجِهوا بذلك حقدَ وكراهيةَ كفارِ هذا الزمان، الذين صَعَّدوا حربَهم ضدَّ المسلمين، وعَمَّقوا حقدَهم عليهم.

وعندما نقرأُ قولَه تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ نتذكَّرُ ونستحضرُ الوعـدَ القرآنيَّ القاطع في قولـه تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

ونتذكَّرُ قولَه تعالى في أواخرِ سورةِ آل عمران: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وعندما تشتدُّ عداوةُ كفارِ هذا الزمان، نتذكَّرُ هذه الآياتِ الكاشفة، ونقول: هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه. ونلتزمُ بالخطةِ القرآنيةِ حتى ننالَ النتيجة: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾!.

* * *

الفَصل الثالث

الوعد القرآني في سورة المائدة

البشرى بإكمالِ الدين وإتمامِ النعمة:

من الآياتِ التي وعدت المسلمينَ بالنصرِ والتمكين، وإظهارِ إسلامِهم، ويأسِ الكافرينِ من القضاءِ عليه، واستمرارِ حربِهم للمسلمين، هذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

تقدمُ هذه الآيةُ بشرى للمسلمينَ بإكمالِ دينِهم، وإتمامِ نعمةِ اللهِ عليهم، كما تقدّمُ لهم وعداً قاطعاً برسوخِ أَمْرِ دينهم، وقوتِه واستقرارِه، بحيثُ ييْئسَ الكفارُ من القضاءِ عليه.

وقد عرفَ المسلمونَ قيمةَ وعظمةَ معنى هذه الآية، وجَعَلوا يومَ نزولِها عيداً!.

روى البخاريُّ [برقم: ٤٥]، ومسلمٌ [برقم: ٣٠١٧] عن طارقِ بنِ شهاب: «أنَّ رجلاً من اليهودِ قال لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين! آيةٌ في كتابِكم تقرؤونَها، لو علينا ـ معشرَ اليهودِ ـ نَزَلت، لاتّخذْنا ذلك اليومَ عيداً!.

قال له عمر: أيُّ آية؟.

قال: قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾.

قال عمر: قد عرفْنا ذلك اليوم، والمكانَ الذي نزَلَتْ فيه على النبيِّ ﷺ، نزَلَتْ عليه وهو قائمٌ بعرفةَ يومَ جمعة».

يريدُ ذلك اليهوديُّ أنْ (يتعالَم) على عمر رضي الله عنه، ويُظهرَ له معرفتَه

بالقرآن، ولذلك قالَ له: إنَّ آية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... ﴾ عظيمة، ولو أنَّها أُنزلَتْ علينا نحن اليهود، لاتّخذْنا يومَ إنزالِها عيداً!.

فردَّ عليه عمر رضي الله عنه، وبَيَّنَ له أنَّ المسلمينَ يَعرفونَ معنى هذه الآيةِ وعظمتِها ودلالتِها، وأنَّ اللهَ أنزلَها في أعظمِ أيامِ السنة، وهو يومُ عرفة، وقد كان يومُ عرفةَ يومَ جمعة، وكان رسولُ اللهِ ﷺ واقفاً بعرفات يوم أنزلها اللهُ عليه.

ويريدُ عمرُ رضي الله عنه أنْ يقولَ لليهودي: لقد جعلْنا يومَ نزولِها عيديْن، وليس عيداً واحداً، فيومُ الجمعةِ الذي أُنزِلتْ فيه عيدٌ أُسبوعي للمسلمين، ويومُ عرفة الذي أُنزلَتْ فيه عيدٌ سنويٌّ للمسلمين.

وقد امتنَّ اللهُ على المسلمين في هذه الآيةِ بالمنّةِ العظيمة، وهي منّةُ إكمالِ دينِهم، وإتمامُ نعمتِه عليهم، حيثُ رضيَ لهم الإسلامَ ديناً، فاكْتَفوا واستَغْنَوا به، ولم يعودوا محتاجين إلى استعارةِ أو استيرادِ غيره.

ووقفَتُنا مع قولِه: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ﴾.

إنَّ هذه الجملةَ تقدّمُ لنا حقيقتيْن عظيمَتَيْن:

يأس الكفار من القضاء على الإسلام:

الحقيقة الأولى: يأسُ الكافرين من القضاء على الإسلام، الذي رضيَه اللهُ ديناً للمسلمين، رغمَ إعلانِهم الحربَ الطاحنةَ ضدَّه، واستخدامِهم كلَّ الأسلحةِ الممكنةِ فيها، ورغمَ استمرارِ هذه الحربِ طيلةَ تاريخِ المسلمين، على اختلافِ أزمانِهم وأوطانِهم.

منذُ بعثةِ رسولِ اللهِ ﷺ، والكفارُ يُعادونَه ويُحاربونه، وطيلةَ الفترةِ المكية من عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ، التي استمرَّتْ ثلاثةَ عشرَ عاماً، والكفارُ يحاربونَ رسولَ اللهِ ﷺ حرباً شرسة، ليس فيها قتالٌ وإطلاقُ نار، لكنها حربٌ بمختلفِ الأسلحةِ الأُخرى، بهدفِ قتْلِ دعوتِه، والقضاءِ على دينِه، ولكنهم فشلوا، وعجزوا عن تحقيقِ هدفِهم!.

ولما هاجرَ الرسولُ ﷺ، اجتمعَتْ أحزابُ الكفرِ من اليهودِ والمنافقين والمشركين، للقضاءِ على دينِه، وحاربَه المشركونَ حرباً عسكريةً، بالإضافةِ إلى

الأساليبِ الأُخرى، واستمرّتْ هذه الحربُ عشرَ سنوات.. ولم يُقَصِّروا في استخدامِ كلِّ ما يَقْدِرون عليه.. ولكنَّهم فَشلوا وخَسروا، وانهزموا أمامَ الإسلامِ.

وقبلَ أنْ يُقْبَضَ رسولُ اللهِ ﷺ نَصَرَ اللهُ دينَه، وأَقَرَّ عينَه بدخولِ كلِّ الجزيرةِ العربيةِ في الإسلام، وفي الشهورِ الأخيرةِ من حياتِه ﷺ حَجَّ حَجَّةَ الوداع، وأنزلَ اللهُ عليه وهو واقفٌ بعرفة هذه البشرى، التي فيها الإخبارُ عن يأْسِ الكافرين من القضاءِ على هذا الدين.

استمرار حربِهم الفاشلة ضدّه:

ومنذ نزولِ هذه الآيةِ وحتى اليوم، أمضَت الأُمةُ المسلمةُ أربعةَ عشرَ قرناً من عمرِها الممتدِّ حتى قيامِ الساعة، ولم تتوقَّفْ محاولاتُ الأعداءِ على اختلافِ أصنافِهم للقضاءِ على الإسلام، فماذا كانت النتيجة؟ عرف كلُّ فريقٍ من الكافرين يأسَه من القضاءِ على هذا الدين، بعدَ أنْ ظنّوا أنَّ القضاءَ عليه قريبٌ سهلٌ ميسور، وشنّوا عليه حرباً شاملةً طاحنة، عَرَفوا في نهايتِها عجزَهم وفشلَهم، وخرجَ الإسلامُ من المعركةِ قوياً عزيزاً منصوراً.

وأجزمُ أنّه لم يحارَبْ أيُّ دينٍ كما حُوربَ الإسلام، ولو أنَّ الحربَ التي شُنَّتْ عليه شُنَّتْ على أيِّ مذهبٍ آخر، لأبادَتْه ودفنَتْه، ولكنّ الإسلامَ القويَّ الحيَّ كان يخرجُ من كلِّ معركةٍ قوياً غالباً منصوراً بإذنِ الله.

ويشهدُ الإسلامُ اليومَ حرباً صليبيةً عالمية، يقودُها اليهودُ والأمريكان، بهدفِ اجتثاثِه والقضاءِ عليه! ولن يكونوا أحسنَ حالاً ومآلاً من الكافرين السابقين، بل سيَنْتَهون إلى ما انتهى إليه مَنْ سبَقوهم من العَجَزةِ المهزومين، وسيبقى الإسلامُ قوياً محفوظاً، وسيخرجُ من هذه الحربِ الصليبيةِ غالباً ظافراً منصوراً بإذنِ الله.

ويبقى الوعدُ القرآنيُّ الذي يقطعُه قولُه تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ نافذاً مُنْجزاً، ويبقى ماضياً محقَّقاً، على اختلافِ الزمانِ والمكان.

لا يخشى المسلمون الكافرين:

الحقيقة الثانية: بما أن الكافرينَ يائسونَ مهزومون، فلماذا يَخشاهم

المسلمون، ويَخافونَهم على دينِهم؟ لا يَجوزُ أنْ يخشوهم، لأنَّ العاجزينَ لا يَخْشاهم أَحَد، والكفارُ عاجزون: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

صحيحٌ أنَّ حربَ الكفارِ للمسلمينَ مستمرةٌ، لكنَّها حربُ يائسين عاجزين، ويجبُ على المسلمين أنْ يُواجهوها ويخوضوها، مع يقينِهم أنّهم الغالبون المنصورونَ فيها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

إنَّ الآيةَ تُقَوِّي المؤمنين على مواجهةِ وتحدّي الكافرين، وترفعُ نفسياتِهم وهمَمهم ومعنوياتِهم أمامَهم، وتَدْعوهم إلى إحسانِ النظرِ إليهم.. إنهم ليسوا غالبين قاهرين، قادرين على كلِّ شيء، كما يُحاولونَ أنْ يوهموا المسلمين بذلك، وإنهم مهما ملكوا من قوة لن يجاوزوا قَدْرَهم، ولَنْ يزيدوا عن حجمِهم، فهم يائسون عاجزون! وكيف يخشى المسلمون عاجزين يائسين؟!.

ردة معاصرة عن الإسلام:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٦].

تتحدَّثُ الآيةُ عن صفاتِ المؤمنين الصالحين، الذين يَحملونَ هذا الدين، إذا تخلّى بعضُ أَهلِه عنه، وهذا وعدٌ صادقٌ من اللهِ، باستمرارِ وجودِ الدعاةِ الصالحين، الذين يَحملونَ لواءَ الإسلام، ويَدعونَ إليه، ويواجهون أعداءَه.

إذا ارتدَّ بعضُ المسلمين عن دينهم فهم الخاسرون، ولن يتأثَّرَ الإسلامُ بهم، وإذا تخلَّى بعضُ المسلمين عن الدعوةِ إلى الإسلام، والحركةِ به ورفْعِ رايتِه، فهم الذين يَخسرون، ولن يضُرُّوا اللهَ شيئاً.

لقد شاءَ اللهُ أنْ يبقى عَلَمُ الإسلامِ مرفوعاً، وأنْ تبقى مهمتُه قائمة، وأنْ يبقى أَثَرُه في الحياةِ مستمراً، وإذا تخلَّى أُناسٌ عنه فسوفَ يأْتي اللهُ بآخرينَ أفضلَ منهم يَحملونَه ويتحرَّكون به.

ونعترفُ أنه قد ارتدَّ كثيرٌ من ملايين المسلمين عن إسلامِهم، في صورةٍ من صورِ الردةِ الكثيرة، وأنه قد ابتعدَ كثيرٌ من المسلمين عن إسلامِهم، وقد تخلَّى كثيرٌ من المسلمين عن إسلامِهم، وتأثَّرَ كثيرٌ منهم بالحياةِ الغربيةِ الجاهليةِ المخالفةِ للإسلام.

لكن هلْ توقَّفَتْ مهمةُ الإسلامِ ودورُه في حياةِ البشرية؟ وهل توقَّفَ المسلمون جميعاً عن التوجُّهِ إلى الإسلام والحركةِ به؟.

شباب الصحوة المجاهدون:

لقد وعدَ اللهُ أنْ يأتيَ بقومٍ ربّانيين، دعاةٍ مجاهدين، يَحملونَ الإسلامَ إذا تخلَّى عنه بعضُ أهلِه، ووَعْدُه نافذٌ ماضٍ، لأنه سبحانه لا يُخلفُ الميعاد.

وفي الوقتِ الذي ظنَّ فيهِ اليهودُ والصليبيُّون، أنهم تمكَّنوا من إماتةِ الإسلام، في بلادِ ونفوس المسلمين، وفي الوقتِ الذي يئسَ فيه كثيرٌ من المسلمين من العودةِ إلى الإسلام، في هذا الوقتِ العصيبِ المعاصر، حقَّقَ اللهُ وعْدَه الذي جزمَ به في هذه الآيات، فألهمَ مجموعاتٍ مباركةً من الشبابِ الإسلاميِّ التوجُّهَ إلى الإسلام، ووفَّقَهم إلى حملِه والدعوةِ إليه والحركةِ به، ووُجِدَتْ صحوةٌ إسلاميةٌ مباركة، في الربعِ الأخيرِ من القرنِ العشرين المنصرم، وقامَتْ حركاتٌ وجماعاتٌ إسلامية في مختلَفِ بلادِ العالم، وسَجّلتْ ظاهرةُ العودةِ إلى الإسلامِ كثيراً من الظواهرِ والأمثلةِ والنماذج.

وانتشرتْ ثقافةُ الجهادِ والاستشهادِ عند الشبابِ الإسلامي، ونشأَتْ حركاتٌ جهاديةٌ في المناطقِ الجهاديةِ الساخنةِ في بلادِ المسلمين، في فلسطينَ والشيشان، والبوسنة وأفغانستان وكشمير، والعراق ولبنان، وغيرها من بلاد المسلمين.

وسوفَ تستمرُّ هذه الصحوةُ الإسلاميةُ المباركةُ بإذْنِ الله، حتى تصحوَ قطاعاتٌ كبيرةٌ من المسلمين، وتُعيدَ بلادَ المسلمين إلى الحكمِ بالإسلام، وجهادِ أعداءِ الإسلام!.

فقد رأَيْنا في حياتِنا تحقّقَ الوعْدِ القرآنيِّ بالإتيانِ بهؤلاءِ القومِ الصادقين، والحمدُ للهِ على فضْلِه وإنْعامِه.

وقد صَبَّ اليهودُ والصليبيّون حربَهم وغضبَهم على شبابِ الصحوةِ الإسلامية، ورجالِ الانتفاضةِ المجاهدة، بحجةِ مقاومةِ الإرهاب، وهَيَّجوا العالَمَ ضدَّهم، ولكنَّ ذلك لا يُضيرُهم شيئاً، ويَكفيهم أنَّ اللهَ معهم.

صفات حزب الله الغالبين:

إنَّ صفاتِ شبابِ الصحوةِ الإسلامية، ومجاهدي الانتفاضةِ الإسلامية المذكورة في الآيات هي:

١ ـ اللهُ يحبُّهم، ومن محبّتِه لهم أنّه ألهمَهم حملَ الإسلامِ والحركةَ به، في وقْتٍ تخلّى عنه كثيرٌ من أبنائِه، وحاربَه كثيرٌ من أعدائِه، وقد حقّقَ هؤلاء الربانيون العزّة والسعادةَ والخيرَ كلَّه بمحبّةِ اللهِ لهم، وماذا عليهم لو كرههم الآخرونَ وحارَبوهم، ويَكفيهم أنَّ اللهَ يحبُّهم، ومَنْ أحبَّهُ اللهُ لم يخسرْ شيئاً، ولو لم يملكْ شيئاً من الدنيا، ومَنْ خسرَ محبةَ اللهِ لم يربَحْ شيئاً ولو ملكَ كلَّ شيء في الدنيا.

٢ ـ هم يحبونَ الله، ومِن مظاهرِ محبتِهم له إكثارُهم من ذكْرِه وشُكْرِه، وحُسن عبادتِه، والتزامُ طاعتِه، وتركُ مخالفتِه، واستمرارُ صلتِهم به، ومِن محبَّتِهم لله محبتُهم لرسولِه محمدٍ ﷺ، واقتداؤُهم به، ومحبّتُهم لدينِه، والغيرةُ عليه، والانتصارُ له، والدعوةُ إليه، والتصدّي لأعدائِه.

٣ ـ هم أذلّةٌ على المؤمنين، لأنهم يجتمعون معهم على عبادةِ اللهِ والأُخوةِ فيه، والتعاونِ على الدعوةِ إليه وجهادِ أعدائِه.

٤ ـ أَعِزَّةٌ على الكافرين، والعزةُ هنا معناها قوةُ البراءةِ والمفاصلةِ من الكافرين، إنهم يكرهونَ الكافرينَ ويُبغضونَهم، لكفرِهم وحربِهم للمسلمين، ويَحرصونَ على عدمِ موالاتِهم ومحبتِهم، وعلى الشدَّةِ عليهم، فليس في قلوبِهم مودةٌ ولا رحمةٌ بهم.

٥ ـ هم مجاهدونَ في سبيلِ الله، جهاداً ربّانياً شاملاً مبروراً، في مختلفِ صورِ الجهادِ وميادينِه وأساليبِه، لأنهم يعلمونَ خطورةَ الهجمةِ الشرسةِ التي يشنُّها اليهودُ والصليبيون على الإسلامِ والمسلمين، وأنّه لا يصدُّها ويردُّها إلا الجهادُ الكبيرُ المستمرُّ المتواصل!.

٦ ـ هم لا يَخافونَ لومـةَ لائم، لأنّهم يستمدّون علْمَهم وثقافَتَهم مـن الإسلام، ويَحتكمونَ إليه، ويَعتبرونَه المرجعيةَ الأُولى لهم، ويَحرصونَ على عدمِ مخالفتِه، والمهمُّ عندَهم أنْ لا يغضبَ اللهُ عليهم. . وعلى الدنيا ومَنْ فيها السلامُ بعد ذلك. فلا يَحسبون للآخَرين حساباً، ولا يَخافونَ لومَهم واعتراضَهم وإدانَتَهم وذَمَّهم، لأنّه لا قيمةَ للآخَرين الكافرين عندَهم، ولا وزنَ لاعتراضِهم أو لومِهم أو إنكارِهم.

٧ ـ هم مُوالونَ لله ولرسولِه وللمؤمنين الصالحين العابدين، متبرِّئون من أعداءِ الله، ومن مظاهرِ موالاتِهم للمؤمنين محبتُهم والذلةُ عليهم، ومن مظاهرِ براءَتِهم من الكافرين جهادُهم، والوقوفُ أمامَ مخططاتِهم ومكائدِهم.

٨ ـ هم عابدونَ لله، مستمتعونَ بذكْرِه وشكْرِه، يُقيمونَ الصلاة، ويُؤتونَ الزكاة، ويكونون مع الراكعين الساجدين، يَلتزمون بالإسلام، ويتحرّكونَ به، ويَدْعونَ إليه، بذلك صاروا أولياءَ لله.

٩ ـ هم حزبُ اللهِ الغالبونَ، فالصفاتُ الإيمانيةُ السابقةُ أوصَلَتْهم إلى هذه النتيجةِ المشرقة. إنهم غالبونَ لأنّ اللهَ معهم، ومنتصرونَ في جهادِهم لأعدائِهم.

إننا نرى هذه الإيجابيـة، في شـبابِ الصحوةِ الإسـلامية والانتفاضـةِ الجهادية، الذينَ أتى اللهُ بهم في هذا العصر، ووفَّقَهم للقيامِ بواجبِهم، والمستقبلُ الإيمانيُّ المشرقُ لهم بعونِ الله.

وعلى كلِّ مسلمٍ صالحٍ يحبُّ الإسلام، ويحبُّ له النصرَ والتمكين، أنْ يكون من هؤلاءِ القومِ الربّانيين، وأنْ يحقّقَ في نفسِه الصفاتِ الجليلةَ التي ذكرَتْها هذه الآيات، ليُقَرِّبَ وعْدَ اللهِ بالغلَبَةِ والنصرِ، الذي هو آتٍ لا محالةَ بإذنِ الله.

* * *

الفصل الرابع

الوعد القرآني في سورة الأنفال

أُنزلَتْ سورةُ الأنفالِ في أعْقابِ غزوةِ بدر، في السنةِ الثانيةِ من الهجرة، وقد عرضَتْ مشاهدَ من أرضِ المعركة، وقدمَتْ حقائقَ إيمانيةً قاطعةً، في المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، ووعوداً قرآنيةً منجَزَةً، في انتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل.

من آياتِها التي قدّمت الحقائقَ وقطعَت الوعودَ ما يلي:

استجابة دعاء قريش سخرية بهم:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩].

تتحدَّثُ الآيةُ عن غزوةِ بدر، وتُشيرُ إلى بعضِ ما قالَه مشركو قريش، وتهدّدُهم وتتوعَّدُهم، وتُحطّمُ معنوياتِهم، وترفعُ معنوياتِ وعزائمَ المجاهدين، فالخطابُ في الآيةِ لكفارِ قريش.

قالَ الإمامُ الحافظُ ابنُ كثير في تفسيرِ الآية: «يقولُ اللهُ للكافرين: إنْ تَستَفْتِحوا وتَسْتَنْصِروا وتسْتَقْضوا الله، وتَستَحْكِموه أنْ يَفصِلَ بينكم وبينَ أعدائِكم المؤمنين، فقد جاءكُم ما سألْتُم.

كما قالَ ابنُ إسحاقٍ وغيرُه عن عبدِ اللهِ بن ثعلبة: أنَّ أبا جهلٍ قالَ يومَ بدر: اللهمَّ أيُّنا كانَ أقطعَ للرَّحِم، وأتانا بما لا يُعْرَف، فأَحْنِهِ الغداةَ! وكان ذلك استفتاحاً منه، فأنزلَ اللهُ الآيةَ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾.

وقال السّدّيّ: كان المشركونَ حين خرجوا من مكةَ إلى بدرٍ أخذوا بأستارِ الكعبة، فاستَنْصَروا الله، وقالوا: اللهمَّ انصُرْ أعلى الجندَيْن، وأكرمَ الفئتَيْن، وخيرَ القبيلَتَيْن، فقالَ الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾. أيْ: قد نصرتُ ما قلْتُم، وهو محمدٌ ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾: عما أنتم فيه من الكفرِ بالله، والتكذيبِ لرسولِه ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: في الدنيا والآخرة.. وقولُه: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ أيْ: وإنْ تَعودوا إلى ما كنتم فيه من الكفرِ والضلالةِ، نَعُدْ لكم بمثلِ هذه الواقعةِ.. وقولُه: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعْتُم من الجموعِ ما عسى أَنْ تجمعوا، فإنَّ مَنْ كانَ اللهُ معه فلا غالبَ له. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وهم الحزبُ النبويُّ والجنابُ المصطفويُّ...» [تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٧ـ٢٩٨].

فَسَّرَ الإمامُ ابنُ كثير الآيـةَ على أساسِ خطابِها لكفارِ قريش، وتهديدِها ووعيدِها لهم، وتحطيمِها لنفسياتِهم وعزائِمِهم، وتيئيسِهم من إمكانيةِ الانتصارِ على المؤمنين، وهذا كلامٌ صحيح، متفقٌ مع سياقِ السورةِ، وسببِ نزولِ الآية.

ولكنَّ الآيةَ ليستْ خاصةً فيما جرى للمشركينَ يومَ بدر، والخطابُ فيها ليس خاصاً بأبي جهلٍ ومَنْ معهُ من المشركين، ومن بدهياتِ أسبابِ النزولِ أنَّ «العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السبب». أيْ: لا يجوزُ قَصْرُ معنى الآيةِ على سببِ نزولِها، والواجبُ الانطلاقُ من سببِ النزولِ إلى الدلالةِ العامةِ للآية، وبيانِ شمولِها للحوادثِ المشابهةِ لسببِ النزول.

والآيةُ التي أمامَنا، يجبُ أنْ نبينَ معناها من خلالِ نزولِها، وحديثِها عن المشركين في بدر، كما فعلَ الإمامُ ابنُ كثير، ثم تعميمُ معناها ودلالتِها، لتشملَ كلَّ حربٍ يعلنُها الكفارُ على المسلمين المجاهدين الصادقين، في أيِّ زمانٍ ومكان.

الآيةُ تخاطبُ الكفارَ، في أيةِ حربٍ يشنّونَها على الإسلامِ والمسلمين، وتُهدّدُهم وتتوعَّدُهم بالهزيمة، وتقذفُ في قلوبِهم اليأسَ من إمكانيةِ تحقيقِ أهدافِهم، في القضاءِ على الإسلامِ والمسلمين.

ولذلك نستشرفُ من الآيةِ وعْداً قرآنياً للمؤمنين بالتمكين، ووعيداً وتهديداً للكفار بالهزيمةِ في النهاية.

ونرى أنَّ هذا الـوعدَ القرآنيَّ قـد تحقّقَ في فتـراتِ التاريخ الإسـلاميِّ المنصرمة، وما زالَ الوعدُ قائماً، يملأُ قلوبَ المسلمين المجاهدين المعاصرين بالثقةِ والأمل، كما يملأُ قلوبَ الأجيالِ القادمةِ من المسلمين بذلك!.

ما نقوله لأعدائنا المعاصرين:

ونعتبرُ هذه الآيةَ الواعدةَ المتوعدة، خطاباً من اللهِ الواحدِ القهارِ إلى اليهودِ والصليبيين، يهدّدُهم فيه بالهزيمةِ والخسارةِ في النهاية. ونقولُ لهؤلاء الأعداءِ المحاربين المعاصرين: كان عليكم أنْ تعتبروا بما جرى لمن سبقكم من الكفار، الذين خَسِروا وانهزموا في حربِهم لهذا الدين، فإنْ تَستفتحوا اللهَ وتدعوهُ أَنْ يهزمَ الكفارَ ـ لأنكم تعتبرون المسلمين هم الكفار ـ فقد جاءَكم الفتحُ، واستجابَ اللهُ لكم، وسيرتدُّ دعاؤُكم عليكم، لأنَّكم أنتم الكفارُ في الحقيقة.

ونقولُ لليهودِ والصليبيين: إنْ تَنتهوا وتَتَوقَّفوا عن حربِ الإسلامِ والمسلمين فهو خيرٌ لكم، لأنّكم بحربكم لنا تقدّمون الخيرَ لنا، حيثُ تفتحونَ عيونَ أبنائِنا على عداوتِكم، فيختارونَ الإسلام، ويُصمّمونَ على مواجهتِكم، وعندما تتوقّفون عن حربِنا تُريحون أنفسَكم.

ونقولُ لهم: إنْ لم تستمعوا النصيحة، وعُدْتُم إلى الحرب، فإنَّ اللهَ يعودُ إلى إذلالِكم، وتطبيقِ سنّتِه المطردةِ عليكم، فقد شاءَ سبحانَه أنْ يحفظَ دينَه، وينصرَ أولياءَه، ويهزمَ أعداءَه.

يَطمئنُّ المؤمنون المجاهدون الصادقون، ويتوكّلون على الله، ويثقونَ ويوقنون بوعْدِ الله، وأنّه معهم سبحانَه بتأْييده وعونِه ورعايتِه، ولهذا يقولون للكافرين المعاصرين: لن تُغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثُرَت.. فمهما ملكتُمْ من أموالٍ وأسلحةٍ متطورةٍ متقدّمة، ومهما جَنَّدْتُم من الجنود، وعقدتُم من التحالُفات واستَنْفَرْتم من الناس، فلن ينفعَكم هذا في النهاية!.

إنكم قد تَهزمونَ مسلمين ضعفاء، وقد تَنْجَحُون في احتلالِ بلاد، كما حصلَ مع اليهودِ في فلسطين، ومع الروسِ في الشيشان، ومع الأمريكان في العراق وأفغانستان، لكنْ مَنْ يضمنُ لكم الاستمرارَ في احتلالِ البلادِ واستعمارِها، ونهبِ خيراتِها وثرواتِها، واستعبادِ أَهلِها؟.

لن تستمرّوا في جرائِمكم، وإنَّ يومَ الجهادِ والتحريرِ قادم، وعند ذلك لن تُغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثُرت، لأنَّ اللهَ مع المؤمنين، فلا تنخدعوا باحتلالِكم واستعمارِكم، لأنَّ العبرةَ إنما هي بالخواتيم، والعاقبةُ دائماً للمؤمنين المجاهدين الصادقين!!.

خسارة الكفار في حربهم للمسلمين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦ ـ ٣٧].

تتحدَّثُ الآيتان عن حربِ كفارِ قريشٍ للمسلمين، ورصدِهم الأموالَ لقتالِهم، والثأرِ لما جرى لهم في غزوةِ بدر.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير في معناهما ومناسبةِ نزولِهما: «قال محمدُ بنُ إسحاق: حدَّثني الزهري وغيره، قالوا: لما أُصيبَتْ قريشٌ يومَ بدر، ورَجَعوا منهزمين إلى مكة، ورجعَ أبو سفيان بالعير، مشى عبدُ اللهِ بن أبي ربيعة، وعكرمةُ بن أبي جهل، وصفوانُ بنُ أمية، في رجالٍ من قريش، أُصيبَ آباؤُهم وأبناؤُهم وإخوانُهم ببدر، فكلَّموا أبا سفيان بنَ حرب، ومَنْ كانتْ له في تلكَ العير تجارة، وقالوا: يا معشرَ قريش: إنَّ محمداً قد وَتَرَكم، وقَتَلَ خيارَكم، فأعينونا بهذا المالِ على حربِه، لعلَّنا أنْ ندركَ منه ثأراً، بمنْ أُصيبَ منا! ففعلوا.. ففيهم أنزلَ اللهُ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقالَ مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما: نزلت الآيةُ في أبي سفيان، ونفقَتِه الأموالَ في أُحُد، لقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقال الضحاك: نزلَتْ في أهلِ بدر.

وعلى كلِّ تقديرٍ فهي عامة، وإن كان سببُ نزولِها خاصّاً، فقد أخبرَ اللهُ أنَّ الكفارَ يُنفقونَ أموالَهم ليصُدُّوا عن اتّباعِ طريقِ الحقّ، فسيَفْعلون ذلك، ثم تذهبُ أموالُهم، ثم تكونُ عليهم حسرةً وندامة. لأنّهم أرادوا إطفاءَ نورِ الله، وظهورَ كلمتِهم على كلمة الحقّ.. واللهُ متمٌّ نورِه، وناصرُ شرعه، ومعلنُ كلمتِه، ومظهرُ دينِه على كلِّ دين. جعلَ اللهُ الخزيَ لهم في الدنيا، ولهم في الآخرةِ عذابُ النار، ومَنْ عاشَ منهم رأى بعينِه وسمعَ بأُذنه ما يسوؤه، ومَنْ قُتِلَ منهم أو مات، فإلى الخزيِ الأبديّ، والعذابِ السرمدي...» [تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٠٨].

الآيةُ نازلةٌ في جمعِ قريشٍ الأموالَ، وإنفاقِها على حربِ الإسلامِ، والصَّدِّ

عن سبيلِ الله، وذكَرَتْ أنّهم لن ينجحوا في هدفِهم، وأنّهم سيُغْلَبون ويَنْهزمون، وسيَخْسَرون تلك الأموال، ويَندمونَ ويتحَسَّرون عليها.

ووقعَ ما جزمَتْ به الآية، فقد خسرتْ قريشٌ في معاركِها ضدَّ رسولِ الله ﷺ، في أُحُدٍ والخندق وغيرهما، وخَسِروا أموالَهم التي رَصَدوها وأَنْفَقوها، وانتهت الحربُ بإزالةِ الكفر، وفتحِ مكة، وإسلامِ أهلِها.

كذلك فعلَ اليهودُ والمنافقونَ في المدينة، حيثُ رَصَدوا وأنفقوا الأموالَ الكثيرة، وبذلوا كلَّ جهودِهم للقضاءِ على الإسلامِ والمسلمين، لكنّهم فشلوا في مَسْعاهم، ولم يخرجوا إلا بخسارةِ تلكَ الأموالِ التي أنفقوها.

والآيةُ ليستْ خاصةً بإنفاقِ الكافرين أموالَهم على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وإنما هي عامة، تنطبقُ على الكفارِ في كلِّ زمانٍ ومكان، يُنفقونَ أموالَهم ليصدّوا عن سبيلِ الله، وتجزمُ بخسارتِهم وحسرتِهم.

الأموال المعاصرة المرصودة لحربِ الإسلام:

الكفارُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يُنفقونَ أموالَهم ليصُدّوا عن سبيلِ الله، وأوضحُ ما يكونُ هذا في هذه الأيام، حيثُ منحَ اللهُ الكفارَ المعاصرين أموالاً طائلة، امتحاناً وابتلاءً لهم، ولكنّهم استخدموا تلك الأموالَ في الفسادِ والإفساد، وفي الصّدِّ عن سبيل الله.

الدولُ الغربيةُ الغنيةُ، وضعت الكثيرَ من الخططِ والبرامجِ لإفسادِ المسلمين، ونشْرِ الانحلالِ بينهم، ولمحاربةِ الإسلام، والقضاءِ على جنودِه ورجالِه، ورصدوا لتلكَ الخططِ والبرامجِ الميزانياتِ الضخمة، التي تُقَدَّر بعشراتِ المليارات من الدولارات، وقدَّموا لها ما استطاعوا من الطاقاتِ والجهودِ، واستخدموا فيها ما قَدروا عليه من الأسلحة، وحَقَّقوا بعضَ الإنجازات!.

لكنَّهم لم يتمكَّنوا من تحقيقِ هدفِهم الكبير، في القضاءِ على الإسلام، والصَّدِّ عن سبيلِ الله، ولن يتمكَّنوا من ذلك في المستقبلِ أيضاً!.

إنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ تقدِّمُ لنا وعداً قرآنياً، بانتصارِ الإسلامِ في معركتِه مع الباطل، وبعدمِ نجاحِ الكفارِ في الصَّدِّ عن سبيلِ الله، رغمَ إنفاقِهم أموالَهم

الطائلة، وهذا الوعدُ القرآنيُّ يتحقّقُ في كلِّ جولةٍ من جولاتِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، وتتجلّى فيه نتيجةُ كلِّ خطةٍ من خططِ الكفار، وتَؤولُ إليه كلُّ ميزانيةٍ ضخمةٍ من ميزانياتِ الكفار.

اسْأَلوا الفرنسيين والإنكليز، عن مصيرِ ميزانياتِهم الضخمةِ لحربِ الإسلام، والصّدِّ عن سبيلِ الله، واسْأَلوا اليهودَ والأمريكان، عن مصيرِ عشراتِ المليارات من الدولارات، التي رَصدوها لحربِ الإسلامِ والصّدِّ عن سبيلِ الله! وانظروا إلى قوةِ الإسلامِ الزاحف، وتمكُّنِه من قلوبِ وحياةِ كثيرٍ من المسلمين الصالحين.

كلما نقفُ على خطةٍ شيطانيةٍ كافرةٍ لحربِ الإسلام، نتذكَّرُ هذه الآية، وكلّما نطلعُ على ميزانيةٍ ضخمةٍ لتمويلِ تلك الخطة، نتذكَّرُ هذه الآية، ونَعيشُ معناها، ونثقُ بالوعْدِ القاطعِ المنجزِ الذي تُقدّمُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

* * *

الفصل الخامس

الوعد القرآني في سورة التوبة

سورةُ التوبةِ من آخرِ ما نزلَ من القرآن، وكانَ نزولُها في التعقيبِ على أحداثِ غزوةِ تبوك، في السنةِ التاسعةِ من الهجرة، وفيها تقريرُ الأحكامِ النهائية، للمواجهة بين الحقِّ والباطل.

وقدَّمَتْ آياتُ السورةِ وعوداً قاطعةً، لانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، وفقَ سُنَّةِ الله التي لا تتبدَّل. من هذه الآيات:

وجوب قتال الكفار:

أولاً: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣].

تُخبرُ الآيةُ عن جهودِ الكافرين، على اختلافِ الزمانِ والمكان، في محاربةِ دينِ اللهِ، وعدم نجاحِهم في تلك الجهود. وتقدمُ وعداً قاطعاً من اللهِ بإظهارِ الإسلام على ما سواه من الأديان، رغمَ أنفِ الكافرين.

والآيتان في سياقِ آياتٍ تتحدّثُ عن المشركين، وأهلِ الكتابِ من اليهودِ والنصارى، تُعرِّفُ المسلمين عليهم، وتأمُرهم بقتالِهم، وتُبيّنُ سببَ اعتبارِ أهلِ الكتابِ كافرين.

المشركون أعداءٌ نَجَس، لا يجوزُ للمسلمين أنْ يَأْذَنوا لهم بالاقترابِ من المسجد الحرام.. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى كافرون أعداء، ويَجبُ على المسلمين

قتالُهم، حتى يُذِلّوهم، ويأْخُذوا منهم الجزية، وتُبينُ الآياتُ الأسبابَ التي تَدْعو المسلمين إلى قتالِهم. قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورغمَ أنَّ أهلَ الكتابِ يملكونَ كتباً من عندِ الله؛ التوراة والزبور عند اليهود، والإنجيل عن النصارى، إلاّ أنهم ألّهوا غيرَ الله، وزعموا لله ابناً، وعَبَدوا أحبارَهم ورهبانَهم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١].

حرص الكفار على إطفاء نور الله بأفواههم:

وتنتقلُ الآياتُ من بيانِ فسادِ عقيدةِ المشركين وأهلِ الكتاب، وبيانِ كفرِهم والدعوةِ إلى قتالِهم، إلى الحديثِ عن عداوتِهم لهذا الدين، وسعْيِهم للقضاء عليه: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

الكلامُ في الآيةِ على أصنافِ الكفارِ الثلاثة، المذكورين في الآياتِ السابقة، وهم: المشركون، واليهود، والنصارى.

والمصدرُ من ﴿ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لفعل ﴿ يُرِيدُونَ ﴾. أَيْ: يُريدونَ إطفاءَ نورِ الله.

والمرادُ بنورِ الله: الإسلام. الذي ختمَ اللهُ به الأديان، وجعلَه الدينَ الوحيدَ المقبولَ عنده حتى قيامِ الساعة، وهو نورٌ ينيرُ للناسِ طريقَهم، وهدى يهديهم إلى الحق، ويدلُّهم على ما يريدُه اللهُ منهم.

والكفارُ على اختلافِ أصنافِهم، يَكرهونَ هذا النورَ الكاشفَ الهادي، ولذلك يَحرصون على القضاء عليه.

صورة مضحكة للكفار في حربهم:

وترسمُ الآيةُ صورةً شاخصةً ساخرةً لهؤلاء الكفار، في محاولاتِهم اليائسةِ

المتعدّدةِ لحرب الحق: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.. إننا نتخيلُ بخيالِنا منظراً مضحكاً، نرى فيه مجموعةً من الناس، لم يُعجبهم ضوءُ الشمسِ وقتَ الظهر، في يومٍ صيفيٍّ حارّ، وأرادوا القضاءَ على الشمسِ وضيائِها! ولكنْ كيف؟ صاروا ينفُخونَ على ضوءِ الشمسِ بأفواهِهم، ويُخرجون الهواءَ من صدورِهم، ويوجِّهونَه للشمس لإطفائها!!.

وعندما نَراهم على هذه الصورةِ المضحكة، نَعجبُ من بلاهتِهم وسذاجتِهم، ولو أنَّ البشريةَ كلَّها قامَتْ بالنفخِ على الشمسِ لما أَطفأَتْها، وأَنْفاسُهم لا تمتدُّ لأبعدَ من أمتارٍ قليلة، فضْلاً عن أنْ تمتدَّ إلى الشمس! فلْيَنْفُخوا ما شاؤوا أنْ يَنْفُخوا!!.

وهكذا محاولاتُ الكافرينَ جميعاً للقضاءِ على الإسلام، إنها لا تخرجُ عن هذه الصورةِ البلهاءِ الساذجة، ولن تكونَ محاولاتُهم اليائسةُ أحسنَ من نفخاتِ سُذَّجٍ لإطفاءِ ضوءِ الشمس!.

إننا نعترفُ أنَّ كفارَ هذا الزمانِ من اليهودِ والصليبيين والأمريكان، يشنّونَ على الإسلامِ حرباً شرسةً فظيعةً عنيفة، يستخدمون فيها مختلفَ الأسلحةِ والأساليبِ والوسائل، ليسَ السلاحُ العسكريُّ المتطوِّرُ إلاّ واحداً منها، ونعترفُ أنَّ هؤلاءِ الأعداءَ نجحوا في تحقيقِ بعضِ المكاسبِ في بلادِ المسلمين..

لكننا نَجزمُ أنهم لن ينجحوا في القضاءِ على الإسلام، ولن يتمكَّنوا من إطفاءِ نورِ الله، لا بأَفواهِهم ولا بأيديهم ولا بأموالهم، ولا بغير ذلك. وهم في هذه الحربِ الشرسةِ، كتلك المجموعة التي تنفخُ على الشمسِ لإطفاءِ ضوئها.

يأبى الله إلا أن يتم نوره:

إنهم لن ينجحوا في ذلك لأنهم يحاربونَ اللهَ، ويَقفونَ أمامَ إرادتِه، وقد أرادَ اللهُ إتمامَ نورِه، وأبى إلاّ أنْ يفعلَ ذلك: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وكل كلمةٍ في هذه الجملةِ تؤكِّدُ على إتمامِ اللهِ لنورِه، وعَبَّرَتْ عن ذلك بالإباء، والإباءُ دالٌّ على الرفضِ والامتناع، فاللهُ يرفضُ عدمَ إتمامِ نورِه، ويمنعُ أَعداءَه الكافرين من تحقيقِ مرادِهم ضدَّه، ولذلك لن يُحققوا ما يُريدون.

والمرادُ بإتمامِ نورِه انتصارُ دينِه الإسلام وانتشارُه، وظهورُه والتمكينُ له، فاللهُ متمٌّ نورِه، وناصرُ دينِه، حتى لو كرهَ الكافرون ذلك، ولو حاولوا تعطيلَ إرادةِ الله، فمحاولاتُهم فاشلة، وكراهتُهم لا قيمةَ لها، ولا وزْنَ لهم ولا اعتبار عند الله، فلا يهمُّ كرهُهم أو رضاهم.

وجوابُ الشرط في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ محذوف، دلَّ عليه ما قبلَه. والتقدير: ولو كره الكافرونَ إتمام النور وانتصار الدين، فاللهُ متمٌّ نورِه وناصرُ دينه.

الإسلام وحده دين الحق وما سواه باطل:

وتخبرُ الآيةُ الثانيةُ عن إظهارِ الإسلام، والتمكينِ له: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

أرسلَ اللهُ رسولَه محمداً ﷺ بالهدى، وقَصَرَ الهدى على دينه، فلا هُدى في غيرِه من الأديانِ والأفكار. وجعلَ اللهُ دينَه الإسلامَ هو الدينَ الحق، أي الدينُ الوحيدُ المقبولُ عند الله، وهو الدينُ الحَقُّ لأنّه محفوظٌ بحفْظِ الله، لا يمكنُ أنْ تمتدَّ إليه يدٌ بشريةٌ بالتحريفِ أو التزوير، وكلُّ ما فيه حقٌّ وصواب، لأنّه من عندِ الله.

وإذا كانَ الإسلامُ وحدَه هو الدينَ الحق، الذي يَدينُ به المسلمُ لله، فإنَّ الأديانَ الأخرى كلَّها أديانٌ باطلة، لأنها طالَتْها يدُ التحريفِ والتبديل.

وبما أنَّ الإسلامَ هو الدينُ الحق، وغيرُه أديانٌ باطلة، فإنَّ الإسلامَ سينتصرُ عليها، لأنَّ سنَّةَ اللهِ تقررُ انتصارَ الحقِّ على الباطل.

وصْفُ الإسلامِ في هذه الآيةِ بأنه: ﴿دِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو نفسُه وصْفُه بآيةٍ سابقة بأنه دينُ الحق، ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، فأهلُ الكتابِ من اليهودِ والنصارى، يَدينونَ بدينٍ، أَصْلُه سماويٌّ من عند الله، ولكنهم عَدَوْا على ذلك الدينِ فحرَّفُوه وغَيَّروه وبدَّلوه، وبذلك صاروا يَدينون دينَ الباطل، وليس دينَ الحق.

دينُ الحقِّ في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو نفسُه دينُ الحَقِّ، المذكورُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ

وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ . . وهذه لفتةٌ مقصودةٌ في كتاب الله .

إظهار دين الله على الدين كله:

وقد قدَّرَ اللهُ الحكيمُ إظهارَ الإسلامِ على الدينِ كلِّه : ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ .

اللامُ في ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ لامُ العاقبة، التي تدلُّ على العاقبةِ والنتيجة، فعاقبةُ ونتيجةُ إرسالِ الرسولِ ﷺ بالدينِ الحق، هي إظهارُ هذا الدينِ على الدين كله، فالهاءُ في ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ تعودُ على الإسلام الدينِ الحق. والمرادُ بالدينِ كلِّه أيُّ دينٍ آخر غيرِ الإسلام، ويَدخلُ فيه الأديانُ ذاتُ الأصلِ السماوي، كاليهودية والنصرانية .

لقد كانت اليهوديةُ في الماضي السحيق دينَ الحق، الذي أرسلَ اللهُ به رسلَه إلى بني إسرائيل، ولما حَرَّفَها اليهودُ بعدَ ذلك لم تَعُدْ دينَ الحقّ، وأصبحتْ بذلك التحريفِ الدينَ الباطل. . وكانت النصرانيةُ زمنَ عيسى عليه السلام دينَ الحق، ولما حَرَّفَها النصارى بعد ذلك لم تَعُد الدينَ الحق .

سيُظهِرُ اللهُ الإسلامَ الدينَ الحق، على الدينِ الباطلِ كلِّه، ولو كره المشركون المتَّبِعون للدينِ الباطل، فكراهيتُهم لا قيمةَ لها عندَ الله، فسواءٌ كَرِهوا أو رفضوا، وسواءٌ وافقوا أو عارضوا، فلا وزْنَ لهم عندَ الله .

وجوابُ شرطِ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ محذوف، دلَّ عليه ما قبلَه، أَيْ: لو كرهَ المشركونَ إظهارَ الإسلامِ على الدينِ كلِّه، فإنَّ اللهَ سيُظهره .

مظهران لإظهارِ الإسلام على غيره:

وإظهارُ الإسلامِ على الدينِ كلِّه له مظهران :

المظهرُ الأول: مظهرٌ معنويّ، إظهارُ الإسلامِ فيه بمعنى وضوحِ حججِه وأدلّتِه وبراهينِه، وقوةِ منطقِه، وصدقِ حقائقِه وموضوعاتِه ومضامينه .

المظهرُ الثاني: مظهرٌ ماديٌّ؛ يقومُ على انتصارِ الإسلام على الكفر، وانتصارِ المسلمين على الكافرين في الجهادِ والقتال، وفتْحِ البلدانِ والممالك، ودخولِ الناسِ في الإسلام .

وهذا وَعْدٌ صادقٌ من الله، يتعاملُ معه المؤمنُ بثقةٍ ويقين، ويعتقدُ أنه لا بدَّ من أنْ يتحقَّقَ، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد.

وقد تحقَّقَ المظهرانِ المذكورانِ لإظهارِ الإسلامِ على الدينِ كلِّه، في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه، فكانت حجةُ الإسلامِ بالغة، وآياتُه ساطعة، وفتحَ اللهُ له البلاد، في الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر وغيرها، ودخلت الشعوبُ المختلفةُ في هذا الدين.. وعاشَ المسلمونَ سعداءَ بالإسلامِ قروناً عديدة.

ولكنَّ المسلمين في هذا العصرِ تخلَّوا عن الإسلامِ، ولم يلتزموا بما أمرَهم اللهُ به، فذلّوا وضعُفوا، وهزمَهم الأعداء، وطمعوا في بلادِهم وثرواتِهم.

الإظهار الفكري المعاصر للإسلام:

ورغمَ انحسارِ الإسلامِ عن الوجودِ الماديِّ المؤثّر، وعدمِ تحققِ المظهرِ الماديِّ لإظهارِه على الدينِ كلِّه، بسببِ تقصيرِ المسلمين، وإخلالهم بشروطِ هذا التمكين المادي، فإنَّ الإظهارَ المعنويَّ متحقّق، ومستمرٌّ طيلةَ قرونِ التاريخِ الإسلامي.

لقد أظهرَ اللهُ الإسلامَ على الكفر، المتمثلِ في دينِ المشركين واليهودِ والنصارى، على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وأيَّدَه بالحججِ والآياتِ والبراهين، كما أظهرَه على كلِّ الأديانِ والأفكارِ والمبادئ الكافرة، طيلةَ قرونِ التاريخِ الإسلامي.

وإننا نرى تحققَ هذا الوعدِ القرآنيِّ الحق في عصرِنا الحاضر، الذي شهدَ هجمةً يهوديةً صليبيةً شرسةً ضدَّ إسلامِنا، ومع ذلك فإنَّ إسلامَنا ظاهرٌ غالبٌ بفضلِ الله، ونورُه منتشرٌ في مختلفِ البقاع، ولا يقفُ أمامَ منطقِه المقنعِ أيُّ دينٍ أو مذهب، ويفتحُ اللهُ له قلوبَ كثيرين من الباحثين والمفكّرين، في الشرقِ والغرب.

وإننا نوقنُ أنَّ المستقبلَ إنما هو للإسلام، وسيزيدُه اللهُ إظهاراً دعويّاً وإعلامياً، وسيكونُ هذا تمهيداً لإظهارِه الماديِّ القادم، حيث سيحكمُ الأرضَ كلَّها من جديد!.

المسلمون ينالون إحدى الحسنيين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

هذه الآيةُ في سياقِ آياتٍ تتحدَّثُ عن المواجهةِ بين المسلمين والكافرين، من المشركين واليهود والمنافقين، تُعلِّمُ المسلمينَ كيف يتحدَّوْنَ الأعداءَ ويواجهونهم، ويَصمدونَ أمامَهم، ويَثبتونَ على الحقّ.

يشنُّ الأعداءُ حربَهم الطاحنةَ على المسلمين بهدفِ قتالِهم وقتْلِهم والتخلصِ منهم، ولكنَّ المسلمين لا يخافونَ منهم، ولا من حربهم، لأنَّهم يؤمنون بالقَدَر، ويوقنونَ أنّه لا يقعُ بهم إلاّ ما قدَّرَه الله لهم أو عليهم، وأنَّ ما قـدَّرَه اللهُ واقعٌ لا محالة، ولذلك يرضونَ به، ويشكرونَ اللهَ عليه إنْ كان خيراً، ويصبرونَ عليه إنْ كان شرّاً، ويصارحونَ الكفارَ بهذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

بهذا الإيمانِ واليقينِ يواجهُ المؤمنونَ مؤامراتِ الكفارِ ضدَّ الإسلام، وتخطيطهم للقضاءِ عليه، ويأمرهم اللهُ أنْ يقولوا لهم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾. والتربُّصُ هو الانتظارُ!.

أيْ: ماذا تنتظرونَ أنْ يُصيبَنا من مؤامرتِكم ومخططاتِكم وحروبِكم؟ إنكم قد تنجحونَ في إيذائِنا وقتلِنا، ولا تظنّوا أننا خسرنا بذلك، فنحن قد نلْنا الحسنى، وهي الشهادةُ في سبيلِ الله، لأنَّ الشهداءَ ليسوا أمواتاً، بل أحياءٌ عندَ ربّهم يُرْزَقون، والشهادةُ في سبيلِ اللهِ أقصى أمانينا، ومَن نالَها نالَ الخيرَ كلَّه، ولم يخسَرْ شيئاً، حتى لو فاتَتْه الدنيا كلُّها.

وإذا نحنُ غلَبْناكم وهزمْناكم وانتصرْنا عليكم، كنا نحن الفائزين، وكنتم أنتم الخاسرين، وهذه حسنى ننالُها، حسنى النصرِ والظفرِ والتمكينِ في الأرض.

فأنتم لا تتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، حسنى النصر في الدنيا، أو حسنى الشهادةِ في سبيلِ الله، فأنتم أعداء، ولكن لا يصيبُنا منكم إلا الخيرُ بفضْلِ الله، لأنَّ اللهَ لا يريدُ بنا إلا الخير، حتى الضرّ والأذى خيرٌ لنا في النهاية.

ماذا ينتظر الكفار من المسلمين؟:

لكن ماذا نتربّصُ بكم؟ وماذا ينتظرُكم من السوءِ والشّرِّ والعذاب؟ : ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ .

إنكم كفار، والكفرُ شرّ وخرابٌ وهلاكٌ لأصحابِه، وليسَ للكفارِ عند الله إلا العذابُ والعقابُ والهلاك! وإنّ سنّةَ اللهِ هي إهلاكُ الكافرين وتعذيبُهم.

نحنُ نتربّصُ بكم أَنْ يُصيبَكم اللهُ بعذابٍ من عندِه، إما بزلزالٍ أو بركانٍ، أو عاصفةٍ أو صاعقةٍ، أو طوفانٍ أو جدبٍ ومَحْلٍ، أو ذهابِ أموالٍ وتدميرِ مزروعات، أو ارتفاع الأسعارِ وتفشّي البطالة، أو انتشارِ الأمراضِ والهمومِ والآلامِ والأحزان، أو أيِّ صورةٍ من صورِ العذابِ لا تخطرُ ببالكم.

وإمّا أن يعذبَكم اللهُ بأيدينا، بأَنْ يُقَدِّرَ نشوبَ الحربِ بيننا وبينكم، ويوقعَ فيكم القتلى والجرحى والدمارَ والهلاك، وينصرَنا عليكم!.

إنَّ المستقبلَ ليس لكم، لأنَّ الكفرَ لا يأْتيكم إلاّ بالشرّ والعذاب، وإنه ينتظركم مستقبلٌ مظلم، مليءٌ بالعذابِ والضّرّ!.

ويقولُ المؤمنون للكافرين: ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ : أيْ: تربّصوا بنا إحدى الحسنيين، النصرَ أو الشهادة، فالمستقبلُ لنا، وفيه التمكينُ لإسلامِنا، ونحنُ معكم متربصون، ننتظرُ أنْ يأْخذَكم اللهُ بأحَدِ العذابين، إما عذابٌ من عنده، وإمّا عذابٌ بأيدينا.

تحدّي الكفار بأن المستقبل للمسلمين:

وهذا التحدّي للكافرين يدلُّ على أنَّ المستقبلَ المشرقَ للإسلامِ والمسلمين، والمستقبلَ الأسودَ المظلمَ للكافرين، كما يدلُّ على النظرةِ الآملةِ التي ينظرُها المؤمنون للمستقبل، وهي نظرةٌ مليئةٌ بالثقةِ واليقينِ والأمل، فهم يوقنون أنه لا مستقبلَ لأعدائِهم الكافرين، وإنما هو لهم، فهم مفلحون فائزون، رابحون كاسبون، لا ينتظرُهم عندَ اللهِ إلاّ الخير.

وتقدمُ الآيةُ وعداً حقاً للمسلمين، ووعيداً وتهديداً للكافرين.. وقد حقّقَ اللهُ وعْدَهُ للمسلمين السابقين، وأوقعَ عقابَه بأعدائِهم الكافرين.